مذكرات

السلطان عبد الحميد

ترجمها عن النص الأصلي وكتب مقدمتها
وحواشيها وقابلها بمذكرات المعاصرين

الدكتور محمد حرب

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة

دار القلم
دمشق

مذكرات

السلطان عبد الحميد



● ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يفضح تلفيق مزيِّفي التاريخ ويكشف أضاليلهم، إذ طالما صوَّروا السلطان عبد الحميد ظالماً مستبداً ونسبوا إليه ـ زوراً وبهتاناً ـ أشنع الجرائم مع أنه معروف بتقواه وإخلاصه، ليسوِّغوا المؤامرات الصليبية والماسونية التي عزلته وقضت على الخلافة الإسلامية. ويشاء الله ألَّا تضيع الحقيقة فتظهر هذه المذكرات لتتحدث عن حقيقة الوقائع المزيفة ولتُظهر أنَّ عزل عبد الحميد وإنهاء الخلافة قُصد بهما ضربُ الكيان الإسلامي وتمزيقُه، لأنه ـ على ما فيه من ضعف شديد ـ يقف في وجه الصليبيين ويحول دون آمال الصهيونيين في إقامة دولة إسرائيل. والآن وبعد أن مرت على تلك الأحداث سنوات كثيرة سيجد من يقرأ هذه المذكرات أن كلَّ ما تخوَّف منه عبد الحميد قد تحقق، وأنَّ المقصود بالعزل والتشتيت هو الكيان الإسلامي أولاً، وأنَّ الخصوم الحقيقيين هم الصهيونيون والصليبيون.

الطبعة الثالثة

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

الإهداء

إلى الإنسان الأصيل والنموذج القدوة؛
النابض قلبه بكلِّ المعاني الرقيقة السامية؛
عثمان طوب باش

أحبُّ إخواني إلى قلبي،
رمزًا لفضل ودِّه وحنان أُخُوَّته،
وصدقه النابض بالخير.

المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الدكتور محمد حرب

أوّلاً:

الدّراسة والتّقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة الطبعة الثالثة

أولاً: كلمة هامّة لا بُدَّ منها

(١)

حدثت أخطاء مطبعية كثيرة وتداخُل كبير ملحوظ بين صفحات الطبعة الأولى من هذه المذكرات (طُبعت في دار الأنصار عام ١٩٧٨م). وانتقلت هذه الأخطاء وهذا التداخل الكثير الملحوظ إلى الطبعة المُصَوَّرة عنها التي أصدرتها دار الوثائق بالكويت. فلا ناشر الطبعة الأولى كلَّف خاطره بأن يُرسل إليَّ في إستانبول تجارب الطبعة الأولى التي طبعها في دار الأنصار بمصر، لكي أراها وأصحِّحها بنفسي وأطمئنّ إليها، ولا كلَّفت دار الوثائق بالكويت نفسها استئذاني ومراجعتي في إصدار طبعتها المصوَّرة هذه حتى يمكن تلافي ما حدث في الطبعة الأولى؛ لذلك صدرت مصوَّرتها هذه تحمل أخطاء وتداخل طبعة دار الأنصار أيضاً. وقد راجت الطبعة الأولى ومصوَّرتها الكويتية نظراً لاحتياج الباحثين والمثقفين إلى هذه المذكرات وموضوعات هذه المذكرات، وإن ظلَّت الحاجة التاريخية إلى طبعة سليمة مضبوطة، باقية وماسَّة.

وقد تداركتُ هذه الأخطاء وهذا التداخل في الطبعة الثانية من هذه المذكرات التي أصدرتها دار الهلال بمصر عام ١٩٨٥م ـ على ما فيها! ـ تداركاً طيِّباً نوعاً ما أَعطى لمذكرات السلطان عبد الحميد وجهاً منضبطاً صحيحاً بقدر الإمكان.

(٢)

أما هذه الطبعة الثالثة التي تصـدرها دار القلم بـدمشق فهي طبعة دقيقـة دقّة هذه الدار في إخراج مطبوعاتها.

* * *

امتازت هذه الطبعة ــ طبعـة دار القلم بدمشق ــ بمميـزات تجعلها ثقـة في التداول والإفادة وراحة الاستخدام ويسر التعامل. وهذه المميزات هي:

١ ــ الإفادة من مذكرات كبار رجال السياسـة العثمانيـة المعاصـرين للسلطان عبد الحميد وقد عثرنا على بعضها في المكتبات القديمة في إستانبـول، وصدر بعضها الآخر حديثاً. وأهمها:

* مذكرات علي سعيد بك وهو من المقرَّبين للسلطان وهي قـد كشفتْ عن جوانب من نيّات السلطان.

* ومـذكرات طلعت بـاشا غـريم السلطان ومن أكبر المعـادين له. وقـد قـدَّمَتْ معلومات جـديـدة عن قضيـة فلسـطين وعن مـوقف حكـومـة الانقــلاب ــ على السلطان ــ من ضرورة إقــامـة دولــة لليهــود في فلسطين.

٢ ــ الاهتمام بتلافي الأخطاء المطبعية.

٣ ــ العناية بترتيب صفحات هـذه المذكـرات، وترتيبهـا كذلـك على عناوين جانبية تيسِّر قراءتها واستخدامها.

٤ ــ إدراج قائمة المصادر والمراجـع وقد سقطت من الطبعتين السابقتين.

٥ ــ شـرح المصطلحـات الغامضـة وتوضيـح الكلمـات والأحداث الغـامضة والمعاني والمسائل التاريخية.

٦ ـ مقارنة ما جاء في مذكرات السلطان بمذكرات الانقلابيين في مسائل تهمّ القارىء المسلم عموماً والعربيّ خصوصاً وكذلك المثقف العام في أمور مثل: المخابرات والديمقراطية والماسونية وفلسطين.

٧ ـ إدراج مواد تراجم وأعلام جديدة.

٨ ـ وضع فهرست تفصيلي يريح الباحث عن المواد الدقيقة والعامة في هذه المذكرات.

* * *

وبذلك جاءت هذه الطبعة ـ طبعة دار القلم بدمشق ـ دقيقة متكاملة واضحة مفيدة سهلة الاستخدام.

● ● ●

ثانيًا: المؤرِّخون المتخصِّصُون والكُتّاب الكبار الذين أفادوا من هذه المذكّرات

(١)

استفاد من مذكرات السلطان عبد الحميد ـ هذه التي نقدم ترجمتها في طبعتها الثالثة ـ واقتبس منها واتّخذها مرجعاً ومصدراً أساسياً مجموعة من كبار المؤرخين الأتراك المعاصرين الذين أرَّخوا لعهد السلطان عبد الحميد. وأفاد منها كثيراً، كبار الكُتّاب والمفكرين الإسلاميِّين في تركيا، ومؤرِّخين غير أتراك. ومن الصعب هنا حصر هؤلاء لكنا نقدم نماذج منهم هي أمثلة.

من المؤرِّخين الأتراك الثقات الذين أفادوا من هذه المذكرات في لغتها الأصلية:

علي حيدر في كتابه «مرآت حيرت» (إستانبول ١٣٢٥). وهو ابن

مدحت باشا السياسي العثماني المشهور، والمؤرخ الكبير **إسماعيل حامي دانشمند** في كتابه «تقويم التاريخ العثماني» وهو كتاب في أربعة أجزاء (إستانبول ١٩٤٧ ــ ١٩٥٥م)، والأستاذ الدكتور **أنور ضيا قارال** أستاذ التاريخ العثماني الحديث في جامعة أنقره في الجزء الثامن من كتاب «التاريخ العثماني» (أنقره ١٩٨٣م ط ٢)، والمؤرخ التركي **يلماز أوزطونه** صاحب كتاب «تاريخ تركيا الكبير» (١٢مجلداً، إستانبول ١٩٧٥م)، والمؤرخ المعروف **جمال قوطاي** في شرحه لمذكرات طلعت باشا (٣ أجزاء، إستانبول ١٩٨٢م) خاصة في الجزء الأخير من هذه المذكرات، مذكرات السلطان عبد الحميد، والأستاذ الدكتور **إحسان ثريا** أستاذ التاريخ العثماني الحديث في جامعة أرضروم في كتابه «السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية» (إستانبول ١٩٨٥م)، والدكتور **رفعت أوچار أول** الدكتور في التاريخ في رسالته للدكتوراه عن «الغازي أحمد مختار باشا وعهد السلطان عبد الحميد» (إستانبول ١٩٧٦م)، والأستاذ الدكتور **جودت كوچوك** أستاذ التاريخ الحديث في جامعة إستانبول في مادة «السلطان عبد الحميد الثاني» في دائرة المعارف الإسلامية التركية ــ التي تصدرها مؤسسة وقف الشؤون الدينية في تركيا ــ (إستانبول ١٩٨٩م)، والدكتور **عرفان كوندوز** الأستاذ المساعد في كلية الإلهيات بجامعة مرمرة في إستانبول في كتابه «العلاقة بين الدولة والتكايا عند العثمانيين» (إستانبول ١٩٨٣م).

(٢)

ومن الكُتّاب الإسلاميين الذين استخدموا هذه المذكرات وأفادوا منها في كتاباتهم في تركيا: المفكر الإسلامي **نجيب فاضل** وهو رائد الأدب الإسلامي المعاصر في تركيا وأكبر اسم في الأدب التركي الإسلامي ويُلقَّب بعميد الأدب التركي، في كتابه «الخاقان العظيم: السلطان عبد الحميد

الثـاني» (إستـانبـول ١٩٨١م)، وكـذلـك المؤرخ والكـاتب الإسـلامي البـارز **مصطفى مفتي أوغلو** في كتابه «السلطان عبد الحميد بكل جـوانبه» (إستـانبول ١٩٨٥م)، والمؤرخ والكـاتب الإسلامي النشيط **صـادق آل بايـراق** في كتـابـه «الردّ على الأفغاني» (إستانبول ١٩٧٦م).

* * *

واستخدم هذه المذكرات في لغتهـا الأصلية كُتـاب مؤرخون غيـر أتراك منهم على سبيـل المثال المؤرخ البـاكستاني الـدكتـور **فيـروز أحمـد** ــ يكتب بالإنجليزية ــ وهو يؤرخ لتركيا الحديثة والمعاصرة، وذلـك في كتابـه «الاتحاد والترقي»، والمؤرخ الأمريكي **ستانفورد شو** في كتابه «الإمبراطـورية العثمـانية وتركيا الحديثة».

• • •

ثالثًا: كلمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي في هذه المذكرات وترجمتها

(١)

أنقل هنا في هذه المقدمـة الكلمة التي وردت عن هـذه المذكـرات في «دليـل مكتبـة الأسـرة المسلمـة»، الـذي أصـدره المعهـد العـالمي للفكـر الإسلامي. وهذا الدليل «خـطة وإشراف الـدكتور عبـد الحميد أبـو سليمان»، تحت عنوان:

«مذكرات السلطان عبد الحميد»

ترجمة وإعداد: محـمَّد حـرب

تـرجـع أهميـة هـذا الكتـاب إلى أنــه يفضـح تلفيق مـزيِّفي التـاريـخ ويكشف أضـاليلهم، إذ طالمـا صوَّروا السلطان عبـد الحميـد ظـالمـاً مستبـداً

ونسبوا إليه ـ زوراً وبهتاناً ـ أشنع الجرائم مع أنه معروف بتقواه وإخلاصه، ليسوِّغوا المؤامرات الصليبية والماسونية التي عزلته وقضت على الخلافة الإسلامية. ويشاء الله ألاَّ تضيع الحقيقة فتظهر هذه المذكرات لتتحدث عن حقيقة الوقائع المزيفة ولتُظهر أنَّ عزل عبد الحميد وإنهاء الخلافة قُصد بهما ضربُ الكيان الإسلامي وتمزيقُه، لأنه ـ على ما فيه من ضعف شديد ـ يقف في وجه الصليبيين ويحول دون آمال الصهيونيين في إقامة دولة إسرائيل. والآن وبعد أن مرت على تلك الأحداث سنوات كثيرة سيجد من يقرأ هذه المذكرات أن كلَّ ما تخوَّف منه عبد الحميد قد تحقق، وأنَّ المقصود بالعزل والتشتيت هو الكيان الإسلامي أولاً، وأنَّ الخصوم الحقيقيين هم الصهيونيون والصليبيون.

يضم الكتاب مقدمة مترجم الكتاب، ثم المذكرات، ثمَّ التعليقات، وأخيراً المراجع والفهارس.

وفي المقدمة نقرأ تعريفاً بالسلطان عبد الحميد الثاني ودراسة لفكره الإسلامي وشواهد تُظهر نقاءه وموقفه الحصيف من المدنية الغربية يقوم على أساس أخذ المفيد منها بحذر شديد، وموقفه المعادي لليهود وهو الموقف الذي أدَّى إلى تلك النتائج. بعد ذلك تأتي المذكرات، وهي مجموعة خواطر وذكريات بدأ السلطان إملاءها في أول مارس (آذار) عام ١٣٣٣ (١٩١٧م) وفرغ منها في ٨ إبريل (نيسان) من العام نفسه. وفي كل يوم يتحدث عن بعض الأحداث والشخصيات ويحلِّلها ويذكر موقفه منها ويرد على الأكاذيب التي أشاعها المزيفون بعد عزله، وقد يكمل الحديث اليوم الثاني ويصل الماضي بالحاضر، فيذكر موقفه ومشاعره ساعة الكتابة ولا يتقيد بالتسلسل الزمني للأحداث، بل يذكر الحادثة وشخوصها ويتابع عرضها إلى نهايتها ثم يتناول حادثة أخرى، وهكذا.. ولكنه يلتزم في عرض الموضوع

الواحد التسلسل والترتيب، كما يحلِّل الأحداث ويربطها ببعضها وينفذ إلى أسبابها الرئيسة ويكشف خباياها. وقد التزم المترجم بالأمانة الشديدة في نقل النصوص.

ولعله من المفيد أن نعرض للقارىء موجزاً لبعض آراء السلطان في أهم القضايا.

أدرك أن وحدة المسلمين هي منقذهم الوحيد، وسعى إلى إنشاء كيان إسلامي موحَّد هو الجامعة الإسلامية، فأقام خط سكة حديد الحجاز وعمل على التقريب بين المسلمين. كان يؤيِّد الأخذ عن الغرب ولكن بالتدريج وليس على حساب العقيدة الإسلامية. أقام كليات العلوم والآداب والحقوق والعلوم السياسية والطب وغيرها. رفض إقامة مأوى لليهود في فلسطين ورفض إغراءات مالية هائلة قدمها هرتزل وقال: (لا بد أن تظل القدس لنا). أدرك الانحطاط الشديد الذي كانت عليه الدولة عندما تولى الحكم وعمل بكل جهده لإنقاذها. كانت خطته لإنقاذ بلاده أن يُوقع بين الدول الكبرى وعندما تحققت آماله وقامت الحرب العالمية الأولى كان بعيداً عن السلطة. كان يدرك أن أعضاء جميعة «تركيا الفتاة» قد خدعتهم الماسونية لذلك حاول إنقاذهم منها وإصلاحهم ولكنهم تغلَّبوا عليه. أعلن أن تشجيع الإنچليز للروح القومية في مصر يُقصد به هدمُ الدين والأمة الإسلاميه أولاً. تعرضت إستامبول للخطر وكان السلطان معزولاً ومقيماً في أحد القصور فرفض الانتقال منها وفضَّل الموت فيها على تركها للأعداء. كانت غاية أمانيه بعد عزله أن تحافظ الدولة على وجودها وأن تستردّ قوتها.

وبعد، فأي عرض لهذه المذكرات لا يغني عن قراءتها ولا يكفي لإعطاء صورة صحيحة للسنوات الأخيرة من حياة الخلافة الإسلامية والمؤامرات التي دُبرت لها. ومن الضروري أن يقرأها شبابنا ومثقفونا ليتبين لهم الحق.

(٣)

وكل ما جاء بين قوسين معكوفين [] في هذا الكتاب إنما هو إضافة أو شرح غموض أو توضيح معنى أو مسألة. وما جاء على شكل: [توضيح م. ح.]، إنما هو توضيح في الحاشية لبعض مسائل رأيتُ أنَّ توضيحها من الأهمية بمكان. و (م. ح.) تعني محمد حرب. كما أن حرف (ص) رمز لكلمة الصفحة، و (ج) للجزء. ولا بد من التنويه هنا إلى أننا استخدمنا الحروف العربية في كتابة المصادر والمراجع التركية لتعذر وجود الحروف التركية اللاتينية.

وأرجو الله أن يكون عملي هذا نافعاً.

عمارة الشاعر ــ شارع الستين مع شارع الباب المجيدي
حي الباب المجيدي ــ المدينة المنوَّرة، ١٤٠٩هـ.

الدكتور محمد حرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة الطبعة الأولى

تعريف بالسلطان عبد الحميد الثاني ومُذكَّراته

أولاً ـ السلطان عبد الحميد الثاني:

وُلد عام ١٨٤٢م، والده هو السلطان عبد المجيد أول سلطان في آل عثمان يُضفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية؛ إذ إنه أَمَر بتبنِّي الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرمانَيْ التنظيمات عامي ١٨٥٤م و١٨٥٦م، وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمِّي بعهد التنظيمات وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي. بهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات. والحق أن السلطان عبد المجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مَثَلَه وفي الماسونية فلسفته. ورشيد باشا هو الذي أعدَّ الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو، والتي كان إسقاط عبد الحميد الثاني بعد ذلك امتداداً طبيعياً لفكر التغريب.

شاهد عبد الحميد والدَه ومن بعده عمَّه السلطان عبد العزيز يحميان حركة الأخذ عن الغرب، كما شاهد أيضاً ولمس عن قُرب أطماع الدول الغربية وروسيا في الدولة، ورأى أنه تدخُّلٌ مرسوم ومخطَّطٌ له وفيه دمار الدولة العثمانية.

تجدر الإشارة هنا أن حركة التنظيمات قد أتت بنظام الباب العالي بديلاً عن نظام الديوان كجهاز لإدارة الدولة. ونظام الباب العالي نظام مستحدث على الدولة آنذاك ويشبه مجلس الوزراء الآن. في نظام الباب العالي كان الصدر الأعظم والوزراء يقاسمون السلطان السلطة. ودفع هذا النظام مشيخة الإسلام إلى الدرجة الثانية من حيث الاعتبار والنفوذ ثم شَلَّ عملها. وفي نظام الديوان ــ والذي كان أساسَ الحكم العثماني فيما قبل عهد التنظيمات وقبل العمل بنُظُمها ــ كان الحكم يستند إلى ثلاث دعامات رئيسية هي: السلطنة ــ الخلافة ــ مشيخة الإسلام. وكان الديوان يأتمر بأوامر السلطان الخليفة، وتقوم مشيخة الإسلام بدور الشورى له، وكان الديوان مساعداً للخليفة السلطان في تسيير وإدارة أمور الدولة.

تولّى عبد الحميد السلطنة عام ١٨٧٦م، وأطماع الدول الغربية في الدولة قد بلغتْ أَوْجَها. وكان عليه كمسؤول عن دولته مواجهة هذه الأطماع وإيجاد حلّ لمشكلتها، فاعتمد على سياسة الإيقاع بين القوى العالمية آنذاك بحيث تدخُلُ حرباً فيما بينها، ورأى السلطان عبد الحميد أن هذه الحرب من شأنها تصفية قوى هذه الدول وإحداث معادلة في توازن القوى العالمية. وفي أثناء كل ذلك يعمل على تجميع القوى الإسلامية المبعثرة في العالم في مواجهة أطماع الدول الكبرى.

أما في ميدان العمل الداخلي فقد كان على السلطان عبد الحميد مواجهة كل من:

١ ــ **نفوذ الباب العالي**: بصدوره العظام الذين حاولوا السيطرة على منصب السلطان الخليفة، والذين سبقت لهم السيطرة على كلٍّ من والده عبد المجيد وعمه عبد العزيز.

٢ ـ خطر جماعة «تركيا الفتاة»: وهي جماعة رأت أن إنقاذ الدولة لا يكون إلَّا في نظام برلماني بالمفهوم الأوروبي. وهذه الجماعة بدأت في الظهور عام ١٨٦٠م سرية تعمل في الخفاء، إلَّا أن عبد الحميد كان دائم الترصُّد لأعضائها.

لنلقِ هنا نظرة على نشاط جماعة «تركيا الفتاة»: لقد كان المثل الأعلى لأعضائها يتركَّز في أوروبا. وأصبح لأعضائها النفوذ والغلبة في الدولة العثمانية وهم الذين عزلوا السلطان عبد العزيز عن العرش وأَتَوْا بالسلطان مراد الخامس بديلاً له. وكان مراد شاباً إذ تولى العرش وعمره قد بلغ ٣٦ عاماً. وكانت له صلات طيبة بالدوائر الحاكمة في أوروبا. مثال ذلك أنه كان صديقاً حميماً لولي عهد إنجلترا إذ ذاك، وعن طريق ولي العهد هذا انضم مراد إلى الماسونية. كما كان مراد على صلة قوية بأعضاء جماعة «تركيا الفتاة» التي أخذت أسماءً مختلفة خلال تطورِّها مثل (العثمانيون الجدد) و(الاتحاد والترقّي).

كان أعضاء هذه الجماعة يأملون في مراد لدفع عجلة سير الدولة على درب أوروبا فقد كانت ثقافته وكل انتماءاته ـ فكراً وسلوكاً ـ أوروبية. وجاؤوا به إلى الحكم وكان ذلك بعد أن أسقطوا عبد العزيز وسلطنوا مراداً، إلَّا أن الثوار أعضاء جماعة «تركيا الفتاة» أذاعوا أن السلطان عبد العزيز المخلوع والمعتقل تحت حراستهم قد انتحر، وعلى الفور شكَّلوا لجنة من ١٩ طبيباً أتوا بهم من سفارتَيْ أمريكا وإنجلترا بإستانبول. وأعدت هذه اللجنة تقريراً قالت فيه بانتحار السلطان عبد العزيز [١].

على أثر ذلك جُنَّ السلطان مراد بعد أن مكث في الحكم ٩٣ يوماً

(١) إيكنجي سلطان عبد الحميد، سياسي خاطراتم، ص ١٦، إستانبول ١٩٧٤م.

لم يخرج للشعب فيها يوماً واحداً. واضطر أعضاء جماعة «تركيا الفتاة» وهم المهيمنون على الحكم إلى عزله فتولى عبد الحميد العرش من بعده.

ولم يشأ السلطان الجديد عبد الحميد الثاني أن يستجيب لضغوط الثوار عليه فقاومهم وحاول القضاء على نفوذهم.

كما كان على عبد الحميد أن يأخذ حذره منهم. وحدثت واقعتان جعلتا عبد الحميد أكثر حرصاً وحذراً من المؤامرات عليه.

● **الواقعة الأولى**: قيام علي سعاوي أحد الثوار المعروفين بتدبير حادث الهجوم على قصر جراغان حيث يقيم مراد، وكان القصد من هذا الهجوم إخراج مراد وتنصيبه بالقوة سلطاناً مرة أخرى بدلاً من عبد الحميد.

● **والثانية**: محاولة أحد الأرمن اغتيال السلطان عبد الحميد أثناء خروجه من الجامع.

في ١٣ إبريل ١٩٠٩م حدث في إستانبول اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية «الاتحاد والترقّي». عُرف الحادث في التاريخ باسم حادث ٣١ مارت. وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في عاصمة الدولة نتيجة تدبير أوروبي مع رجال «الاتحاد والترقي» تحرّك على أثره عسكر «الاتحاد والترقي» من سلانيك ودخلوا إستانبول وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية. ثم وجّهت إليه جمعية «الاتحاد والترقّي» التهم التالية:

١ ــ تدبير حادث ٣١ مارت.
٢ ــ إحراق المصاحف.
٣ ــ الإسراف.
٤ ــ الظلم وسفك الدماء.

ونفاه الجيش على إثر هذا إلى سلانيك لأنها كانت تعج بأنصار «الاتحاد والترقي»، ثم نقلوه ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ـ إلى إستانبول معتقلاً في قصر بَيْلَرْبَىْ.

والبحث العلمي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك عدم علم السلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت، كما أنه «من المحال إحراق السلطان عبد الحميد للمصاحف فهو سلطان معروف بتقواه وبتسامحه ولم يُعرف عنه تركه للصلاة أو إهماله في التعبد»، و«السلطان عبد الحميد معروف بعدم إسرافه ولأنه لا يعرف الإسراف فقد كان المال يتوفر معه دائماً ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء مالية كثيرة من ماله الخاص»، «وعن ظلمه وسفكه الدماء فلم يُعرف عن السلطان عبد الحميد هذا، وسفك الدماء لم يكن أبداً ضمن سياسته»[1].

وبتكليف من «الاتحاد والترقّي» تكوَّنت لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني بقرار خلعه. وكانت هذه اللجنة تتألف من:

١ ـ **إيمانويل قراصو**: وهو يهوديّ إسباني الأصل. كان من أوائل المشتركين في حركة «تركيا الفتاة». وكان مسؤولاً أمام جمعية «الاتحاد والترقّي» عن إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد وتأمين التخابر بين سلانيك وإستانبول فيما يتعلق باتصالات الحركة. وقراصو هذا محامٍ، عملت جمعية «الاتحاد والترقّي» بنجاح على تعيينه في المجلس النيابي

---

(١) يلماز أوزطونه، تركيا تاريخي، ج ١٢ ص ١٩٤، إستانبول ١٩٧٥م. وعن التدبير الأوروبي لحادث ٣١ مارت. انظر: دوغان آوجي أوغلو؛ ٣١ مارتده يابانجي پارماغي (= الأصابع الأجنبية في حادث ٣١ مارت)، إستانبول ١٩٦٩م.

العثماني نائباً عن سلانيك مرة وعن إستانبول مرتين. وَصَفته المصادر الإنجليزية بأنه من قادة «الاتحاد والترقّي». عمل أثناء الحرب مفتِّشاً للإعاشة، واستطاع أثناء وجوده في هذه الوظيفة أن يجمع أموالاً كثيرة لحسابه الخاص ولعب دوراً هاماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطر نتيجة لخيانته للدولة العثمانية أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريستا حيث مات عام ١٩٣٤م. وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني[١].

٢ ــ **آرام**: وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.

٣ ــ **أسعد طوبطاني**: وهو ألباني نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج.

٤ ــ **عارف حكمت**: وهو فريق بحري وعضو مجلس الأعيان، وهو كرجي العِرق.

ثانياً ــ عبد الحميد الثاني والفكر الإسلامي:

كان السلطان عبد الحميد يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة. حتى ولو أخذت شكلاً سرياً، لذلك كان يعمل بالإسلام على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في جبهة واحدة لكي يمكن الصمود أمام الغرب. كما كان يرى أن جبهة المسلمين في الدولة العثمانية فقط قد لا تكفي ولذلك رأى ضرورة امتداد تأثير الوحدة الإسلامية إلى كل مسلمي آسيا بما في ذلك مسلمو آسيا

---

(١) فيروز أحمد؛ اتحاد وترقي، ترجمه من الإنكليزية إلى التركية توران أولكر، ص ٢٥٣، إستانبول ١٩٧٤م.

الوسطى، وكان يرى أيضاً ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط إفريقيا وغيرها، وحتى مع إيران، وفي هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسُّف عليه وإذا أردنا أن نفوِّت الفرصة على الإنجليز وعلى الروس فإنّا نرى فائدةً في وجود تقارب إسلامي في هذا الأمر)(١).

وفي معرض حديثه عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا التي تضع العراقيل أمام الوحدة الإسلامية يقول عبد الحميد الثاني: (الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة). لذلك يرى أن (الإنجليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن بعض المصريين يعتقد أن سلامة مصر ستأتي من الإنجليز)، و(أن هذا البعض أصبح يقدِّم القومية على الدين. ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلامية إلى هزّ عرشي... وأن الفكر القومي قد تقدَّم تقدماً ملموساً في مصر. والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الإنجليز. إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الإسلامية ويهزون معها اعتبار الخلافة)(٢).

ويقول عن السياسة الإنجليزية تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الإنجليزية ما نصه: «يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الإنجليزية، ويجب على إنجلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة»... إن إنجلترا تعمل لهدفين: إضعاف تأثير الإسلام وتقوية نفوذها

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة محمد حرب عبد الحميد، نشر مجلة المجتمع الكويتية، أحداث ٣١ مارت، وهي نفسها هنا في أحداث نفس اليوم.

(٢) سياسي خاطراتم، ص ١٧٦.

بالتالي. . . لذلك أراد الإنجليز أن يكون الخديو في مصر خليفة للمسلمين، ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديو أميراً للمؤمنين لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في ڤيينا وتطبع بطابع الكفار)[1].

وعندما ظهر اقتراح إنجلترا (لإعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين)[2] يعترف السلطان الخليفة عبد الحميد الثاني بأنْ (لم تكن لديَّ الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية. . . لكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفُهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية)[3]، و(أن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونانيين وزنوج وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة)[4].

ويُعبِّر عبد الحميد الثاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلاَّ بهذه الوحدة. ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتي. سيأتي اليوم الذي يتَّحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار)[5].

ثم يتخذ السلطان عبد الحميد من خط سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكره في الجامعة الإسلامية فيقول: (المهم هو إتمام خط السكة الحديد بين

---

(١) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، أحداث ١٨ مارت.
(٣) نفس المصدر السابق في أحداث نفس اليوم.
(٤) سياسي خاطراتم، ص ٦.
(٥) المصدر السابق ص ١٠٧

دمشق ومكة في أسرع وقت. . . ففي هذا تقوية للرابطة بين المسلمين، كما فيه أيضاً اتخاذ هذه الرابطة ـ بعد تقويتها ـ صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الإنجليزية)[1].

وفي مجال الجامعة الإسلامية طَرَق عبد الحميد سبل الاستعانة بجمال الدين الأفغاني، ويصف عبدُ الحميد جمالَ الدين بأنه (عالم مشهور في قصر يلديز)، وقصر يلديز هو مقر سلطة عبد الحميد، كما أننا وجدنا في مكتبة السلطان عبد الحميد خلاصات لاطلاعات قام بها جمال الدين الأفغاني ولخّصها وقدّمها للسلطان عبد الحميد، مما يؤكّد المكانة التي كان جمال الدين يحتلها.

كان السلطان جادّاً في البحث عن صيغة لتوحيد كل المسلمين سياسياً لمواجهة خطر كل من روسيا وإنجلترا، وكما رأينا في الأسطر السابقة أنه أبدى أسفه لعدم وجود تفاهم في هذا الشأن مع إيران، فتقدم إليه جمال الدين الأفغاني وأعطاه الأمل في إيجاد هذا التفاهم المنشود وأقنع السلطان بإمكان تعاون الشيعة مع أهل السنّة في مواجهة القوى غير الإسلامية ـ روسيا والغرب ـ في حالة إذا ما أظهر الشيعة حسن نية في الأمر. ورأى السلطان أن هناك فائدة عظيمة للمسلمين في هذا، إذا كان كلام جمال الدين صحيحاً.

ويبدو أن جمال الدين الأفغاني قام بإقناع بعض كبار الموظفين في إيران وبعض علمائها بفكرته هذه، وصدر وعد من قنصل إيران في إستانبول ببذل كل ما في وسعه لإنجاح هذه المحاولة الكبيرة[2].

---

(١) نفس المصدر.

(٢) انظر: سياسي خاطراتم، ص ١٦٥

وكـان عبد الحميـد في تلك الأثناء راضيـاً كل الـرضا عن جمـال الدين الأفغاني.

وتمـر الأيام وإذا بهـذه العلاقـة تنقلب رأساً على عقب. نفهم هـذا مما ورد في مذكرات السلطان عبد الحميد في ١٨ مـارت ١٣٣٣ رومية، إذ يقـول ما نصّه: (وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنجليـزية كـل من مهـرِّج اسمه جمـال الدين الأفغـاني وإنجليزي يـدعى بلنت قالا فيهـا بإقصـاء الخلافة عن الأتراك، واقترحـا على الإنجليز إعـلان الشريف حسين أميـر مكة خليفة على المسلمين. كنت أعرف جمال الدين الأفغاني هذا عن قرب. كان في مصر. وكان رجلاً خطيراً. اقترح عليَّ ذات مرة ــ وهو يـدَّعي المهديـة ــ أن يثير جميـع مسلمي آسيا الوسطى. وكنت أعـرف أنه غيـر قادر على هـذا، وكان رجل الإنجليز)[1].

هـذا هو رأي عبـد الحميد في جمـال الدين الأفغـاني، نقدمـه دون أن نعلق عليه، إذ أننا نرى أن الأمر يحتاج إلى دراسة هذه العلاقة بمنظار الـوثائق وبالدراسات الوثائقية.

ثالثاً ــ عبد الحميد والمدنية الغربية:

كـان للسلطان عبد الحميـد الثاني مفهـومه الخـاص في إدخال عنـاصر المدنية إلى بلاده. فهو لا يريد من الغـرب الحضارة (= الثقـافة والتـراث) لأنه كـان يرى أن للشـرق حضارتـه الإسلاميـة المتكـاملة المتفـوِّقـة على حضـارة الغرب. إنما كـان يريـد (ما يهم فقط) من العلوم الحـديثة حسب تعبيـره هو. وحتى هذا المهم لا يريده مرة واحدة وإنما بـالتدريـج إذ يقـول في هذا (ليس من الصـواب القول بـأني ضد كـل تجديـد يأتي من أوروبـا، لكن العجلة من

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، أحداث ١٨ مارت.

الشيطان ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال. يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضَّل به الله علينا. . . ليس الإسلام ضدَّ التقدم، لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها، ولا يمكن أن يُكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج)[1].

والحقيقة التاريخية أثبتت إفادة عبد الحميد من الغرب بطريقته الخاصة في كافة الميادين التي رأى أنها تحتاج لخبرة الخارج، وأقام كلية للعلوم وكليات للآداب والحقوق «مكتب حقوق شاهانه» وكلية للعلوم السياسية «مكتب ملكية شاهانه» وأكاديمية للفنون الجميلة «مكتب شاهانه، صنايع نفيسه» ومدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة والغابات والتعدين والتجارة البحرية والمعلمين العليا ومدارس متوسطة متخصصة مثل مدارس الصمّ والعُمْي والبكم وأقام مدرسة إعدادية ـ أي ثانوية بالمفهوم المعاصر ـ في كل سنجق، وأقام مدارس عليا ـ بمستوى الجامعات ـ في كل من دمشق وبغداد وبيوت وسلانيك وقونية وغيرها. وأرسل البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا. هذا عن بعض من جهوده في ميدان التعليم[2].

أما عن خدماته الأخرى فمن بعضها إقامة مؤسسة حديثة للمياه وغرف للصناعة والزراعة والتجارة، وتأسيس البلديات وبناء الغواصة، وإقامة خطوط البرق وإنشاء إدارة البريد ومدّ السكك الحديدية، وإدخال التراموايات والاهتمام بتدعيم المواقع العسكرية في الدردنيل مما ساعد على انتصار العثمانيين على الأساطيل المغيرة في موقعة الدردنيل المشهورة في الحرب العالمية الأولى ودمَّر أساطيل الحلفاء ومنعها من اقتحام الدردنيل[3].

---

(١) سياسي خاطراتم ص ١٨٣.

(٢) أوزطونة، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

رابعاً ــ عبد الحميد واليهود:

حدثت اتصالات بين هرتزل بوصفه «رئيس الجمعية الصهيونية» وبين السلطان عبد الحميد، هدف منها هرتزل إلى إقامة مجتمع يهودي في فلسطين. وأراد السلطان من هذه الاتصالات ما يأتي:

١ ــ معرفة حقيقة الخطط اليهودية.

٢ ــ معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قدرتها.

٣ ــ إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود.

ورغب هرتزل في هذه الاتصالات إلى:

١ ــ تقديم (تضحيات مالية ضخمة مهما تكن، في سبيل إيجاد مأوى لليهود)، ويشير بهذا إلى تقديم هدية مالية ضخمة للسلطان من الليرات الذهبية.

٢ ــ إقراض الخزينة العثمانية مليونين من الليرات العثمانية.

وانتهت الاتصالات برفض السلطان عبد الحميد الثاني إقامة مأوى لليهود في فلسطين، وبذلك أصبح عبد الحميد في نظر هرتزل سلطاناً (ماكراً جداً خبيثاً جداً ولا يثق بأحد)[1].

كان السلطان عبد الحميد يرى ضرورة عدم توطين مهاجرين يهود في فلسطين حتى يبقى العنصر العربي المسلم محافظاً على تفوُّقه الطبيعي فيها. وكان من رأي عبد الحميد أنه إذا ما سمح لليهود بالتوطُّن في فلسطين فإنهم سيستطيعون في وقت قليل جداً أن يجمعوا في أيديهم وسائل القوة في المكان الذي يستقرون فيه، وفي هذه الحالة (نكون قد وقَّعنا قراراً بالموت على

---

(١) سياسي خاطراتم، ص ٦٠.

إخواننا في الدين) ويقصد الفلسطينيين[١].

وقال هرتزل: أنه يُفقد الأمل في تحقيق أمالي اليهود في فلسطين وأن اليهود لن يستطيعوا دخول (الأرض الموعودة!) طالما أن السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم مستمراً فيه[٢].

أما عبد الحميد فيعبر عن رأيه في الحركة الصهيونية وفي هرتزل بقوله: (لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين، بل إنهم يريدون إنشاء حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين لهم، وإني أفهم جيداً معنى تصوراتهم الطامعة هذه، وإنهم لسُذَّج إذا تصوَّروا أني سأقبل محاولاتهم هذه... إن هرتزل يريد أرضاً لأخوانه في دينه لكن الذكاء ليس كافياً لحل كلٍّ شيء)[٣].

وعن القدس يقول السلطان: (لماذا نترك القدس؟... إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية، لا بد أن تظل القدس لنا)[٤].

أما عن علاقة عبد الحميد بالماسونية فآتسمت دائماً بمعاداته لها ومعاداتها له. يقول الكاتب اليهودي آورام غالانتي في كتابه «الأتراك واليهود»: (في عهد الحرية ـ يقصد الكاتب العهد الذي بدأ بعد إسقاط عبد الحميد ـ أرادت الماسونية أن تنتفع من إطلاق الحريات. لذا قام

(١) انظر الترجمة التركية لمذكرات هرتزل التي قام بها ياشار قوتلوآي في كتاب سيونيزم وتركيا، إستانبول ١٩٧٣م. وانظر أيضاً كتاب حكمت طانيو؛ تاريخ بويونجه يهوديلر وتوركلر، الجزء الأول، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥، إستانبول ١٩٧٦م.

(٢) سياسي خاطراتم ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق أيضاً بنفس الصفحة.

الدكتور اليهودي جاك سهامي باقتباس مبادىء الشرق الأعظم الفرنسي ومبادىء المحفل الأكبر الإنجليزي وكَتَب أسس الماسونية باللغة التركية وأعقبها بكتابات كثيرة عن الماسونية)[1].

وأفاد أعضاء جمعية «الاتحاد والترقّي» التي أسقطت عبد الحميد من انتسابهم للماسونية من حمايتها لهم، فقد ضمت الجمعيات الماسونية عدداً كبيراً من الأجانب وهؤلاء كانوا يتمتعون بامتيازات من الحكومة تجعلهم قادرين على حماية أعضاء الجمعية ومساعدتهم في نقل مطبوعاتهم ومنشوراتهم من مكان إلى مكان وإخفائها وفتح منازلهم لاجتماعات أعضاء «الاتحاد والترقّي».

يقول آورام غالانتي عن بعض دور اليهود في تأييد أعضاء جمعية «الاتحاد والترقّي»: (إن الجماعات اليهودية خارج نطاق نفوذ عبد الحميد أيَّدت جمعية «الاتحاد والترقي» وكان هذا التأييد مفيداً، أثناء ما كانت الجمعية تعد العدة للانقضاض على عبد الحميد).

وإن الجمعية الإسرائيلية بمصر أكَّدت أن من أهم واجباتها إدخال المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد إلى داخل حدود الدولة العثمانية بأيٍّ شكل من الأشكال وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء «تركيا الفتاة».

ويستطرد آورام غالانتي قائلاً: (إن أحمد رضا رئيس الجناح المدني في «الاتحاد والترقّي» ورئيس شعبة الجمعية في باريس، اتصل أثناء وجوده في مصر عام ١٩٠٧م بالجمعية الإسرائيلية بمصر. وكانت نتيجة هذا الاتصال أن صوَّتت هذه الجمعية إلى جانب أحمد رضا أثناء انعقاد مؤتمر «الاتحاد

---

(١) آورام غالانتي، توركلر ويهوديلر، ص ٢٢.

والترقّي» في باريس، وأدى هذا التصويت إلى فوز أحمد رضا برئاسة جمعية «الاتحاد والترقّي» في ديسمبر عام ١٩٠٧م)[١].

أدرك السلطان عبد الحميد الثاني أنه أمام أخطار داخلية وخارجية، وكان يريد لدولته القوة، ورأى أن الإسلام هو القوة المنشودة. وفي هذا يقول: (إن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء. ونحن أمة حية قوية، ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم، ومن البدهي أننا في حاجة إلى الإيمان الصادق الخالص بعظمة الله)[٢].

خامساً ــ مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني:

نُشرت هذه المذكرات لأول مرة في مجلة «عطارد» بإستانبول باللغة التركية العثمانية في العدد الأول من المجلد الأول الصادر في تاريخ ٦ كانون الثاني عام ١٣٣٥ رومية = ٣ ربيع الآخر عام ١٣٣٧هـ، واستمر نشرها تباعاً في هذه المجلة حتى العدد ١٧٠ من المجلد الثاني بتاريخ ٨ مايس ١٣٣٥، عن نسخة مخطوطة تناقل بعض الخواص استنساخها من النسخة التي أملاها السلطان على مُصاحبه علي محسن بك أثناء اعتقال السلطان في قصر بيلربى بإستانبول. إلاَّ أن «عطارد» لم تتمكن من نشر كل المذكرات، إذ توقفت المجلة بعد العدد ١٩ من المجلد الثاني أي بعد عددين فقط من نشر حلقة ٣١ مارت من المذكرات.

وفي عام ١٣٤٠/١٣٣٨ أصدرت دار «جهان كتابخانه سي» بإستانبول ــ بإذن خاص من وداد عرفي رئيس تحرير عطارد ــ ما نُشر من مذكرات صدرت بالمجلة، بعد كتابة مقدمة لها وبعض دراسات لتوضيح بعض النقاط

(١) المرجع السابق ص ٤٥.
(٢) سياسي خاطراتم، ص ٧٣ ــ ٧٤.

التي وردت في المذكرات والتي كانت تهم القارىء العثماني في ذلك الوقت مثل: «تونس ومصر ١٨٨١ ــ ١٨٨٢» و«بلغاريا والاضطراب في الروملي الشرقية ١٨٨٥ ــ ١٨٨٧» و«الاستقلال الذاتي لكريت ١٨٩٧» وغير ذلك سبعة موضوعات. بحيث خرجت هذه الطبعة في ٧٢ صفحة من الحجم الكبير ٢٤,٥ × ١٦,٥ سم وحملت عنوان: (خاطرات سلطان عبد الحميد خان ثاني). على أن ما يلفت النظر في هذه الطبعة ما ورد في التقديم الذي كتبه وداد عرفي للطبعة عن قرب ظهور الجزء الثاني من المذكرات. ولم يظهر ذلك.

وفي عام ١٩٦٠ ميلادية، أعلنت «دار سَلَكْ» للطباعة والنشر في إستانبول أنها عثرت على نسخة مخطوطة من المذكرات خاصة بمكتبة أحد المقربين من القصر السلطاني، إلاَّ أنها كانت بدورها ناقصة ولم تصل لأكثر ما وصلت إليه طبعة «جهان كتابخانه سي»، وقامت «دار سَلَكْ» بقلب حروف هذه النسخة إلى الأحرف التركية اللاتينية وضمت إليها خواطر للسلطان عبد الحميد كان أملاها على أحد مصاحبيه ويدعى بسيم بك، وهي خواطر متفرقة عثر عليها المرحوم ابن الأمين محمود كمال بين أوراق قصر يلديز ونشرها بالأحرف العثمانية العربية عام ١٩٢٦م في مجلة تورك تاريخ أنجمني، ولم يفت صاحب «دار سَلَكْ» أن يقدم لطبعته هذه التي شملت المذكرات والخواطر ويعلق على بعض أحداثها، وبلغ عدد صفحات هذا مجتمعاً ١٩٩ صفحة من القطع المتوسط ١٩,٨ × ١٣,٥ سم.

وفي عام ١٩٧٥م استطاعت جريدة «ترجمان» بعد بحث طويل عن أصل المذكرات الكاملة أن تقوم بنشرها على حلقات يومية قام بإعدادها بالحروف التركية اللاتينية عصمت بوزداغ، وبعد إتمام نشرها كاملة في جريدة «ترجمان» قامت دار «كروان» للطباعة والنشر بإستانبول عام ١٩٧٥م بطبعها

في كتاب بعد أن قدم لها عصمت بوزداغ وعلّق عليها وألحق بها بعض الوثائق الهامة بحروف تركية لاتينية توضح إطار المذكرات للقارىء التركي. وقد بلغ عدد صفحات هذه الطبعة ٢٤٥ صفحة من القطع المتوسط ١٩,٥ × ١٤,٥ سم مع ثمان صور لبعض صفحات المخطوط الذي قام بنشره وخمس صور فوتوغرافية تصوِّر عبد الحميد. وقد بلغ عدد طبعات هذه الطبعة أربع طبعات في عام واحد.

مما تجدر الإشارة هنا أن «دار حركت» للطباعة والنشر بإستانبول قد أصدرت في ديسمبر عام ١٩٧٤م، كتاباً باللغة التركية شمل ملاحظات سياسية نقلها عن السلطان عبد الحميد إثر عزله عن العرش عام ١٩٠٩م: علي وهبي بك الذي ترجمها بدوره إلى الفرنسية ونشرها بها أثناء حياة عبد الحميد، وهذه الملاحظات تتسم بأنها سياسية بحتة وهي بهذه الخصوصية تختلف عن المذكرات التي نعرض لنشرها وإن اتفقت معها الأحداث الواردة بكليهما.

إن الوثائق التاريخية المستخرجة من الأرشيف بعد نشر ما قاله عبد الحميد سواء في المذكرات أو في الخواطر أو في الملاحظات السياسية قد أثبتت صحة ما أورده عبد الحميد وأيَّد نظرته إلى المشكلات التي تعرض بالحديث لها.

وقد نشرت صحيفة الصباح الجديد (ينى صباح) وتُكتب (يكى صباح) في عدديها الصادرين بتاريخ ٩ و ١٠ كانون أول عام ١٩٤٩م مقتطفات من مذكرات عبد الحميد من الجزء الخاص بمناقشة عبد الحميد لموقف مدحت باشا، ونظراً لأن هذا الجزء حمل اتهاماً دقيقاً لمدحت باشا فقد انبرى علي حيدر بن مدحت باشا بالرد عليه في نفس الجريدة في عدد ٢١ كانون

أول من نفس العام (١٩٤٩م)[١].

هذا وقد أفاد المؤرخون المحدثون الأتراك من «مذكرات السلطان عبد الحميد» هذه في دراستهم، منهم المؤرخ الكبير إسماعيل حامي دانشمند في كتابه «تقويم التاريخ العثماني الموضح» وهو في ستة أجزاء كبيرة (إستانبول ١٩٧٢م)، وكذلك أفاد منه يلماز أوزطونه في كتابه «تاريخ تركيا» (١٢ مجلد، إستانبول عام ١٩٧٥م) وغيرهما من المؤرخين.

وقد اعتمدنا في ترجمتنا للجزء الأكبر من هذه المذكرات على طبعة «عطارد» و«جهان كتابخانه سي» مع الاسترشاد بطبعتي «سَلْكْ وكروان» فيما استشكل من قراءته في النسخة العثمانية، أما ترجمتنا لأحداث ما بعد ٣١ مارت وهو الجزء الأخير من المذكرات فقد اعتمدنا فيه على طبعة «كروان» إذ إنها الطبعة الوحيدة الكاملة.

وقد قامت مجلة «المجتمع» الكويتية بنشر ترجمتنا للمذكرات ابتداءً من عددها ٢٦٤ الصادر في ٢٦ أغسطس ١٩٧٥م / ١٨ شعبان ١٣٩٥ بمقدمة تمهيدية وبعض التعليقات كتبها الأستاذ محمد الراشد، واستمرت بعد ذلك «المجتمع» في نشرها على حلقات انتاب تتابعها بعض الاضطراب إلى أن كمل نشرها في العدد ٣٢٠ الصادر في ١٩ شوال ١٣٩٦ / ١٢ أكتوبر ١٩٧٦م. وكانت أول ترجمة عربية لمذكرات السلطان عبد الحميد الثاني.

أما هذه الطبعة فهي تجميع المذكرات التي نشرتها «المجتمع» بتعديلات أسلوبية طفيفة ووضع ما سقط سهواً من المطبعة وقت نشرها، وأضفنا إليها مقدمة شملت تعريفاً موجزاً بالسلطان عبد الحميد الثاني وتقديم

---

(١) إسماعيل حامي دانشمند، إيضاحلى عثمانلي تاريخى قُورُونُولُوژيسى ج ٤ ص ٢٩٣، إستانبول ١٩٧٢م.

فكرة عن بعض ميادين فكره المختلفة ثم تعريف بالمذكرات نفسها، لم يفتنا أن نعلّق على ما رأيناه لازماً للتعليق عليه بإيجاز لبعض المسائل الواردة في المذكرات ورجعنا في ذلك إلى مصادر موثّقة.

وقصدتُ من نشر هذه المذكرات في اللغة العربية أن أضع أمام المؤرخين العرب والباحثين العرب وجهة نظر السلطان عبد الحميد الثاني في الأحداث التي كان هو محورها، بعد أن ظل المؤرخون والباحثون العرب لا يطلعون إلّا على آراء الأطراف المقابلة للسلطان عبد الحميد في أحداث هذه الفترة التاريخية التي مثّلها السلطان والتي عكسها مؤيِّدةً لها المصادر الأوروبية والتي لم تكتف بهذا بل بالغت في نقدها للسلطان. ورأيت أنني بتقديمي هذه المذكرات تكون الصورة التاريخية لعهد عبد الحميد قد اكتملت نوعاً ما أمام باحثينا ومؤرِّخينا، وأرى أن وجود مصادر للطرفين في أي مسألة تاريخية من شأنها إنصاف الكتابة التاريخية نفسها.

والله ولي التوفيق.

شارع أدهم أفندي ــ حي أَرَنْ كُويْ
إستانبول ١٩٧٧م

الدكتور محمد حرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة الطبعة الثانية

أريد أن أقدم شخصية السلطان عبد الحميد الثاني إلى المثقف العربي العام وإلى المتخصص الباحث العربي في التاريخ، تقديماً يعتمد على المصادر العثمانية والتركية وهي مصادر ناقصة في ذاكرة العرب غالباً، ولعل هذا راجع إلى أن المثقف عندنا قد استقى معلوماته ــ حتى الآن ــ من المصادر الأوروبية ومن الكتب التي صدرت بهذه اللغات.

والسلطان عبد الحميد الثاني بالذات أكثر سلاطين آل عثمان أخذاً لانتباه القارىء العربي. ولذلك أسباب كثيرة لا أحصيها وإن كنت أشير إلى نماذج منها، فالموضوع الذي أنا بصدده الآن هو تقديم السلطان عبد الحميد الثاني كصاحب مذكرات أقوم بنشرها، وبالتالي فإن هذا التقديم لا بد أن يأخذ أبسط الأشكال بقدر الإمكان.

على الساحة الإسلامية، يشكِّل اسم عبد الحميد، أساس فكرة الوحدة الإسلامية التي نطلق عليها في الاصطلاح التاريخي اسم «الجامعة الإسلامية»، وهي فكرة تقوم على اتحاد الشعوب الإسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي، ولا شك أن عبد الحميد هو صاحب هذه الفكرة، واتخذ في سبيلها أسباباً كثيرة منها توجيه الدعاة المسلمين وتحريكه لهم. ومثال هؤلاء الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ عبيد الله. ومن هذه النقطة نجد اهتمام العاملين في ساحة الجامعة الإسلامية سواء من الناحية الفكرية أو حتى

الحركية في العالم الإسلامي بتاريخ عبد الحميد اهتماماً واضحاً، وهؤلاء استقبلوا هذه المذكرات استقبالاً خاصاً. خاصة وأن الاستعمار الغربي أسهم إسهاماً كبيراً بالدعاية والإعلام في طمس المعالم الطيبة لحكم عبد الحميد في العالم الإسلامي.

وعلى الساحة العربية نجد أن دعاة القومية العربية قد اعتبروا عبد الحميد رمزاً للقبضة الديكتاتورية. والقوميون الأتراك الآن يدينون عبد الحميد لأنه اهتم بالعرب اهتماماً فاق اهتمامه بالأتراك. إن أول برقية تهديد للجيش الذي زحف لإسقاط عبد الحميد، كانت من العرب وبالذات من شريف مكة ولم يهدأ الشريف إلاّ عندما خدعه قائد الجيش المذكور ببرقية قال له فيها: إننا نزحف على إستانبول لحماية السلطان عبد الحميد.

وعلى الساحة الفلسطينية، نجد أن الفلسطينيين يذكرون السلطان عبد الحميد الثاني بكل تقدير وبكل احترام، ذلك لأنه حمى بلادهم ولم يفرِّط فيها فهي في نظره الأرض المقدسة التي ينبغي أن يحميها كخليفة للمسلمين، لذلك كرهه اليهود وأبغضوه بعد أن حاولوا تقديم مساعداتهم المالية له وللدولة، وسيأتي تفصيل هذا في تقديم هذه المذكرات، واستدرجهم عبد الحميد حتى عرفهم ثم كان موقفهم منه وموقفه منهم.

وعلى الساحة اليهودية، لا يخلو كتاب يهودي من إدانة عبد الحميد بأنه عرقل الفكرة الصهيونية وعندما فشلوا في إقناعه، أيَّدوا معارضيه سواءً من العثمانيين أنفسهم «الاتحاد والترقّي» ومن شابههم وأيَّدوا المحافل الماسونية في الجيش العثماني وفي الدولة وأقاموا في أوروبا قيامة الصحافة حتى جعلوا من عبد الحميد، السلطان الذي ينفر منه المثقفون الآن.

وعلى الساحة المصرية، نجد أن اسم عبد الحميد يرتبط بمعاكسة الوجود الإنجليزي في مصر، وبفضل سياسة عبد الحميد في مواجهة الاستعمار البريطاني، اكتسبت «طابا» تأكيد مصريتها، وعبد الحميد هو الذي

منع انتشار النفوذ البريطاني من مصر إلى جزيرة العرب عن طريق العقبة بعثمنة هذا الميناء. واسمه أيضاً يقترن بضيقه من إسراف الخديوي إسماعيل، وتأييده لأحمد عرابي باشا، وموقفه من الخديوي عباس حلمي الذي آوى أحياناً معارضي عبد الحميد، وظهور الاتجاه العثماني في مصر بقيادة مصطفى كامل باشا وعلاقة هذا الأخير بالسلطان، وكذلك علاقة محمد فريد بك أيضاً بالعهد الحميدي ثم بحركة حزب «الاتحاد والترقي» هامة في تاريخ مصر.



وموضوع شخصية السلطان عبد الحميد، موضوع متجدد دائماً ويفرض نفسه. ويكفي لإثبات هذا أنه مات عام ١٩١٨م، وما زالت الدراسات والمناقشات حوله قوية كثيرة مكثفة ومستمرة، في البلاد الإسلامية وفي العالم العربي وفي تركيا وفي البلاد الأوروبية أيضاً. والوثائق عنه تظهر وتُنشر يوماً بعد يوم تضيف الجديد إلى التاريخ، تغيّر تفكيراً مضى وتضيف تفكيراً جديداً.



وعن العهد الحميدي وعن السلطان عبد الحميد، تقدِّمُ هذه المذكرات وتقديمُها إجاباتٍ كثيرة تشغل بال المثقف العربي والباحث في التاريخ. ذلك لأن هذه المذكرات هامة، وأهميتها ترجع إلى:

١ ـ أنها وجهة نظر السلطان عبد الحميد نفسه في مشاكل أمته يقولها بعد أن تكلم الناس بمختلف اتجاهاتهم وأفكارهم عنه.

٢ ـ أنها تكشف عن معلومات هامة في تاريخ الصراع بين الغرب والعالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة، كيف احتُلت البلاد العربية وكيف اكتشف الأوروبيون البترول العربي ولم يعلنوا عنه وما إلى ذلك. وخطورة فلسطين في الوجدان السياسي الإسلامي.

٣ ـ تقدم معلومات جديدة تختلف عما ألفناه وقرأناه عن شخصيات هامة مثل شخصية جمال الدين الأفغاني وشخصية مدحت باشا.

٤ ـ تقدم لنا معلومات أساسية في تاريخ حركة تغريب البلاد الإسلامية، وعن بداية الحكم الديمقراطي في العالم الإسلامي.



الجديد في الطبعة الثانية وهي طبعة خاصة لدار الهلال، أنها:

أولاً ـ بها إضافات مصدرية هامة، مثال ذلك:

١ ـ الاستفادة من مذكرات ابنة السلطان عبد الحميد وهي الأميرة شادية، وهذه الأميرة عاصرت أحداث حكم والدها، ونشرت مذكراتها حديثاً في إستانبول.

٢ ـ الاستفادة من مذكرات فتحي أوقيار وهو كان حارساً للسلطان عبد الحميد في منفاه. وقد نُشرت هذه المذكرات حديثاً في إستانبول.

٣ ـ مذكرات شيخ الإسلام جمال الدين أفندي شيخ الإسلام في عهد عبد الحميد. ونُشرت بالتركية الحديثة في إستانبول.

٤ ـ مذكرات رضا نور، وقد نُشرت بالعربية في الكويت عام ١٩٨٠م، والمعروف أنها مصادرة في لغتها التركية، والكاتب كان مناهضاً لعبد الحميد. وقد استفدنا منها فيما يتعلق برؤية الدكتور رضا نور للسلطان عبد الحميد.

٥ ـ الاستفادة أيضاً من مذكرات السير هنري وودز، وكان ضابطاً كبيراً في البحرية العثمانية عاصر عبد الحميد وكتب عنه ونُشرت مذكراته في ترجمتها التركية في إستانبول حديثاً.

ثانياً ــ أن بها إضافات وثائقية هامة، هي :

١ ــ صور وثائق تهم الباحثين في التاريخ العربي في عهد عبد الحميد، وهي صور لتقارير المخابرات الفرنسية للمقاومة العربية للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا. واتصالات العرب هناك بالسلطان عبد الحميد.

٢ ــ صورة منشور السلطان عبد الحميد إلى مسلمي الصين، تدل على وصول فكرة الجامعة الإسلامية على يد دعاة عبد الحميد إلى الصين.

٣ ــ صورة قرار إنشاء السلطان عبد الحميد لجامعة إسلامية في بكين باسم الجامعة الحميدية للعلوم الإسلامية.



واعتمدتُ في ترجمة هذه المذكرات على نشر وداد عرفي بالأحرف العثمانية وقد نشرها في عهد «الاتحاد والترقّي»، ثم نشر «دار سَلَكْ» ونشر «عصمت بوزداغ» بالحروف الجديدة فيما أشكل في قراءة بعض الكلمات أو إضافة ما لم أجده في الأصل الذي نشره وداد عرفي وهو أساس ترجمتي، وهذا الذي أتحدث عنه ليس كثيراً.

وكل ما وضعته بين قوسين معكوفين إنما هو توضيح مني للكلمة أو الحدث حتى تتضح الصورة للقراء. وما احتاج إلى إضافة بسيطة في الحاشية لتوضيحه وضعته في شكل (حرب).

وكتبت قائمة في البداية حتى يكون الرجوع إليها أبسط ولا يحتاج إلّا لإشارة بسيطة، واكتفيت بأهم المصادر في هذه القائمة، مع ملاحظة أنني لم أستخدم الحروف اللاتينية في كتابتها لصعوبة ذلك في المطبعة، فأوردت أسماء الكتب التركية في حروف عثمانية، وهي الأقرب في الطبع.



تقديم

السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ــ ١٩١٨م)

وُلد عبد الحميد الثاني وهو ابن السلطان عبد المجيد صاحب فرمان التنظيمات الذي ينظم الدولة العثمانية على الطراز الأوروبي وُلد في ٢١ سبتمبر عام ١٨٤٢م. وتولى العرش خلفاً لأخيه مراد في ٣١ أغسطس عام ١٨٧٦م. وماتت أمه وهو في الحادية عشرة من عمره فربَّته زوجة أبيه وعاملته معاملة الأم شفقة ورحمة وعناية.

درس عبد الحميد العلوم الأساسية في عهده وبجانبها تعلَّم اللغة العربية وأجادها والفارسية وأجادها وكان ينظم الشعر. وكان شخصية قوية منذ صغره. كان متديِّناً وسط جو أوروبي يعيشه أمراء القصر السلطاني حريصاً على أداء الصلاة في أوقاتها، عفيفاً، لا يشرب الخمر، ويمنع تدخل نساء القصر في السياسة أو شؤون الدولة منعاً باتاً. وفي ذلك تروي ابنته الأميرة عائشة (نقلاً عن مصطفى مفتي أوغلو، ص ١٦٧) الحكاية التالية:

(في اليوم التالي لتنصيب والدي السلطان عبد الحميد سلطاناً على الدولة العثمانية. قابل زوجة والده التي أحبها حباً ملأ عليه فؤاده، وقبَّل يدها وقال لها:

ــ بحنانك لم أشعر بفقد أمي. وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها، ولقد جعلتُك السلطانة الوالدة [وهو لقب خاص بأم السلطان ويعني

الملكة] . . لكني أرجوكِ بإصرار ألاّ تتدخّلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة، وانصاعت هي لهذا الأمر تماماً).

وكان عبد الحميد قد اتُّهِم بالاستبداد. وبدأ حكمه الفردي بافتتاح مجلس «المبعوثان» لكنه سرعان ما عطّله إلى أجل غير مسمى. وكان هذا التعطيل في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨م واستمر الحكم الفردي لعبد الحميد مدة ثلاثين عاماً ونصف عام تقريباً، يعني حتى ١٣ يوليو ١٩٠٨م عندما ثار عليه الجيش فاضطر إلى إعلان الحكم النيابي وافتتح البرلمان للمرة الثانية.

لكنه كان رحيماً بالمعارضين له يستميلهم بقدر إمكانه، وإذا نفى أحداً منهم ينفيه إلى مكان بعيد بَعْد أن يمنحه منصباً عالياً وراتباً كبيراً، فعل هذا ــ على سبيل المثال ــ مع نامق كمال الشاعر العثماني المعروف ومع ضيا باشا الأديب العثماني الذائع الصيت.

أسوق هنا ترجمة لقصيدة نظمها الفيلسوف التركي رضا توفيق وهو من كبار «الاتحاد والترقّي» وكان من أكبر المعارضين لحكم عبد الحميد. وهذه القصيدة لم يكتبها الشاعر إلاّ بعد وفاة السلطان عبد الحميد، يقول فيها:

عندما يذكر التاريخ اسمك؛
يكون الحق في جانبك ومعك يا أيها السلطان العظيم.
كنّا نحن الذين افترينا دون حياء؛
على أعظم سياسِيِّي العصر.

* * *

قلنا إن السلطان ظالم وإن السلطان مجنون.
قلنا لا بد من الثورة على السلطان.
وصدّقنا كل ما قاله لنا الشيطان.
وعملنا على إيقاظ الفتنة.

* * *

لم تكن أنت المجنون، بل نحن، ولم نكن ندري.
علقنا القلادة على فتيل واه.
لم نكن مجانين فحسب، بل كنا قد عُدمنا الأخلاق؛
فلقد بصقنا ــ أيها السلطان العظيم ــ
على قبلة الأجداد.



بدأ عهد عبد الحميد بالمشكلات العديدة: تمرُّد الصرب والجبل الأسود، وهو تمرُّدٌ بدأ في آخر عهد عبد العزيز، وكان الوضع في جزيرة كريت مضطرباً ولم يكن في صالح الدولة. والخديوي إسماعيل خديو مصر قد أرسل قوات تساعد الدولة في البلقان. وكان العثمانيون قد أحرزوا انتصاراً على قوات الصرب في معركة الكسيناج، ولكن عندما اقترب العثمانيون من دخول بلغراد إذا بروسيا توجه إنذاراً للدولة العثمانية فخافت الدول الغربية وعلى رأسها إنجلترا من مغبَّة تدخل روسيا، وعقدت هذه الدول مؤتمر الترسانة المشهور في إستانبول في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م برئاسة صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية. في هذا اليوم أعلن عبد الحميد الثاني الحكم المشروطي في الدولة.

والواقع أن هذا المؤتمر قد جعل الدولة العثمانية مجبَرة على القيام بإصلاحات في البوسنة والهرسك وبلغاريا. وفي ١٨ يناير عام ١٨٧٧م اجتمع في الباب العالي مجلس مكوَّن من ٢٤٠ شخصاً لدراسة مقترحات الدول وكذلك دفع مدحت باشا طلبة العلوم الدينية العالية إلى القيام بمظاهرات لإجبار السلطان عبد الحميد على الحرب. قام المجلس بإجبار السلطان على التصديق على قرار المجلس برفض مقترحات المؤتمر، فانفضَّ السفراء وتركوا الدولة العثمانية بمفردها تواجه الروس.

ولمّـا كان نـابليون الثـالث قد أرسى دعـائم الفكـر القـومي العـرقي في أوروبا فقد استغل الروس فرصة انتشـار هذا الفكـر وقامـوا بدعـايات ضخمـة لإنقـاذ إخوانهم السـلاف الـواقعين تحت الحكم العثمـاني. وفي ٢٤ إبـريـل ١٨٧٧م أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين وبذلك بدأت الحرب العثمانيـة ـ الروسية المشهورة والتي استمرت من عام ١٨٧٧ إلى عام ١٨٧٨م وعـرفت بالتاريـخ باسم حرب ٩٣. وهذه الحرب نكبـة من نكبات التـاريـخ العثماني، فقـد رافق خسارة العثمـانيين في الأرض، مشكلةُ هجرة مليـون مسلم عثماني من بلغاريا إلى إستانبول. وهذه الهجرة جعلت المسلمين في البلقان أقلية فقد كانت بدايـة، وهذه المسـألة هي أصـل مشكلة الأقليات الإسـلامية اليـوم في بلغـاريا وغيـرها من دول البلقـان. وعندمـا هاجـر المليـون عثمـاني في هـذه الحرب رافقتهـم مشكلات اجتماعية كبيرة في الإسكان وفي المعيشـة. وأخيراً عُقدت في ٣١ يناير ١٨٧٨م معاهدة لإنهاء الحرب التي استمرت تسعـة أشهر وسبعة أيام. والتي تحدث عنها عبد الحميد كثيراً وبألم واضـح في مذكراته.

وأمام ما تصوره عبد الحميـد من قصور في الـرأي العام ممَثَّلاً في هذا المجلس الذي دفـع بالأمة إلى حرب هي في غيـر استعداد ولا حـاجة إليهـا. قـام السلطان في ١٣ فبرايـر ١٨٧٨م بتعطيـل الحيـاة النيـابيـة إلى أجـل غيـر مسمى، واضطر وزير الخارجية العثمانية أن يوقـع معاهدة أياسـطفانـوس التي فرضتها روسيا على الدولة عقب حرب ٩٣. والواقـع أن هذا الـوزير قـد بكى وهو يوقــع المعاهدة لأنها كانت مُجْحِفة بالدولة، إلاَّ أن السلطان يذكر في هذه المـذكرات أنـه عمل كثيـراً على تخفيف وقـع هذه المعـاهـدة على الـدولـة، بتوقيـع معاهدة أخرى هي معاهدة برلين في ٣ يوليـو ١٨٧٨م يعني بعد أربعـة أشهر وأحد عشر يوماً من المعاهدة الأولى.

وفي ٢٠ مـايو ١٨٧٨م، وأثنـاء ما كـان جيش الاحتـلال الـروسي يجثم

على أراضي الدولة، وانشغال هذه به، قام شابٌ يُدعى علي سعاوي مع أنصاره من الشباب الثائر بمحاولة لخلع عبد الحميد وإحلال مراد ــ وكان هذا مريضاً مرضاً عقلياً ــ محله إلاَّ أن هذه المحاولة باءت بالفشل.

أما عن الديون العثمانية وخطورتها، فقد وصلت ديون الدولة العثمانية المتبقية من عهدَيْ عبد المجيد والدِ عبد الحميد وعبد العزيز عمِّه إلى ٢٥٢ مليون ليرة ذهبية (عام ١٨٨١م) وكان هذا الرقم وقتها رقماً هائلاً. وكانت كل من إنجلترا وفرنسا في مقدمة الدائنين. وقد نجح السلطان عبد الحميد في حل مسألة الديون هذه بتقليلها إلى النصف تقريباً. لذلك كان الموظفون العثمانيون وخاصة الضباط يتضجَّرون عندما يقبضون رواتبهم متأخراً. وهذا الأمر كان من أسباب ضيق الموظفين في عهد عبد الحميد.

بعد وفاة السلطان عبد العزيز ــ عم عبد الحميد ــ بخمس سنوات. أثار عبد الحميد قضية هذه الوفاة ولذلك قدَّم مدحت باشا وأعوانَه إلى المحاكمة في محكمة يلديز في ٢٧ يونيو ١٨٨١م بتهمة قتل سلطان الدولة، وأصدرت المحكمة قرارها بالإدانة.

وفي ٢٨ يوليو ١٨٨١م نقل مدحت باشا وصحبه بالسفينة «عز الدين» إلى قلعة الطائف نفياً وحبساً في السجن العسكري هناك. واستمر هذا الحبس سنتين وتسعة أشهر ثم وُجد مدحت باشا وزميله في السجن «محمود جلال الدين باشا» مقتولين خنقاً. ولم يُعرف مَنْ المحرِّض على القتل، وهذه المسألة الهامة تناولها صاحب المذكرات تناولاً عميقاً. والمعروف أن إنجلترا حاولت إنقاذ مدحت باشا من هذا السجن بتهريبه منه حتى إنها خصصت سفينة عسكرية بريطانية في البحر الأحمر لهذا الغرض.

وفي ٢١ يوليو ١٩٠٥م دبَّر الأرمن مؤامرة لقتل السلطان عبد الحميد عُرفت في التاريخ العثماني باسم حادث القنبلة. دبَّرها ونفَّذها الأرمن وأيَّدها

المعارضون لعبد الحميد خاصة العاملون في النشر والإعلام.

ومع هذا فقد كان حكم عبد الحميد بالنسبة للدولة العثمانية عهد استقرار. وكان الشعب يشعر بالأمان، لكن نتيجة أن السلطان كان يربط مؤسسات الدولة بشخصه مباشرة ودائماً ويحدّ من الصحافة والحريات السياسية فقد عاداه الضباط وطلبة العلوم العليا خاصة طلبة الطبية العسكرية.

المسائل العربية في عهد عبد الحميد

بجيش مكوّن من ٢٣,٠٠٠ جندي فرنسي استُقدموا من الجزائر مع أسطول بحري و ٨,٠٠٠ جندي، فرضت فرنسا حمايتها على تونس ووقعت معاهدة باردو (قصر سعيد) في ١٢ مايو ١٨٨١م بذلك.

احتج الباب العالي وأخذ الوزير محمود صادق باشا أمير تونس يطلب النجدة، فذهب إليه أسطول عثماني مدرّع إلاّ أن هذا الأسطول اضطر إلى الانسحاب إلى مياه كريت لعدم التوازن في القوى بين الأسطولين العثماني والفرنسي.

ولم تكن الدولة العثمانية في الواقع قادرة على أن تدافع عن تونس، وكل ما استطاعت عمله أنها لم تعترف رسمياً بالاحتلال الفرنسي. وظل عبد الحميد يعتبر تونس قطعة من الدولة العثمانية في السالنامة الرسمية.

وكان احتلال بريطانيا لمصر في ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢م هو الحدث الكبير الثاني في السياسة العثمانية الخارجية فيما يختص بالأمور العربية.

إن العلاقات العثمانية المصرية كانت قد اتخذت طوراً متشدداً تجاه إسراف الخديوي إسماعيل بعد أن استطاع الحصول من عبد العزيز على امتياز بالاقتراض الخارجي. ووصل الأمر بالخديوي إلى أنه اقترض من إنجلترا وفرنسا مبلغ مائة مليون جنيه ذهباً في عشر سنوات. ولتقريب هذه

المسألة نقول: إن ديون الدولة العثمانية كلها ــ بعد جهود عبد الحميد في تخفيضها إلى النصف تقريباً ــ تعادل جملة اقتراضات الخديوي إسماعيل بمفرده وهو خديوي على أيالة مصر العثمانية. وهذا مما أعطى انطباعاً لدى السلطان عبد الحميد بعظم إسراف الخديو، وهذا الإسراف دفع إسماعيل في نوفمبر ١٨٧٥م إلى طرح أسهمه الشخصية في قناة السويس إلى البيع، وحاولت فرنسا أن تشتريها، إلاَّ أن سرعة حركة دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا في شراء هذه الأسهم عطَّلت حركة فرنسا في العمل، وهذا أدى إلى توقع وقوع مصر فريسة للاحتلال البريطاني ولم تكن فرنسا من القوة بحيث تستطيع وقتها عمل شيء لتعطيل تحرك الإنجليز في مصر. ومع ذلك لم يُجد بيع إسماعيل لأسهمه في قناة السويس نفعاً.

كان جيش مصر قد بلغ أيام إسماعيل إلى ٣٠,٠٠٠ عسكري ما بين ضابط وجندي، ثم كان تدخُّل الوزراء الأوروبيين في الوزارة المصرية قد أدى إلى تخفيض هذه القوة إلى ١١,٠٠٠ وتسريح ٢٥٠٠ ضابط، وكان هذا العدد يقرب من نصف عدد ضباط الجيش، مما أدَّى إلى بداية تذمر في القوات المسلحة المصرية. وكان عدد الضباط المصريين قليلاً بالنسبة إلى الضباط الآخرين من رعايا الدولة العثمانية: الألبان والأباظة والشركس وغيرهم، إلاَّ أنَّ أغلب الضباط المُحالين إلى التقاعد كانوا من المصريين. واستاء هؤلاء وبدأ في مصر ــ لأول مرة ــ الشعور بالقومية وفي هذا ظهر الأميرالاي أحمد عرابي بك.

نتيجة لهذا الجو الجديد قام السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار إرادة سنية في ٢٥ يوليو ١٨٧٩م بعزل الخديو إسماعيل باشا وتعيين ابنه الأكبر وولِّي العهد محمد توفيق باشا مكانه. وطلب إسماعيل من السلطان عبد الحميد الإذن بالإقامة في إستانبول والإفادة من أملاكه هناك فأذن له وأقام إسماعيل

في قصـره في حي بايـزيد في إستـانبـول، وكـذلـك في قصـره الصيفي على البسفور في حي أميركان. ومات إسماعيل في إستانبول في ٢ مـارس ١٨٩٥م عن ٦٥ عـاماً. والمعـروف أن إسمـاعيـل درس في الأكـاديميـة الحـربيـة في باريس.

وفي عـلاقة عبـد الحميـد بـإسمـاعيـل أيضـاً، مسـألـة إهـداء السلطان عبد العزيز عم عبد الحميد ياسي آدا ــ وهي جزيرة صغيرة، جميلة، بالقـرب من إستانبول ــ إلى إسمـاعيل، وعنـدما تـولى عبد الحميـد الحكم أعاد هـذه الجزيرة إلى أملاك الدولة.

نعود إلى حركة أحمد عرابـي بك، أيَّده عبد الحميد ومنحه رتبة مير لواء مـع الباشوية، كما منحه الوسام الحميدي من الـطبقة الأولى. والمعـروف أن الرُّتَب العسكرية في مصر فيما فوق أميـرالاي لا تُمنـح إلاَّ من السلطان نفسه. وبذلك أصبـح عرابـي، أمير اللواء أحمد عرابـي باشا.

قام عرابـي باشا بإنهاء عمل الموظفين الأوروبيين فاحتجت عليه كل من إنجلترا وفرنسا وقامتا بمراجعة الباب العالي في شأن إرسال قوة عسكرية، لأن قمـع الحركة الوطنية المصرية بجنود عثمانيين لصـالـح الدول الأوروبيـة وهي دول استعمارية، كان من شأنه الإساءة إلى مقام الخلافة في كل أرجـاء العالم الإسـلامي ويتنافى مـع مبـدأ الجامعـة الإسلاميـة التي كان عبـد الحميـد قـد اتخذها سياسة له.

في هذه الأثناء تولَّى عرابـي باشا رياسة الوزراء وفي ١١ يونيـه ١٨٨٢م حدثت قلاقل الإسكندرية ومات عديد من الأوروبيين هنـاك، كما جُـرح أربعة قنـاصل. لـذلك قـام الأميرال سيمـور قـائـد الأسـطول البـريـطاني في البحـر المتوسط ــ وكانت إنجلتـرا قد أعلنت أنهـا ستحمي الأجانب في مصـر ــ قام في الساعة ٦,٥ في ١١ يوليو بضـرب الإسكندريـة بالمـدفعية البحـرية ضـرباً

متواصلاً. وفي اليوم التالي ١٢ يوليو احتل الإنجليز المدينة، وفي ١٢ سبتمبر قام السير جرانت ويلزلي بالتغلُّب على قوات عرابي باشا في معركة التل الكبير في عشرين دقيقة. ودخل الجيش الإنجليزي القاهرة في ١٥ سبتمبر ونفت بريطانيا أحمد عرابي إلى سيلان.

وكانت بريطانيا تردد دائماً أنها تحتل مصر والسودان احتلالاً مؤقتاً، ولم يكن للاحتلال صفة رسمية كما لم يكن له وضع قانوني وإن كان أمراً واقعاً، إلاَّ أن مصر رسمياً كانت تابعة للدولة العثمانية. واستمرت مصر حتى عام ١٩١٤م ــ تاريخ إعلان الحماية البريطانية عليها ــ ترسل متعلقات تبعيتها للعثمانيين إلى إستانبول سنوياً وكذلك كان تعيين الرتب الكبيرة فوق الأميرالاي لا يتم إلاَّ عن طريق السلطان.

والمسألة الثالثة الهامة في العلاقات العثمانية المصرية في عهد عبد الحميد تتجلى في مسألة العقبة عام ١٩٠٦م، فبعد أن ضيَّق العثمانيون على الإنجليز حلقة العمل الاستراتيجي للاحتفاظ بطريقهم إلى الهند سليماً وخوف بريطانيا من خط سكة حديد الحجاز، خاصة بعد دخول ألمانيا منافساً للقوى الأوروبية في خط حديد بغداد، في تلك الفترة كان السلطان عبد الحميد مشغولاً بإنشاء خط سكة حديد مكة الطويل برأس مال إسلامي وأيدٍ عاملة مسلمة. وكان خط سكة الحجاز قد وصل إلى المدينة المنورة وقد ربط هذا الخط بين إستانبول ودمشق والمدينة.

في نفس هذه الفترة أنشأ السلطان مدينة بير السبعة بين غزة وبحيرة لوط في جنوب فلسطين. وفي عام ١٩٠١م حلَّت قوة عثمانية هنا وتَكَوَّن حولها قصبة. والواقع أنها كانت قاعدة استراتيجية عثمانية تشرف على شبه جزيرة سيناء والجزيرة العربية وطريق الحجاز ومصر وكان من شأنها أيضاً مراقبة

الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر. وتشكل هذه القاعدة العثمانية الاستراتيجية التي أُقيمت على أطلال مهجورة متراكمة حول بئر، واحدةً من بدايات مسألة العقبة.

في عام ١٩٠٥م قام الإنجليز بتحريض بعض القبائل اليمنية بالتمرد على العثمانيين لكن هؤلاء استطاعوا القضاء على هذا التمرد. أدركت بريطانيا أنها عاجزة عن الإضرار بالعثمانيين في اليمن وهي ولاية ذات أهمية استراتيجية على البحر الأحمر وخليج عدن. لذلك قام الإنجليز باختلاق حادثة على حدود مصر وكانت هذه الحادثة هي حادثة قرية تسمى العقبة.

طلبت إنجلترا إرسال جنود إلى هذه القرية التي يسمح الباب العالي بوجود جنود مصريين فيها خاصة بمناسبة أعمال الحج.

بذلك كانت إنجلترا تريد السيطرة على المدخل الشمالي الشرقي للبحر الأحمر وتدخل منه إلى داخل الجزيرة العربية.

أرسل السلطان عبد الحميد أحد ياورانه المخلصين وهو الأميرالاي رشدي بك ــ باشا فيما بعد ــ إلى المنطقة، فسار مع طابورين من الجنود ومدفع واحد واتجه إلى العقبة وأخلاها من الجنود المصريين الذين كانوا فيها بعد أن أبلغهم أن هذا قرار من السلطان. وبموجب أمر من عبد الحميد احتل رشدي بك قصبة طابا بعد أن أخلاها من جنودها المصريين ليفاجىء الإنجليز بالأمر الواقع.

أدركت إنجلترا أنها على أبواب صدام قريب مع الدولة العثمانية بشأن الحدود، ولا سيما بعد قيام الشعب المصري في القاهرة وسائر المدن المصرية بمظاهرات تهتف بحياة عبد الحميد وبسقوط الاحتلال الإنجليزي. وقدمت إنجلترا للباب العالي إنذاراً باحتلال العقبة وطابا في مدة عشرة أيام إذا

لم يرسل الباب العالي إلى رشدي بك تلغرافاً بـإخلاء القلعتين وقـالت إنجلترا في إنذارها: إن من حقها الدخول في حرب مـع الـدولة إذا لم يحـدث صدى إيجابي للإنذار. ولكي تضخِّم إنجلترا المسـألة أمـرت أسطولهـا في المحيط الأطلسي بدخول البحر المتوسط عن طريق جبل طارق ليكون بجوار الأسطول البريطاني في المتوسط.

أبلـغ عبد الحميد إنجلترا برفضه لهذا الضغط البريطاني وقال: إن مصر جزء من الدولـة العثمانيـة رسمياً وليس لإنجلتـرا حق فيما تـريده، وقـال: إن الحدود المصرية العثمانية لا يحلها إلَّا ضباط من مصر ومن الدولة العثمانية.

وفي أول أكتوبر ١٩٠٦م قـام الضباط العثمـانيون والضبـاط المصريـون بتنظيم الحدود واستقر الأمر على أن «طابا» مصرية.

عبد الحميد واليهود

عندما مـات البارون هيـرش كان يـأمل في إقـامة وطن ليهـود روسيا في الأرجنتين، وعندما تـدخل تيـودور هرتـزل في المسألـة اليهوديـة أصبـح الأمر لا يتعلق بيهود روسيا فقط بل بكل اليهـود، ولم يصبـح الوطن الـذي يطلبـونه الأرجنتين، بـل أصبـح في فلسـطين. وكــانت فلسـطين جــزءاً من الـدولــة العثمانية.

يقول تحسين باشا رئيس أمناء القصـر السلطاني في عهد عبـد الحميد. في مذكراته ما يلي:

(جاءت شخصية كبيرة صهيونية يهودية نمساويـة إلى إستانبـول، وطلبت إقامة وطن يهودي في سنجق القدس، وقالت هذه الشخصية أنها تتحـدث في هذا باسم الصهاينة، وأن روتشيلد المصرفي المشهور، وراء هذا الأمر).

وكان أساس مطلب هذا اليهـودي: إقامـة قرى يهـودية في فلسـطين في

مكان تحدده الحكـومة العثمـانية ولا مـانـع من وجود منـازل إسلاميـة في هذه القـرى إذا رغبت الحكومـة في هـذا. وسيتبـع اليهـود القـادمـون من الخـارج قوانينَ ونظمَ الدولةِ العليـة [العثمانيـة]، وسيتم مقابـل هذا تقـديم الخدمـات والتسهيلات اللازمة في مسألة الديون العمومية، وسيتم تقديم الضمان الكافي بهذا كتابةً.

ولأن هـذا اليهودي كـان له وزنـه واعتبـاره، ولأن هـذه المسـألـة تتعلق بالديـون العموميـة بحسابـات حادة عـرضنا المـوضوع على الـذات الشاهـانية [السلطان] وإذن السلطان بمقابلته..

رأى السلطان مجموعة مـوانـع في هذا: ففلسـطين بمقامـاتها المبـاركة تشكِّل أرضاً للمطامـع والطموحات السياسية.. وعاد الصهيوني النمسوي هذا إلى بلاده صفر اليدين.

بـأمر من السلطان عبـد الحميد ــ بعـد هذه المقـابلة ــ تم إرسالـه إلى سفراء الدولة العثمانية في كل من واشنطن وبرلين وڤيينـا ولندن وبـاريس، قام هؤلاء السفـراء بتعقب الحركـة الصهيونيـة وإرسـال تقـاريـرهم أولاً بـأول إلى السلطان، كما قاموا بناءً على هذا الأمر بمقابلة زعماء اليهـود في البلدان التي يعملون بها وقاموا أيضاً بموجب نفس الأمر بإرسال مُخْبِرين عثمانيين متفكرين إلى الاجتمـاعـات الصهيـونيـة في أوروبـا، وإرسـال قُصـاصـات الصحف والمجلات الأوروبية المتعلقة بنشاط اليهود في أوروبا.

وبذلك خطط عبد الحميد بنفسه الخطوط الأساسيـة للسياسـة العثمانيـة تجاه اليهود وفهم تفكيرهم تجاه القضية الفلسطينية.

وفي ٢٨ يـونيـو ١٨٩٠م وفي ٧ يـوليـو من نفس العـام أصـدر السلطان عبد الحميد إرادتين سلطانيتين بـ: (عدم قبول الصهاينة في الممالك الشاهانية [الأراضي العثمانية] وإعادتهم إلى الأماكن التي جاؤوا منها).

وأبلـغ عبد الحميد أوامره إلى نظارة الشؤون العقارية بعدم بيـع أراضٍ للمهاجرين إلى فلسطين.

يقول محرم فوزي طوغاي في مقالة له في ٢ مـايو عـام ١٩٤٧م نشرهـا في مجلة بيوك طوغو التركية بعنوان: «فلسطين والمسألة اليهودية» ما يلي:

(إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة اليهودية بهذا الشكل المعادي كان معناه أنه يتسبَّب في هدم تاجه وهدم عـرشه، ليس هـذا فقط بل وبـالتالي في هدم الدولة العثمانية كلها).

ويقول العقيد التركي حسام الدين أرتورك في كتابه «خفايا عهـدين» نُشر في إستانبول عام ١٩٥٧م ما يلي:

(قدَّم كل من تيودور هرتزل والحاخام الأكبر طلبـاً شخصياً إلى السلطان عبد الحميد يطلبان فيه إقامة وطن إسرائيلي مستقل في [سنجق] القدس، فما كان من عبد الحميد إلَّا أن طردهما).

ويعقب نظام الدين تبه دنلي أوغلي بالتعليق على هذه المسألة قائلاً:

(إن تصرف السلطان عبد الحميد تجاه هرتزل بهـذا الشكل كـان ـ كما فطن السلطان لذلك ـ من شأنـه أن يعمل هـرتزل واليهـود على تدعيم أعـداء السلطان).

وأعداء السلطان يتمثلون في الآتي:

١ ـ تأييد الأرمن وتدعيم حركتهم ضد السلطان عبد الحميد.

٢ ـ تـأييد الحـركة القـوميـة في البلقـان لانفصـال هـذه المنـطقـة عن الدولة.

٣ ـ تأييد الحـركة القـومية الكـردية التي ظهـرت عام ١٨٨٠م وبـدأت بمحاولة اتحاد ٣٠ عشيرة كردية متنافرة.

٤ ــ تأييد كل حركة استقلال عن الدولة العثمانية.

٥ ــ تدعيم قوى حركة «الاتحاد والترقّي» ودفعها إلى قلب الأوضاع السياسية في الدولة.

السلطان عبد الحميد و «الاتحاد والترقّي»

«الاتحاد والترقّي» هو أول حزب سياسي في الدولة العثمانية. كان ظهوره عام ١٨٩٠م وكان سرياً مكوَّناً من خلايا طلبة الحربية والطبية العسكرية. وكان تأسيسه يهدف إلى معارضة حكم عبد الحميد والتخلص منه. في عام ١٨٩٧م تم اكتشاف هذا الجهاز فنُفي عديد من أعضائه وفرَّ بعضهم إلى باريس. وأرسل السلطان عبد الحميد مدير الأمن العام الفريق أول أحمد جلال الدين باشا إلى باريس لاستمالة أعضاء المعارضة من الاتحاديين فنجح في استمالة أكثرهم ومنحهم عبد الحميد مناصب كبيرة في الدولة، إلاَّ أن المعارضين وعلى رأسهم أحمد رضا بك ظلوا على معارضتهم.

وفي المدة من ٤ إلى ٩ فبراير ١٩٠٢م عُقد في باريس مؤتمر للأحرار العثمانيين حضرته كل العناصر المعارضة لحكم عبد الحميد، وعلى رأسهم «الاتحاد والترقّي». وكان من ضمن قرارات هذا المؤتمر تقسيم الدولة العثمانية إلى حكومات مستقلة استقلالاً ذاتياً على أساس عرقي قومي. وظهر المعارضون لهذا ومنهم أحمد رضا بك نفسه، إلاَّ أن الأغلبية كانت لها قوتها في تأييد هذا القرار.

طالب المؤتمرون من الدول الأوروبية التدخل لإنهاء حكم السلطان عبد الحميد وإقصائه من العرش. وفي داخل البلاد العثمانية وبالذات في سلانيك ومناستر افتتح «الاتحاد والترقّي» فروعاً له التحق بها الضباط الشبان من رتبتي ملازم ويوزباشي. ثم بدأ دخول الضباط من الرُّتَب الكبيرة، حتى

إنـه يتردد أنَّ كـل ضباط الجيش العثمـاني الثالث [في البلقـان] عـام ١٩٠٨م منضمُّـون إلى «الاتحـاد والتـرقّي». وكـان منهم أركـان حـرب قـول أغـاسي مصطفى كمال أفندي (أتاتورك فيما بعد) إلاَّ أنه انسحب فيما بعد من «الاتحاد والترقّي».

وفي مذكرة لجمعيـة «الاتحاد والتـرقّي» إلى قناصـل الدول الأجنبية في الدولة العثمانية، طالبت الجمعية بتدخل دول هؤلاء لإنهاء حكم عبد الحميد، وتحالفت الجمعية مـع الثوار البلقانيين ضد السلطان.

اعتقد الاتحاديون أنهم بإزالـة عبد الحميـد يستطيعـون تقريب العنـاصر المختلفة في الدولة وأن دول أوروبا ستكفّ عن مضايقاتها للدولة العثمانية. ، وتصوَّر الاتحاديون أن هذه الدول الأوروبية ستتعهَّد بحماية الدولة العثمـانيـة. انتهى حكم عبد الحميد الفردي غير المشروطي [غير الـديمقراطي] ، والـذي حـدث أنه عقب المشـروطية فقـدت الدولـة العثمانيـة البوسنـة والهرسـك مما أصاب الاتحاديين بالهلـع.

في ٢٣ يـوليـو ١٩٠٨م اضــطر عبـد الحميـد اضـطراراً إلى إعــلان المشروطية [الثانية] وتـولت جمعية «الاتحـاد والترقّي» الحكم وأعلنت تمثّلهـا لمبادىء الثورة الفرنسية «الحرية ــ العدالة ــ المساواة ــ الأخوة».

أمـا في ١٥ أكتوبـر من نفس العـام ١٩٠٨م فقـد استقلت عن الـدولـة العثمانية كل من بلغاريا وكريت التي أعلنت انضمامها لليـونان في ٦ أكتـوبر، واستقلت ــ كمـا ذكرنـا ــ البوسنـة والهرسـك. وفي ١٣ إبـريـل ١٩٠٩م دبَّـر الجيش العثماني حادثة عُرفت باسم حادث ٣١ مـارت ثم نسبوهـا إلى السلطان عبـد الحميد وقـالوا: إنـه أراد ثورة العنـاصر الـرجعية ضـد جمعيـة «الاتحـاد والترقّي» واتخذ الجيش هذا ذريعة للتحرك لعزل السلطان عبد الحميد الثاني، وندبوا لإبلاغه بقرار العزل وفداً مكوَّناً من أربعة أشخـاص لم يكن منهم تركي

ولا عربي واحد. وإنما: كان على رأس الوفد يهودي والثلاثة الآخرون: أرمني وألباني وجرجي. واليهودي هو إيمانويل قراصو الذي لعب فيما بعد دوره المشؤوم في الاحتلال الإيطالي لليبيا.

وتنازل السلطان عبد الحميد عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد في ٢٧ إبريل ١٩٠٩م، وكان على السلطان عبد الحميد أن يركب هو وأسرته القطار إلى منفاه في سلانيك [وهي مدينة يغلب عليها الطابع اليهودي]، وكان مقر منفى السلطان عبد الحميد في هذه المدينة ذات الطابع اليهودي في قصر يمتلكه يهودي يسمى آلاتيني، إمعاناً في إذلال عبد الحميد.

وفي ١٠ فبراير ١٩١٨م مات السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد، عن ست وسبعين عاماً واشترك في تشييع جنازته «كل شعب إستانبول تقريباً».

سير كاجي
شارع تربه دار ـــ ديوان يولو ـــ إستانبول.
وميدان مولانا جلال الدين الرومي ـــ قونيه.

إستانبول ـــ الدكتور محمد حرب
٢٣ يوليو ١٩٨٥م

(*) **مصادر الترجمة:**

١ ـــ سلطان عبد الحميد ثاني، خاطرات، عطارد مجموعه سي، عدد ١ ـــ ٧، ٦ كانون ثاني ١٣٣٥، ـــ ٨، مايس ١٣٣٥، إستانبول.

٢ ـــ سلطان عبد الحميد خان، خاطرات، طابعي: جهان كتابخانه سي، ناشري، وداد عرفي، إستانبول ١٣٤٠ (١٣٣٨)، إستانبول.

٣ ـــ Ikinci Sultan Abdülhamit, Hatira Defteri, N. Ismet Bozdağ, Kervan Yayinlari, Istanbul 1975.

ثانيًا

ترجمة النصّ كاملًا عن لغته الأصليّة

قصر بَيْلَرْبَى [في إستانبول]
في أول مارت ١٣٣٣ [رومية]
[= ١٣٣٦ هجرية = ١٩١٧ ميلادية]

التقويم الغربي مضحك!

لم يكن التقويم عندنا قد جرى وفق مفهوم التقويم الغربي، لكنا الآن نستقبل [في الدولة العثمانية] عاماً جديداً. عندنا تقويمان: ديني، ويبدأ بالمحرم، وحكومي، ويبدأ بمارت. يبدأ العام بعد ذلك بشهر كانون الثاني. لا أدري هل فكَّرت أجهزة الدولة ومجلس الوزراء ومجلسا: «المبعوثان» و «الأعيان»، وكذلك حضرة صاحب الجلالة المحترم أخي السلطان محمد رشاد في مسألة بداية عام جديد بكلمة كانون الثاني [وليس الأول] تبدو أمراً مضحكاً بعض الشيء ولا معنى له!!

ينتهي عام بأول الكانونَيْن، ويُفتتح العامُ الذي يليه بثاني الكانونَيْن!!

يجب ألاَّ يتطرق إلى الذهن أني ضد اتخاذ التقويم الغربي، فتسجيلي عنه هنا بعض الأسطر لا بد ألاَّ يَحمل هذا المعنى. فإذا كان لشيء جديد وجوه ضعف فمن المأمول أن يصلحه الزمن.

٢ مارت ١٣٣٣ [رومية]

مذكراتي تخصّ التاريخ

ساقتني كتابتي بالأمس إلى التفكير اليوم في أسفي وندمي على إهمالي حتى الآن تدوين بعض مذكراتي عن الفترة الماضية. أفكر في هذا وأنا مستغرق بين حلقات الدخان. لقد عشت حياة طويلة، وحكمت عهداً طويلاً،

ولذا فإن مذكراتي لا تخصُّني فقط، ولكنها تخص التاريخ أيضاً بشكل أو بآخر، بل الواقع أنها للتاريخ.

عندما كنت في السلطنة لم أكن أستطيع أن أجد الوقت الكافي للدراسة المنظَّمة، كما أن فترة ولايتي للعهد مرَّت ولم أكن أبالي أثناءها بشيء، وحالتي وقتها كانت كحالة أخي المحترم [السلطان رشاد الذي يتربع على عرش السلطنة خلفاً لي].

الذين جرَحوني
جعلوا من مراد الماسوني بطلاً

كان الأدباء المناصرون لحضرة أخي الكبير [السلطان مراد الخامس] والذين تناولوني بعد ذلك بالنقد والتجريح، كانوا يهدفون إلى تصوير السلطان مراد للشعب بصورة العالم الشاعر الوطني المتين، حتى يحبِّبوا الناس فيه. لكنه رحمه الله كان يفتقر إلى العلم والكمال، ناهيك عن ضعفه في الإنشاء والإملاء. وكنت اطَّلعتُ على رسالة كتبها أخي هذا إلى السيدة نعمت زوجة ابن فؤاد باشا عندما كان هذا متوجِّهاً إلى «نيس» للعلاج، فنقلت صورة من هذه الرسالة [التي تدل على ضعف كاتبها في الإنشاء والإملاء].

كان المرحوم أخي [مراد] يخاف من فؤاد باشا كثيراً، بل كثيراً جداً، ولهذا سبب هو: أن ضيا باشا ــ وكان برتبة «بك» في ذلك الوقت ــ نشر رسالة في موضوع «الوراثة السنية». وكان ضيا بك يكنّ حقداً دفيناً لفؤاد باشا، ويبدو الأمر وكأنه [أي ضيا باشا] أوصى المرحوم عمي [السلطان عبد العزيز] بإسناد الصدارة العظمى إلى فؤاد باشا، فلما وليها هذا لم يسعف [ضيا باشا] بالخيرات.

وليّ العهد يخاف من الأدباء

لم أكن أنا أيضاً أحب ضيا بك في ذلك الوقت، ولا حتى عندما حاز رتبة الباشوية. ذلك لأنه كان يستخدم ذكاءه أكثر من خيره ضد من يحقد عليهم. كان [ضيا] رجلاً شَرِهاً يجري وراء الانتقام جرياً.

أورد هنا نص الرسالة التي كتبها وليّ العهد مراد أفندي [الذي أصبح سلطاناً باسم مراد الخامس]، تبياناً للخوف والمداراة [اللذين يبديهما وليّ العهد تجاه فؤاد باشا]:

(صاحبة العفة السيدة الجليلة:

لقد كان لاعتلال مزاج حميك الباشا الكبير، وسفره إلى أوروبا في الأسبوع المقبل للاستشفاء، أثره الواضح فينا عندما تناهى إلى أسماعنا. ندعو الله سبحانه وهو الفياض المطلق، أن يمنحه العافية قريباً. والحقيقة أننا تأثرنا بهذا إلى أقصى درجة، ونالنا ما نالنا من الهم والكدر بسببه. ندعوا الله مخلصين صادقين ــ وهو جلت قدرته «الشافي» الحقيقي ــ أن يمن عليه «بالشفاء العاجل» كما نتمنى مخلصين أن يحيطه الله برعايته)[1].

٢١ جمادى الآخر سنة ٢٨٥

كنت بجوار المرحوم [مراد] ساعة كتابته هذه الرسالة، وقد بلغ الأمر به أنه لم يكتبها بشكلها النهائي دفعة واحدة، بل سوَّد لها عدة مرات، ثم بيّضها بدقة وبطء.

---

(١) في الأصل خطان تحت الكلمتين المحاطتين بقوسين صغيرين، وهما في الأصل العثماني كتبتا خطأً. ويقصد السلطان عبد الحميد بهذا إظهار ضعف السلطان مراد لغوياً. [توضيح م. ح.].

أُحبُّ الأدب والتاريخ

بدأتُ في التحصيل المنتظم، بعد ذهابي إلى سلانيك بشهرين أو بثلاثة أشهر. أي بعد ذلك الفتور الذي أوجبه عليَّ الحال والتحول. إن أحبَّ شُعَب المعرفة إلى نفسي: الأدب والتاريخ. ومن جراء تحصيلي العلمي أثناء نكبتي اكتسبتُ قسماً كبيراً من الرفعة والشرف. كما اكتسبت الراحة. وإني اليوم والحمد لله أستطيع التعبير عن أفكاري بأسلوب أكثر متانة، وتعلمت ــ عن طريق السماع ــ عدة كلمات من اللغة الفرنسية، وحاولت دراسة هذه اللغة بانتظام في أيامي الطويلة [في المنفى] في سلانيك، وأستطيع أن أفهم ــ باستخدام القاموس ــ الرسائل والجرائد التي أطالعها الآن، وأفهمها بسهولة.

لم أكن إلاَّ مشفقاً على الأدباء الذين هاجموني

آه!! لقد اعتبروني عدواً للأدب، هكذا أعلنوا. لا! لست عدواً للأدب، وإنما لسوء الأدب، ولست عدواً للأدباء، وإنما لمن عُدموا الأدب.

لم يكن الرأي العام هو القوة التي دفعتني لإبعاد ضيا بك عن إستانبول، سواء بتولِّيه الوزارة أو الولاية، بل كان احترامي لعلمه ولفضله. وإلاَّ! فكم معارض استطاع أن يعترض عليَّ عندما نفيت مدحت باشا إلى أوروبا، مع أنه كان أقوى تأثيراً في الشعب، وكان أهم عامل في خلع سلطانَيْن!!

لو كنت عدواً للأدب لكنت منعت عن [نامق] كمال بك راتبه الذي كنت أدفعه له من جيبي الخاص حتى يوم وفاته. ولَمَا كنت أوظف ابنه في الحكومة. ولو كنت عدواً للأدب لما تحمَّلت أذى وغطرسة كل من أكرم بك وأبو الضيا [توفيق] بك. ولو كنت عدواً للأدب ما كنت أتطوع بدفع ديون

عبد الحق حامد بك التي كانت تظهر بين الحين والحين، بعد الترفيه عنه براتب ممتاز. ولو كنت عدواً للأدب ولفن التاريخ لما تحملت صفاقة مراد بك [المؤرخ] الذي عمل فترة ضد تاجي وضد عرشي، ولما رضيت بأن يبقى في خدمة الدولة حتى آخر لحظة لي في سلطنتي وبمرتب مريح.

لا.. وأكرر هنا أنني كنت صديقاً حقيقياً ومشفقاً على الأدباء.

لو كنت عدواً للأدباء والمحرِّرين، أفلم يكن لي رجال يمكنهم أن يقتلوهم في وسط الشوارع؟[1].

٣ مارت ١٣٣٣ [رومية]

الدكتور ناظم: اتّحادي ثائر حقود

قال لي مرافقي أنه سمع مناقشة حادة جرت في إحدى القمرات الجانبية في باخرة «قاضي كُويْ» بين مجموعة تتألف من أربعة أو خمسة أشخاص. انتقد فيها أحدهم بحدة الفقر الضارب أطنابه في هذه الأيام، وحمَّل الحكومةَ المسؤولية. تصدى له آخر أشقر الشارب، وردَّ عليه غاضباً، وهو حاد الحركة واللسان قائلاً:

(هذا الحريق تركه لنا عبد الحميد. إنه سجن مدحت باشا ثم قتله، واتبع طريقاً كان ولا بد أن يؤدي بنا إلى هذا الحال).

---

(١) يقول طلعت باشا أحد ثلاثي «الاتحاد والترقي» في مذكراته عن رؤيته للسلطان عبد الحميد في هذا الأمر ما يلي: (عندما قال لي كيركور زهراب [وهو سياسي أرمني]: إن السلطان عبد الحميد قَتَل أخاه مراداً، قلت له: لا يمكن من قريب ولا من بعيد).

مذكرات طلعت باشا ٣ ج، إعداد المؤرخ جمال قوطاي، ج ١ ص ٤٣٧، إستانبول ١٩٨٣م. وهذا الكتاب هو مذكرات طلعت باشا وتعليق جمال قوطاي وهو مؤرخ تركي كبير.

عرف مرافقي بعد اهتمامه وتحرِّياته أن قائل هذا الكلام هو الطبيب ناظم بك السلانيكي. كنت أسمع عن الدكتور ناظم بك هذا منذ عشرين عاماً. كان يعمل ضدي مع أحمد رضا بك[1].

كانوا يقولون لي: إنه [الدكتور ناظم بك] أحد أركان «الاتحاد والترقّي»[2] المتعصبين. كان معجباً بنفسه ولا يعجبه أحد. كان رجلاً لا يُصادَق، فلا مودة فيه. كنت أتعقَّبُ أحياناً من مكاني في القصر حياةَ وحركات المخالفين لي. كنت أعرف أن الدكتور ناظم بك لا يعمل بمهنته الأصلية وهي الطب، وإنما يشتغل بالسياسة، ولكن ما هي السياسة التي

---

(١) عن أحمد رضا بك يقول الدكتور رضا نور في مذكراته: (أحمد رضا بك يفقد شرفه إرضاءً للاتحاديين.. أحمد رضا بك قام بأعمال سيئة. فعندما كان في أوروبا كان له اسم كبير. ولكي يستفيد من الاتحاديين كان يعمل على خدمتهم بكل الوسائل القذرة. وأخيراً أصبح أحمد رضا عضواً في مجلس الأعيان إلاَّ أن الاتحاديين احتقروه بعد ذلك. إن أحمد رضا رجل قصير النظر جداً. لقد أصبح رئيساً لمجلس «المبعوثان». لكنه للحق كان مسكيناً، لكنه كان يقوم بجرائم تشريعية في المجلس كانت كافية لمحو شخصيته، بل وكلّ كيانه. لكنه كان يقوم بهذه الجرائم بدافع المحافظة على منصبه). الدكتور رضا نور، مذكرات رضا نور، ترجمة بهجت رشيد غالب، مجلة المجتمع الكويتية، الحلقة الخامسة والسادسة، العدد ٥٣٤ و ٥٣٥ بتاريخ ٧ و ٣٠ يونيو ١٩٨١م.

(٢) يقول فتحي أوقيار في مذكراته: (إن «الاتحاد والترقي» جمعية أسَّسها عام ١٨٩٠م خمسة من طلاب المدرسة الطبية العسكرية بإستانبول، ثم كوِّنت فيما بعد خلايا لها في داخل الدولة العثمانية وفي خارجها. وكانت هذه الجمعية هي الدافع الأول والأقوى للحركة المشروطية [الديمقراطية] في البلاد العثمانية). فتحي أوقيار رجل في ثلاثة عهود، إستانبول ١٩٨٠م، ص ٣/٤. سيُذكر هذا المصدر فيما بعد باسم فتحي أوقيار، إذ إن هذا الكتاب هو مذكرات فتحي أوقيار حارس السلطان عبد الحميد في المنفى في سلانيك. ثم أصبح من رجال عهد أتاتورك البارزين.

يشتغل بها؟ هـذا ما لم يكن واضحاً. فقد كـان يشتغل بسيـاسات مختلطة. لكنهم قالوا: إنمـا كانت لـه ميزة واحـدة: أنه كـان متميِّزاً بين رفـاقه بحـرصه الشديد على رفضه أية مأمورية يُكلَّف بها صغيرة كانت أم كبيرة.

لن أتحدث هنا عن شخص الدكتور ناظم بك، ذلك الرجل الذي وجـد في نفسـه الصلاحيـة لتجـريـد اسمي حتى من اللقب الـذي حملتـه عن إرث وجدارة، وإنما سأتحدث عن هذا السبِّ المبتذل الذي وجَّهه إليَّ وهـو جالس في إحدى القمرات الجانبية في باخرة «قاضي كويْ».

هل أشعل عبد الحميد حريقاً أم لم يشعل؟ وهل كانت المواد المساعدة على الاشتعال موجودة أم لم تكن موجودة عبر فترة تشتّتٍ بلغت الثلاثمائة عـام السابقة على عهد عبد الحميد؟!

ليس هنا مكان مناقشة هـذا، لأنه تـاريـخ، والدكتـور ناظم بـك ورفاقـه سيدخلون التاريخ ذات يوم.

أقْصوني عن الحكم
فلم يعملوا حتى عُشر ما عَمِلتُه

لقد سلَّمتُ الحكومة في تموز ١٣٣٤ روميـة [١٩٠٨ ميلاديـة = ١٣٢٦ هجـرية] إلى هؤلاء المجـاهديـن[١]!!! وفي نيسـان من السنـة التـاليـة سُلِّمت السلطنة إلى صاحب الشوكة والجلالة أخي.

كـانت حدودنـا [العثمانيـة] في عهدي ممتـدة من أشقودرة إلى خليـج

---

(١) يتهكَّم السلطان عبد الحميد هنا على الثائرين ضده بلفظة مجاهدين. والتاريخان هنا الأول: حركة «الاتحـاد والترقي» ضـده عام ١٩٠٨م وإعـلان المشروطيـة. والثاني: تاريخ إسقاطه عن العرش عام ١٩٠٩م. [توضيح م. ح.].

البصرة، ومن البحر الأسود إلى صحارى إفريقيا. وإذا عقدنا مقارنة بين [تقويم] المانـاق دوغوطه الصادر عام ١٩٠٨م والعدد الصادر هذا العام، فسيتّضح لخلفائي أنني لم أخلّف حريقاً، وإنما تركت منطقة هائلة تضم أكثر من ثلاثين مليون نسمة، كما تركت جيشاً . . .

مضى على هذا [منذ تدخلهم في الحكم] عشر سنوات. فهل استطاعوا عمل ثلث ما عملته أثناء مدة سلطنتي؟! دعنا من الثلث فالثلث كثير، فلنقل: العشر. فهل استطاعوه؟!!

الديون في عهدي هبطت
من ٣٠٠ مليون إلى ٣٠ مليون ليرة

عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب من ثلاثمائة مليون ليرة، وُفِّقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة، أي إلى العشر، وذلك بعد دفع ما تطلَّبْته حربان كبيرتان وسحق بعض تمردات داخلية. أما ناظم بك ورفاقه فقد رفعوا هذا الرقم [بعد تولِّي «الاتحاد والترقّي» الحكم بعدي] من ثلاثين مليون ليرة حيث كان حينما تركت الحكم، إلى أربعمائة مليون ليرة، يعني إلى ثلاثة عشر أمثاله!!

يعني أن خلفائي ــ ولا أقصد هنا أخي [السلطان رشاد] لأنه لا يملك من أمر السلطنة شيئاً، ولذلك أقول خلفائي [أعضاء جمعية «الاتحاد والترقّي»] ــ أظهروا فعالية ونجاحاً عظيمين في زيادة ديوننا.

ترى كيف كانت الظروف والأحوال أول اعتلائي العرش العثماني؟! أحاول أن أتذكر: تمرُّد في البوسنه والهرسك وهزيمة الجيش [العثماني]، وفرض الحصار عليه في [منطقة] الجبل الأسود، والصرب تعلن الحرب [على الدولة العثمانية] بقوات منظمة وخطرة. ومن هذه المبادرة انفجرت الحرب

الروسية الفظيعة(١).

(١) حدث تمرد في منطقة البوسنه والهرسك [في يوغسلافيا] ضد الدولة العثمانية الحاكمة هناك، وظهر أيضاً في تلك الفترة تمرد ضد الدولة أيضاً في كل من الصرب والجبل الأسود. وكان الوضع العثماني في كريت أيضاً قلقاً للدرجة التي أرسل خديو مصر إسماعيل بعض قواته لمساعدة الدولة في تلك الأثناء. وعندما انتصر القائد العثماني عثمان باشا على القائد الروسي الجنرال جارنابيف الذي كان يقود قوات الصرب في معركة ألكسيناج، واستعدَّ العثمانيون لدخول بلغراد، وجُهت روسيا إنذاراً للدولة العثمانية، فتوجَّست دول أوروبا خيفة من النفوذ الروسي، فعقدت في ١٨٧٦/١٢/٢٣م مؤتمراً بحي الترسانة في إستانبول، اشتركت فيه مع الدولة العثمانية كل من إنجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا ـ المجر وإيطاليا. وكان ممثل إنجلترا هو اللورد ماركي (سالسبوري) المعروف بعدائه لروسيا. فظن سالسبوري أن الدولة العثمانية لا بدّ وأنها ستنهزم في الحرب ضد روسيا إذا ما وقف العثمانيون وحدهم. كما أدرك أنه ليس في وسع بلاده إنجلترا تأييد الدولة العثمانية ضد روسيا، ذلك لأن إنجلترا قد سحبت تأييدها للدولة العثمانية منذ أن مات عالي باشا ـ رجل إنجلترا ـ عام ١٨٧١م. لذا أوصى سالسبوري العثمانيين بالتضحية قليلاً لإيقاف هذه الحرب.
قام سالسبوري بمقابلة السلطان عبد الحميد وأوضح له الموقف في الوقت الذي كان السلطان عبد الحميد مدركاً تماماً لعدم قدرة الدولة العثمانية لدخول حرب ضد روسيا. إلاّ أن رجال الدولة العثمانية وعلى رأسهم مدحت باشا أجبروا السلطان على إعلان الحرب، وهي حرب بدأت في ٢٤ أبريل ١٨٧٧م ووصلت القوات الروسية حتى حي آيا اسطفانوس وكان هذا الحي ضاحية لإستانبول العاصمة. وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة آيا اسطفانوس في إستانبول في ١٩ فبراير ١٨٧٨م.
كانت هذه المعاهدة مكوَّنة من ٢٩ مادة، أخطر ما فيها هي المادة السادسة وهي الخاصة بتكوين إمارة بلغاريا ونصَّت هذه المادة على أن تكون هذه الإمارة متمتعة بالحكم الذاتي داخل إطار الدولة العثمانية ويكون الموظفون الرسميون كلهم من النصارى. وقد بالغت هذه المادة في تضخيم مساحة هذه الإمارة وحرصت أن يكون لها منفذاً على بحر إيجة. وكانت مساحة إمارة بلغاريا المحدَّدة في هذه المعاهدة =

كل هذه الوقائع والأحداث الداخلية والخارجية ليست بالطبع من نتاج عهد سلطنتي، إذ كنت تولّيت السلطنة عقب خلع سلطانَيْن متعاقبين [هما عبد العزيز ومراد] وعقب أزمة وزارية دامت ٩٣ يوماً. وفراغ في السلطنة.

الأمة اختارت مدحت باشا فاختار الحرب، فَلِمَ إدانتي؟

ولمّا كانت الأمة تزعم أنها وصلت إلى رشدها، فقد عَيَّنْتُ على الفور مدحت باشا في منصب الصدارة العظمى لأنه كان محل ثقة العموم، وبالتالي أكون قد تركت للأمة المسائل التي اقترحتها روسيا أو بمعنى آخر: قبول الدخول في حرب ضد روسيا أو رفض هذه الحرب.

= تشمل بلغاريا الحالية ومقدونيا وتراقيا الغربية [في اليونان الآن]، بل وشملت أيضاً منطقة قِرْقْلَرْ ايلي وهي إحدى محافظات تركيا حالياً. ونصّت المادة الثانية من هذه المعاهدة على استقلال الجبل الأسود عن الدولة العثمانية. ونصّت المادة الثالثة منها على استقلال الصرب مع ضم نيس إليها. ونصّت المادة الخامسة على استقلال رومانيا مع منحها دوبريجة. ونصّ البند الثاني من المادة التاسعة عشر من هذه المعاهدة على احتلال روسيا لكل من أردهان وقارص وباطوم وبايزيد حتى جبل صوغانلي في تركيا الحالية.

ولمّا عُرضت معاهدة آيا اسطفانوس بشكلها هذا على السلطان عبد الحميد للتوقيع رفضها ولم يعترف بها. وأبلغ الدوق نيقولا بأنه لن يوقع على هذه المعاهدة مهما كانت الضغوط عليه شخصياً أو على الدولة، ومهما كانت الظروف والنتائج، وقام السلطان عبد الحميد بعد مضيّ أربعة أشهر وأحد عشر يوماً على هذه المعاهدة بإلغائها واستطاع أن يستبدلها بمعاهدة برلين التي كانت أحفظ من سابقتها على كرامة الدولة العثمانية.

انظر ترجمة هذه المعاهدة في: محمد فريد، تاريخ الدولة العليّة العثمانية. القاهرة ١٩١٣م، ص ٣٧٠ ــ ٣٨٠، ولمزيد من التفاصيل انظر: يلماز أوزطونة، تاريخ تركيا الكبير، إستانبول ١٩٧٨م، ج ٧ ص ١٦١ ــ ١٦٢.

ترأس مدحت باشا المجلس العمومي [الطارىء[1]] الذي تشكل لبحث المسألة المشار إليها ومناقشتها [وهي الحرب]. وكان مدحت باشا محل ثقة كبيرة وحب بالغ من الشعب. وعلى هذا أكون غير مسؤول عن حرب ٩٣ [رومية] [١٨٧٧م = ١٢٩٤هـ[2]]. فلا هي مسؤوليتي الشخصية، ولا هي مسؤوليتي كسلطان.

وعندما نتحدث عن الحرب أقول: إن القادة الذين عيَّنتُهم في ذلك

---

(١) تشكل هذا المجلس العمومي الطارىء في ١٨ يناير ١٨٧٧م [١٢٩٤هـ] في الباب العالي بإستانبول وتكوَّن من ٢٤٠ شخصاً منهم ٦٠ نصرانياً. . قام مدحت باشا بإلقاء خطبة حماسية وشجَّع فيها أعضاء المجلس على دخول الحرب ضد روسيا. كما أوعز مدحت باشا إلى طلبة المدارس العليا بالقيام بمظاهرات تطالب بالحرب. وبلغ الأمر أن جاءت هذه المظاهرات حتى القصر السلطاني والطلبة ينادون بالحرب. ولكي يدفع مدحت باشا إلى السلطان بالقلق والتوتر، أوعز الباشا إلى الصحافة العثمانية بالمناداة بالحرب وإثارة الأمة لتقبُّلها. كما أشاع مدحت باشا أن السلطان مراد المعزول لجنونه يتماثل للشفاء، وأصبح يمكنه أن يتولى العرش بدلاً من السلطان عبد الحميد، ولم يكتف مدحت باشا بهذا، بل أشاع أن السلطان عبد الحميد محبّ للروس ولذلك يعارض الحرب ضدهم.
يلماز أوزطونة، المرجع السابق ج ٧ ص ١٣٨.

(٢) عن حرب ٩٣ (من التقويم الرومي) وخطورتها على الدولة العثمانية في ذلك الوقت أرسل لورد سالسبوري خطاباً إلى مدحت باشا ينبِّهه فيه إلى أن دخول الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا لا بدّ وأن يكون نكبة للدولة العثمانية، ولم يكن مدحت باشا حتى بعد بدء هذه الحرب العثمانية الروسية يشك لحظة في أن إنجلترا ستتخلى عنه وأنها لا بدّ واقفة بجانب الدولة العثمانية ضد روسيا كما حدث هذا في حرب القرم من قبل عندما دخلت كل من إنجلترا وفرنسا الحرب ضد روسيا لمصلحة الدولة العثمانية في عهد صدارة رشيد باشا. والنتيجة أن الدولة العثمانية وقفت وحيدة أمام الخطر الروسي.
يلماز أوزطونة، المرجع السابق، ج ٧ ص ١٣٨.

الوقت كانوا من القادة النادرين. ليس في تلك الفترة فقط من تاريخ الدولة وإنما أيضاً في الفترات السابقة واللاحقة لها.

وإنه لمما يخدش إنصاف التاريخ وعدالته أن تُلقى عليَّ وعلى عهدي مسؤولية فشل هذه الحرب وأسبابها: كانعدام وسائل المواصلات وارتفاع لهيب حركات العصيان التي امتدت داخل الأقليات غير المسلمة في الروملي [البلقان] حتى وصلت إلى داخل ولاية أدِرْنَهْ [العثمانية].

أنفقت من مالي الخاص على منكوبي الحرب الروسية

سارعت لنجدة ضحايا هذه الكوارث التي جرَّتها تلك الحرب. لقد بذلتُ كل ما في وسعي لإيجاد المأوى وسبل الإعاشة ووسائل التخفيف عن هؤلاء المهاجرين إخوتنا في الدين(١). قدمت من جيبي الخاص تقرّباً وزلفى إلى الله، لعباده الذين جعلهم أمانة في عنقي، نفقات الجوامع الشريفة في كثير من هذه القرى [حيث كان يفيد منها المهاجرون].

لم يفارق ذهني ــ ليس في أيامٍ ضيقة كأيامي هذه، وإنما في أكثر أيامي سعةً ورخاءً ــ منظر امتداد أيدي الجائعين من أفراد الشعب إلى لُقَيْمات تدخل معدتهم، لكي تشبع بطون بضعة أشخاص يُعَدُّون على الأصابع حتى التخمة تحت شعار التجارة الوطنية.

كانت نفقات عباد الله، ووقودهم، وأدويتهم، لا تفارق تفكيري أبداً،

(١) يقدر محمد فريد بك عدد هؤلاء المهاجرون بنحو ١٥٠,٠٠٠ نسمة، في الوقت الذي كان عدد سكان الدولة العثمانية ٦٤ مليون نسمة وعدد سكان العالم مليار و ٣٢٦ مليون نسمة. لإحصاء هذا أيضاً، انظر: أوزطونة، المرجع السابق، ج ٧ ص ٣١٩.

وأنا لا أذكر هذه الأمور في معرض الدفاع عن نفسي، لأن الذين حلُّوا محلي دافعوا عني كثيراً، بما فعلوه، حتى إني كنت أشكرهم كثيراً على هذا، لو لم يظهر شبح النكسة التي أنزلوها بديني وبدولتي.

لا أجد من حقي أن أفخر بالخدمات المتواضعة التي عددتها، لأنها كانت واجبي، واليوم أنظر في ندم وفي أسى، وإذا عشت فسأعترف بقلمي وبالتفصيل بأنه كانت لي عدَّة جوانب تقصير.

هيا إلى ذلك الوطني الغيور!! الدكتور ناظم بك، ولأعلن أنه على حق!! وأني معه، و:

ـــ هذا الحريق سبَّبه لنا عبد الحميد!!

لو كان هذا الطبيب محباً للحق، إنساناً رجلاً، فيجب ألَّا ينكر أنهم [رجال جمعية «الاتحاد والترقّي»] سكبوا بترولاً على ما خاله الدكتور حريقاً، بدلاً أن يطفئوه بالماء.

يبدو أن كِبَر سني، يمنعني من الكتابة أكثر من هذا، تعبتُ. وعندي حديث أيضاً عن مدحت باشا. فإذا وجدت وقتاً، وشاء الله، فإني سأكتب غداً عن هذا.

٤ مارت ١٣٣٣ [رومية]

كان مدحت باشا ـــ حسبما أذكر ـــ آخر وزير في عهد ساكن الجنان والدي [السلطان عبد المجيد الأول] وإذا لم يكن آخرهم فإنه من أواخرهم.

اكتسب مدحت باشا تقديرنا جميعاً بحسن إدارته وتعميره لولاية الطونة [الدانوب]. وذلك عند عودتنا من أوروبا، وكنا في معيَّة المرحوم عمي [السلطان عبد العزيز]. وكان عمِّي قد رأى حركة التعمير في أوروبا وأعجب

بها، فبمجرد دخولنا الطونة في طريق عودتنا، ذكر عمي، مدحت باشا بالخير، ودعا له.

مدحت باشا: والٍ جيِّد وسياسيّ فاشل

كان الغرض من تعيين الباشا في شورى الدولة مقصوداً به فتح طريق الصدارة أمامه. لكن مدحت باشا لم يستطع أن يستمر كثيراً في شورى الدولة، أو بمعنى آخر في إستانبول، لأن السلطان عبد العزيز لم يكن يحب إزعاج عالي باشا، ولا سيما أن إحساسه وشعوره تجاهه قد زاد بعد عودته من أوروبا، وكان المغفور له عمي حاكماً وقوراً، وأظن أن لنابليون الثالث شيئاً من التأثير على عمي في التزامه بمساندة عالي باشا بهذا الشكل، ولكن المرحوم عمي لم يكن يُشعر أحداً أنه واقع تحت مثل هذا التأثير.

حضر عالي باشا ذات يوم عند السلطان عبد العزيز، وحدَّثه عن الأهمية الكبيرة التي تحوزها ولاية بغداد، وعن تزايد النفوذ الشيعي فيها. ونَقَلَ له أخباراً متواترة عن زيارة سيقوم بها شاه العجم للعتبات[1]. ثم حدَّثه عن عدم ثقته في إدارة تقي الدين باشا للولاية، وأخيراً عرض عليه أن تُسند إليه [شخصياً] هذه الولاية.

كان عالي باشا واثقاً من أن السلطان لن يُبعده عن إستانبول. وحدث ما توقعه بالفعل، على هذا قال له: (لا أجد إذن والياً مناسباً من بين كبار موظفي الباب العالي). وهكذا أصبح مدحت باشا والياً لبغداد.

كانت حدود ولاية بغداد في ذلك الوقت واسعة جداً، وأظن أن

---

(١) ترد هذه الكلمة في بعض المصادر باسم العتبات المقدسة. وفي بعضها باسم العتبات العليَّة. وتؤدي معنى مدفَنَيْ كل من الحسن والحسين رضي الله عنهما. [توضيح م. ح.].

مدحت باشا ظلَّ والياً عليها أكثر من ثلاث سنوات. كنا سمعنا عن التوفيق الذي أحرزه في تعميرها وتنظيمها، سمعنا في البداية عن عدم رغبته الذهاب إلى بغداد، ولكنه كان آسفاً أشد الأسف عند تركه لها.

إن خلع مدحت باشا من بغداد [فيما بعد] وتعيين الصدر الأعظم محمود نديم باشا مكانه، كان خطأً من عالي باشا، فإن رجلاً يجتنب حتى عالي باشا منافسته لا بد وأن يكون خصماً خطراً على محمود نديم باشا. وفعلاً هذا ما حدث، فقد مرَّ مدحت باشا قبل سفره إلى ولاية أَدِرْنَـهْ التي عُيِّن عليها، مرَّ بإستانبول، حيث وجد طريقاً استطاع بواسطته المثول بين يدي السلطان، وكانت نتيجة هذا المثول سقوط نديم باشا من منصب الصدارة العظمى وإحلال مدحت باشا محله.

مدحت باشا هذا كان والياً جيداً، ولكن إدارته السياسية كانت خطأً، كان كثير الاختلاط بهؤلاء الذين كان السلطان والوزراء يرتابون فيهم. وكانت الإشاعات والأراجيف ــ التي تشكك ليس في سلطان شرقي فحسب بل وفي أكثر حكام الشرق دستورية ــ تخرج من فم الصدر الأعظم مدحت باشا ومن قصره.

عمّي السلطان عبد العزيز
يكرم عوني باشا فيتمرد عليه

تولَّدت فكرة خلع السلطان عبد العزيز أول ما تولدت في نفس حسين عوني باشا. وسبب هذا أن السلطان كان قد أبعده إلى إسبرطه. كان المرحوم عمي وقوراً، وكان كريم الظن بكل إنسان، فقد عفا عن رجل حقود مثل عوني باشا بعد فترة قليلة، وعيَّنه «سَرْ عَسْكَراً» [= وزيراً للحربية]. وهكذا ذهب عمي ضحية هذا الخطأ.

باشتراك مدحت باشا في عملية الخلع، انتقل بذلك من مصافّ رجال

الحكم إلى عِـدَاد الثوار، ولا يستـطيـع أيٌّ حـاكم أن يثق في رجـل اشترك في عمليـة خلـع حـاكم، حتى ولـو كـان الحـاكم الجـديـد خصمَ حيـاةٍ للحـاكم القديم. ولم يُعرف قط ثائر استطاع أن يحقق في البناء ما حققه في الهدم!

لم يكن مدحت باشا هو الصدر الأعظم وقت توليتي العرش. عينتُه فوراً في الصدارة العظمى لأنه كان محـل ثقة واحتـرام الرأي العـام، ولأن الموقف كان يحمل في طياته حساسية وخطراً غير عادي.

مدحت باشا مستبدّ، لكنه ينادي بالديمقراطية

وإني واثق أن لو كان مدحت باشا صدراً أعـظم حكيماً ومحنكـاً لكان على الأقل قد استمر في الصدارة حتى ختام الحرب الروسية [- العثمانية عام ١٨٧٧م]. وجدته ينصب من نفسه ومنذ اليـوم الأول آمراً عليّ ووصيّـاً، وكان في معاملته معي بعيداً عن المشروطية، وأقرب إلى الاستبداد.

والذين يعرفون مدحت بـاشا عن قـرب لا يكتمون عِـظَم استبداده بـرأيه ومواقفه. هذا هورامز مولى وهو من أعز أصدقاء مدحت باشا منذ أن كان والياً على الطونة، والذي أفنى عمره منفيّاً خارج إستانبول بسبب حبه لمدحت بـاشا عنـدما كـان رئيساً أولَ لمحكمـة التمييز. وقـال أثناء بحثـه إحـدى المسـائـل المعـروضة على مجلس إدارة ولايـة بيروت، أثنـاء ما كـان نـائبـاً عن بيـروت المركز: (إن هذا شيء فكَّر فيه ــ أساساً ــ مدحت بـاشا أثنـاء ولايته للطونـة. البـاشا كـان يـريـد الحـريـة لنفسـه فقط، وخـلاف هـذا كـان البـاشـا مستبـدَّ المستبدين). وأثَّر هذا الكلام تأثيراً سيئاً في أحد الـوالهين بمدحت بـاشا دون أن يَرَوْه. ولم يتمكن من مَسْك زمام نفسه، فـظهر عليـه الغضب. لاحظ رامز مولى، هذا، فنادى ــ بعد انفضاض المجلس ــ على هذا الشخص، وقال له وهو ممسك بلحيته الطويلة البيضاء:

(انظر يا بُنَيّ، ليست متاعب الزمن وحدها هي التي شَيَّبَتْ هذه اللحية،

وإنما تعاونَتْ معها محنُ الغربة التي قاسيتُها بسبب مدحت باشا. هـذا الكلام الذي أزعجك الآن، قلته مرات عديدة في مواجهة الباشا. أنا رجل لا أتحدث من أجل هذا أو ذاك، وإنما رجل يُتبـع للحقيقة كلامه).

قصَّ عليَّ هذا ــ ذات يوم ــ شخص من أهالي هذه المنطقة، بعد وفاة رامز مولى.

الثوار الأحرار بقيادة مدحت باشا يدمنون الخمر

أصدرتُ المرسوم السلطاني الخاص بالقانون الأساسي [الدستور] أثناء صدارة مدحت باشا الثانية. ومن المعروف أن أحرار!! ذلك العهد من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة، بل في أمور السكر والعربدة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه[1] ومشهور عنه هذا.

والتقت نشوة الخمر بالنشوة التي بعثها إعلان القانون الأساسي. وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتى لا يقع على الأرض. وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه في فمه [بتأثير الخمر]:

---

(١) عن إدمان مدحت باشا الخمر يقول يلماز أوزطونة: (كان مدحت باشا معروفاً بمجالس شرب الخمر الدائمة ليلاً في قصره، وكان يحضرها الشاعران: نامق كمال وضيا باشا. وفي هذه المجالس كان مدحت باشا يفشي أدقّ أسرار الدولة. وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التالي بين أهالي إستانبول. وفي إحدى الليالي تحدَّث مدحت باشا عن عزمه على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية وأنه سيصبح رئيساً للجمهورية العثمانية الجديدة ثم إمبراطوراً لها. تماماً مثلما حدث مع نابليون الثالث في فرنسا).
يلماز أوزطونة، المرجع السابق ص ١٣٩.

ـ يا باشا! من يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلتُ إليه أن يبعدني عن منصبي؟! من؟! قل لي: كم عاماً سأظل في الصدارة العظمى؟!

رد عليه طوسون باشا قائلاً:

ـ إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع!

قال له طوسون باشا هذا الكلام وهو يدفعه دفعاً إلى جناح الحريم. وقد أُبْلِغْتُ بهذا في نفس ليلة حدوثه.

أنا لا أغض من قيمة مدحت باشا، فلقد كان والياً فعالاً، ومستقيماً. لكن بقدر ما كانت مزاياه، كانت له عيوب. لم يكن يدرك بنفس إدراك صفوت باشا وأدهم باشا فيما يوجبه الوقت من أمور سياسية.

عندما كان [مدحت باشا] والياً على الطونة، كان يشجع على تدريس اللغة البلغارية في المدارس البلغارية ويلتزم بهذا. . نبَّهُوه إلى العواقب الوخيمة التي تؤدي إليها هذه السياسة فقال لهم: (ليدرسوا بأي لغة! المهم أن يدرسوا!!).

ومعروف أنه أصر على قراره لأن لقراره هذا لمعة [دعائية له] ظاهرة.

إني بريء من دم مدحت باشا

كانت مسألة استشهاد السلطان عبد العزيز في يد القضاء خطوة بخطوة، ولم أتدخَّل في شيء سوى تخفيف قرار الحكم بالإعدام، وإذا كان موته غير طبيعي، فليس لي دخل فيه.

بعد وفاته بعشر سنوات تقريباً، نُشرت في أوروبا رسالة باللغة التركية وردت فيها مجموعة من التفصيلات والأسماء المشتركة في قتله. وإذا كان ما ورد في هذه الرسالة صحيحاً، فيتضح منها أن ليس بين المشتركين في الحادثة من ينتمون لي، وأن ليس لي علاقة بها.

في الحقيقة إني كنت دائم التخوُّف من مدحت باشا، ولكن وقت صدور حكم المحكمة رأيتُ أن إنساناً معروفاً بهذا القدر يستوجب ألاَّ يُنفَّذ فيه حكمُ الإعدام. ثم ما الفائدة فيما لو قتلتُه؟! بكل تأكيد إنني لن أفيد شيئاً إذا وضعت عدوِّي في مصافّ الشهداء.

الفرق بيني وبين بعض الحكام الآخرين في التاريخ

سأفترض أن هذه الفرية الموجَّهة ضدي صحيحة. وأقبلها على علاّتها. وسأسأل هذا السؤال: كم من خليفة محا من الوجود، في لحظة واحدة وفوراً، كلَّ من تخوَّف منه أو وجده يعمل ضده!

ألم يدفع الخليفة العباس وهو واحد من أعظم الخلفاء في التاريخ الإسلامي بأبي مسلم الخراساني إلى قتل المنصور؟ وهارون الرشيد لم يكتف بإعدام جعفر البرمكي الذي أحبَّه حباً جماً فظلم أقاربه. أليس هذا كله أخف قسوة من تصرفي تجاه مدحت باشا؟ ولا سيما أني اكتفيت باتخاذ التدابير الاحتياطية ضد اعتداء يمكن أن يقوم به مدحت باشا الذي إذا وجد فرصةً لَمَا تردَّد في القيام بها كما أتوقَّع. وأنا لم أمسّ رجاله بسوء، بل كنت أدفع لأسرته معاش تقاعد. ودفعت برجاله الذين علَّمهم وأعدَّهم هو مثل عبد الرحمن باشا وخليل رفعت باشا إلى مقام الصدارة ووظَّفتُ رجاله مثل المشير شاكر باشا ورائف باشا في المواقع الهامة. وإعدام السلطان محمد الفاتح لصدر أعظم محترم مثل خليل باشا أحرز النصر للعثمانيين في موقعة وارنا، ولم يكن هذا الإعدام مستوحى من قصة خطاب أظهر الرجل بمظهر الخيانة لأنه يظهره وكأنه يدفع الروم إلى المقاومة. وهل يمكن الادعاء بأن السلطان مراد الثالث لم يكن له دور في استشهاد صقوللو محمد باشا؟ وهل ظهر من جدّي [محمود الثاني] أي خير تجاه علمدار مصطفى باشا؟ لا داعي

للذهاب بعيداً إلى هذا الحد. قرأتُ في «تقويم الوقائع» قبل أربع سنوات أن الحكومة كانت تعرف مقدَّماً أن محمود شوكت باشا سيُقتل وكانت تعرف زمان ومكان الحادث. صدر أعظم ووزير حربية كبير بهذا الشكل يُقتل في وضح النهار ويُمزَّق إرَباً إرَباً هو وياوره ويُطلَق عليهما سبعة عشرة رصاصة بهذا الشكل العلني، ومع ذلك فإن رجلاً واحداً من رجال الشرطة والحرس لم يظهر، بل ولم يُعثر له على أثر في مكان الحادث، ولو لم يكن أحد الجناة أعرج عجز عن الفرار بالعربة، فربما كان المذنبون اختفوا، مثلهم في ذلك مثل رجال الشرطة.

إصراري هكذا في مسألة مدحت باشا كان بسبب تأثري ونفوري جداً من ذلك العناد العام الذي يعمل على أن يبدو هذا الاسم [مدحت باشا] في صورة بقعة ملصقة بحياتي.

يقولون: إن مدحت باشا هو واضع القانون الأساسي [الدستور] في الدولة. الحقيقة أنه كان مؤيِّداً قديماً للمشروطية، لكنَّ تحيزاً ظهر من كثرة ترديد اسمه وذكره في بعض الكتب.

مدحت باشا لم يفهم من الديمقراطية إلَّا معنى تقليد الغرب

مدحت باشا لم يرَ غير فوائد الحكم المشروطي [الديمقراطي] في أوروبا، ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى، أقراص (السلفات) لا تصلح لكل مرض كما لا تصلح لكل بنية، وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بنية قومية. كنت أظن أن المشروطية غير مفيدة، أما الآن فإني مقتنع بضررها.

لم يكن مدحت باشا قد درس أيَّ قانون أساسي في أي دولة من الدول عندما اقترح عليَّ إعلان القانون الأساسي، ولم يكن له في هذا الموضوع

فكـر متأصِّـل. كان أوديـان أفندي هـو أستاذ مـدحت باشـا الفكري. وأوديـان أفندي [الأرمني] هذا لم يكن في ذلك الوقت أفضل المشرِّعين، ولا سيمـا أنه لم يكن يعـرف البلاد. وأرى أنَّ عـدم معرفـة أوديان أفنـدي بالبـلاد هو الـذي أودى بمدحت باشا إلى قلعة الطائف.

في عام ٩٣ [رومية] = ١٨٧٧ ميـلادية = ١٢٩٤ هجـرية، أعـدَّ كل من ضيا باشا وكمال بك وعابدين باشا لائحة للقانون الأسـاسي، كما أعـدَّ كل من كـاتب سـرِّي [سكـرتيـري] سعيـد بـاشـا لائحـة أخـرى، كمـا أعـد المشيـر سليمان باشا ناظر المدارس الحربية لائحة بدوره. وقدم الجميـع لي ما أعدوه من لـوائـح. وأذكـر أنـه لـم يكن بين هؤلاء السـادة تـوافق أفكـار قط. كـان كمال بك معارضاً لمدحت باشا ومعارضـاً مـع أصدقـائه لسعيـد باشـا في هذا الخصـوص. قدمـوا لي ما يقـرب من عشرين عـريضة، وهي محفـوظة ضمن الأوراق التي نُقلت من قصر يلديز إلى وزارة الحـربية. إن الأمـل يحدوني في ألَّا تكون هذه الأوراق قد نُهبت فهي لا تزيد عن كونها أوراقاً تاريخية.

لم أكن الوحيد
المعارض للدستور

المعـارضـون للقـانـون الأسـاسي من طبقـة الخـواص كـانـوا أكثـر من المؤيـدين. كان أدهم بـاشا وكثيـر من الوزراء الآخـرين وأصحاب النفـوذ من رجال الدولة، ضد إعطاء حريـة كاملة لشعب من الشعـوب دون تأنٍّ وإعـداد، حتى إن وزيراً جريئاً مثل خير الدين باشا التونسي قال لي ذات مرة عندمـا كان في الصدارة العظمى: (ينبغي التفكير كثيراً قبل تسليـح الأجلاف بـالقانـون). وهذه العبارة هي نص ما قاله خير الدين باشا.

فضّلتُ دستور مدحت باشا
لأن الأمـة كـانت تريـده

لم أكن أستطيـع الوقوف أمام تيار ذلك العهد، وقلت: (ما دامت الأمـة تريد تجربة مسؤوليتهـا عن مقدراتهـا وحكم نفسها، فليكن مـا تريـده الأمة). واخترت من بين لوائـح القوانين الأساسية لائحة مدحت باشا، وصدّقتُ عليها بعـد أن أدخلت عليهـا تعـديـلات جـزئية، وأصـدرت المـرسـوم السلطاني المعروف[1].

كنت مجبَـراً في البدايـة على تفضيل لائحـة مدحت بـاشا على لـوائـح الآخـرين، فقد كـان من الضروري أن نقـدم لشعب مريض أفصـح بـأن اسم «مدحت» يساوي بحساب الجمل «دواء الأمة» أن نقدم له الدواء الـذي طلبه، ولـم أكن أستطيـع إسكاته بصورة أخرى.

أعـد مدحت بـاشا العـدة لحرب روسيـا، ورغم أن مجلس الأمـة كـان شـاهداً متـابعاً لتيـار الحـرب، فقـد أرادوا أن يحملوني كـل الكـوارث وسـوء المطالـع الذي نتـج عن هـذه الحرب، وأن يحصـروها في نـطاقي. وما زالت هذه الاعتراضات والتعرُّضات تتكرر هنا وهناك.

أُقـرّ بجبهـة عـاليـة، وأثبت بـالـوثـائق، أن الشعب وقَّـع على معـاهـدة

---

(١) يقـول شيـخ الإسلام جمـال الدين أفنـدي في مذكّـراته عن هـذا مـا يلي: (قـال لي الخـاقان [يقصـد السلطان عبد الحميـد]: لقد أعلنت بنفسي القـانون الأسـاسي عند ارتقائي العرش، أعلنتـه رغم اعتراض البعض على هـذا، وكانت حجّتهم بـأن الأمة ليست على استعداد للمشروطية).

شيـخ الإسلام جمال الدين أفندي، مذكراتي السياسية ١٩٠٨ ــ ١٩١٣م، ص ٣٤، الطبعة التركية بالأحرف اللاتينية، إستانبول ١٩٧٨م.

أياسطفانوس، أما أنا فقد حقَّقت مقررات مؤتمر برلين[1].

وإني لم أبعد عن فكري منذ جلوسي على العرش إلى يوم تَركي له أن الحرب آلة تضرّ بالأمة. فكم من العتاب وُجِّه إليَّ من قريب ومن بعيد لأنني أوجدت حلّاً لمسألة فيلبه دون حرب. ومع ذلك فعند موافقتي على الحرب ضد اليونان[2]، فكَّرت كثيراً في أن المعارضين لي قلبوا الأمور وزوَّروها،

---

(١) معاهدة برلين: عُقدت في ١٣ يوليو ١٨٧٨م. واشتركت فيها كل من الدولة العثمانية وروسيا بالإضافة إلى إنجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا ــ المجر وإيطاليا. وجاءت هذه المعاهدة نتيجة إصرار السلطان عبد الحميد على رفضه التوقيع على معاهدة أيا اسطفانوس التي رأى فيها إذلالاً للدولة العثمانية، وحرص السلطان على أن يحرِّض إنجلترا للوقوف في صف الدولة العثمانية. وقد أدَّت هذه المعاهدة [برلين] إلى إطالة الوجود العثماني في أوروبا خمساً وثلاثين سنة أخرى ابتداءً من عام ١٨٧٨م تاريخ توقيعها حتى عام ١٩١٣م. وكانت معاهدة برلين في أربع وستين مادة، وهي في عمومها في صالح الدولة العثمانية وضد أطماع روسيا. وقد شجبت هذه المعاهدة الحدود المبالغ فيها لإمارة بلغاريا في معاهدة أيا اسطفانوس بحيث جعلت هذه الحدود لا تتجاوز جبال البلقان. ونصَّت المادة الستون فيها على استعادة الدولة العثمانية لمدينة بايزيد وخفَّضت تعويضات الحرب من مليار روبل إلى ٣١٠ ملايين روبل.

انظر: يلماز أوزطونة، المرجع السابق نفس الصفحة؛ ومحمد فريد، المرجع السابق ص ٣٩٠.

(٢) الحرب العثمانية اليونانية (١٨ أبريل ــ ٢٠ مايو ١٨٩٧م = ١٣١٥هـ): أخذت اليونان بعد معاهدة برلين تطمع في كل من ولاية يانيا وولاية كريت. وكان ثلثا السكان في هذه المناطق من الأورام وثلث الباقي من المسلمين الأتراك. وكانت العصابات المسلَّحة المحلية ــ بتأييد من اليونان ــ تقوم بالاعتداء على الأهالي المسلمين. وفي شتاء ١٨٩٦ ــ ١٨٩٧م اشتدَّت اعتداءات العصابات المحلية ضد المسلمين، ثم أخذت القوات النظامية اليونانية تعتدي على حدود الدولة العثمانية. ولم يتحرَّك الباب العالي ضد هذه الاعتداءات خوفاً من تدخُّل الدول الكبرى. ولما

. . . .

= عُـرض الأمر على السلطان عبـد الحميد لإبـداء الرأي، اتَّخـذ قراراً بـالحـرب ضـد اليونان، ولمّا كان ذلك بعد اجتمـاع طارىء عقـده في قصر يلديـز ودام ٥٦ ساعـة، قـامت السلطات العثمانيـة بطرد كـل اليـونـانيين المـوجـودين في الـدولـة في ظـرف أسبوعين وصادرت أموالهم. وأُعلنت حالة الطوارىء فـي الـدولة العثمـانية بنسبـة الربـع فقط، وأصدر السلطان عبـد الحميد الأمـر إلى أدهم باشـا للإسـراع في الأمر لوضـع دول أوروبا أمـام الأمر الـواقـع، وواصلت القوات العثمـانية انتصـاراتها على اليـونانيين حتى وصـل العثمانيـون إلى مسـافـة تقـرب من ١٥٠ كيلومتـراً من أثينـا، ولـم يكن هناك جيش يوناني يقف أمام دخـول العثمانيين العـاصمة اليـونانيـة، وأبرق القيصر نيقولا الثاني للسلطان عبد الحميـد يرجـوه وقف زحف جيشه، فـطلب الباب العالي لتنفيذ هذا الرجاء تعويضات حرب تبلـغ ١٠ ملايين جنيه ذهبـاً، خُفِّضت إلى ٤,١٠٠,٠٠٠ جنيه ذهباً نـظراً لظروف اليـونان المـالية السيِّئـة، كما أعيـدت بعض الأراضي إلى الدولة العثمانية، يلماز أوزطونـه ٢٠١/٧.

أما انعكاس أثر هذه الحرب على العاصمة العثمانية إستانبـول فتذكـره الأميرة شـادية ابنـة السلطان عبد الحميـد في مذكـراتها حيث تقـول: (أذكـر أن كميـات كبيـرة من الأقمشة كانت تأتي إلى السكن في قسم الحريم بالقصر وتُوزَّع هناك لتُصنـع ملابس للجنـود الجرحى ينامون فيها. وكنا نعمل بكل ما فينا من قوة ليلاً ونهـاراً ونحن على ماكينات الخياطة مـع خادماتنا بلا انقطاع. واستمر هذا العمل بهـذا الحماس طـوال أيـام الحرب. وكنتُ متحمِّسـة لهذا وأنـا صغيرة. وبين الحين والآخـر كـان والـدي [السلطان عبد الحميد] يـدخل علينـا ليشجعنا على مـواصلة العمل، وأذكـر أنه كـان يقـول لنا: «حسنـاً يا بنـاتي جـزاكنَّ الله خيـراً. مـا أحلى العمـل في سبيـل البـلاد. حفظ الله بـلادنا من الأعـداء»، وكان هـذا الكلام يقـوّي عزمنـا فكنـا نخيط مـلابس الجنود بسرعة خوفاً من إضاعة الدقائق. وكان والـدي السلطان يذهب إلى قـطاع من القصر حُوِّل إلى مستشفى أثناء الحرب ليـواسي الجنود الجـرحى بنفسه، وكُنّـا نحن نرسل لهم من القصر السجائر والحلويات ومختلف الهدايا).

أوزطـونـه ٢٠١/٧؛ الأميرة شـادية بنت عبـد الحميد، آجي وطـاتلي كـونلرم، وهـو مـذكرات الأميـرة والترجمـة العربيـة لعنـوان هـذا الكتـاب «أيـامي المُـرَّة والحلوة»، ص ٣٠، إستانبول ١٩٦٦م، وسيُذكر هذا المرجـع باسم الأميرة شادية.

ووضعوا تخوُّفاتي اللازمة والمُحِقَّة في أشكـال ومعاني مختلفـة. فكرت كثيـراً في مـوقفي من دخـول هـذه الحـرب العـامـة [١٩١٤ ـ ١٩١٨م، ١٣٣٢ ـ ١٣٣٧هـ] لأني لا ألتفت لفريق دون اقتناعي اقتناعاً حسابياً بانتصاره.

الحرب أكبر آفة تصيب الأمم، حتى المنتصرون فيهـا يرهقـون أممهـم بها.

مدحت باشا مغرورٌ
تَصوَّر قيام تمرُّد ضدي بعد عزله

اعتقد مدحت بـاشا كـثيـراً في أن الأمة تحبـه حباً جمـاً، ولم يرَ داعيـاً لكتمان قوله بأني لو عزلتـه فستقوم في البـلاد ثورة ضخمـة، وأنه من الممكن خلعي أو حتى إعدامي.

الـذي حدث أن أحـداً لم يفتـح فمه عنـدما أبعـدت مدحت بـاشـا إلى أوروبا. بل وصل الأمر أنْ هنأني كثير من الوزراء ورجال الـدولة لأني أبعـدت الباشا، كما نظم الشعراء القصائد في مدحي، وهجَوْه بالقصائد التي نشـروها في الصحف وفي الكتب، ومن بين هؤلاء: الغـازي أحمد مختـار باشـا الذي يعترف في مذكراته التي نشرها أخيـراً بمغامـرة له متفـرِّعة من هـذه المسألـة. وذلك بعد مرور ما يقرب من الثلاثين عاماً على هذا الحادث.

هل كانت الأمة
جديرة بالديمقراطية؟

لم أكن أرى أنه من اللائق التحـدث في هذه المسـألة هنـا، لو لم يكن مدحت باشا قد أبـدى هذه الـدرجة من السـذاجة، ولا أود التحـدث عن مدى جدارة أمة بالحكم المشروطي يصمت عوامُّها ويقدم خواصها الشكر عند إبعاد وليٍّ نعمتها الذي أعطاها الحرية ولم يجفّ بعد مداد صنيعه!!

لن يقدِّروني حقّ قدري إلاَّ بعد موتي

والذين أعلنوا أني أعظم مناصر للحكم الاستبدادي، وأني أكبر مستبدّ في العالم، لا شك أنهم سيعترفون بالحقيقة بعد موتي، وسيتراجعون عن موقفهم تجاهي[1].

---

(١) يبدو أن نظرة السلطان عبد الحميد كانت ثاقبة في هذه المسألة. فها هو طلعت باشا القائد الاتحادي الرئيس، والذي ثار ضد السلطان باسم الحياة الديمقراطية يعترف في مذكراته قائلاً:

(لم يكن في المجلس النيابي [الذي فرضناه على السلطان عبد الحميد] غير ١٤٢ تركيّاً فقط وبقيّته كالتالي:

العدد	العِرْق
٦٠	عربي
٢٥	ألباني
٢٣	رومي (يوناني)
١٢	أرمني
٥	يهودي
٤	بلغاري
٣	صربي
١	روماني

إن هذه اللوحة الغريبة إنما كانت في الواقع مما تفرضه تركيبة الدولة. عبَّر الفيلسوف رضا توفيق عن هذه الحقيقة بوصفه إياها بكلميتن: برج بابل). مذكرات طلعت باشا، ج ١ ص ٣٣٧.

وفي موضع آخر من مذكراته يقول طلعت باشا في المسألة النيابية ما يأتي:

(في حفل كبير في قصر يلديز يوم ٣١ ديسمبر ١٩٠٨م [بمناسبة افتتاح المجلس النيابي] أخرج السلطان عبد الحميد من جيبه قائمة بأسماء أعضاء المجلس النيابي المنتخب وسألني هذا السؤال: =

يسألونني: لماذا حاكمت مدحت باشا وأَدَنْتَه؟(١).

ويقصدون بهذا مؤاخذتي!!

هنا حادثة محددة، وليست متوهَّمة، وهي وفاة المرحـوم عمِّي الدامية. هل انتحر السلطان عبد العزيز أمْ قتلوه فاستُشهد؟

= لم أكن أتوقـع أنّ يحدث هذا كلُّه. أكنتم تتوقَّعونه؟!). مذكرات طلعت بـاشا، ج ١ ص ٣٤٦.

والفقرة التالية توضِّـح نوايا الأقلّيات المعادية:

(في المجلس النيابـي العثماني [الثاني] استخدم كاروليدي أفندي نائب إزمير تعبير: «الأراضي اليونانية التاريخية» ويقصد بذلك سواحل منـطقة إيجـة التركية، عند ذلك حدث هرج ومـرج في المجلس احتجاجـاً على هذا التعبيـر. فتدخَّـل رئيس مجلس المبعـوثان العثمـاني في ذلك اليـوم وهو أريستيـدي بـاشـا ـ وهـو رومي أيضـاً مثـل كـاروليدي أفنـدي ـ تدخَّـل بقولـه: «إن الحديث عن التـاريـخ حق لكـل فـرد»). مذكَّرات طلعت باشا، ج ١ ص ٣٩٤.

(١) أمر عبد الحميد بمحاكمة المتَّهمين في مقتل السلطان عبـد العزيـز، وكان ذلـك بعد خمس سنـوات من قتـل عبـد العـزيـز. وتشكَّلت محكمـة يلديـز لهـذا الغــرض في ٢٧ يونيو ١٨٨١م [= ١٢٩٩هـ]، واستمرَّت حتى ٢٨ يوليـو من نفس العام بـرئاسـة سـروري بـاشـا حفيـد شيـخ الإسـلام منقـاري زاده يحيـى أفنــدي. وكـان من بين المتَّهمين فيها: السلطان مراد الخـامس، وسيِّدتين من سيـدات القصر وصهـرين من أصهار السلطان عبد الحميد متزوجين من أختين له هما المشيـر محمود جـلال الدين والمشير لوزي باشا، وحارس السلطان المقتول وهو الأميرالاي عزَّت بك والبكبـاشي نجيب بك والصدر الأعظم رشدي باشا وشيـخ الإسـلام خير الله أفنـدي. أمَّا القـاتل الحقيقي وهو السِّرّ عسكر حسين عوني بـاشا، فقـد قتله حسن باشـا الجركسي أحـد أقارب السلطان عبد العزيز، ومدحت باشا. حوكم هؤلاء في مسألتين: قتل السلطان عبد العزيز، وعزلـه، وقبل المحكمـة قُبض على مدحت بـاشا في ١٦ مـايو ١٨٨١م وكان وقتها والياً على آيْدِينْ ومقرّه إزمير. أوزطونـه، المرجـع السابق ٦/١٧٥.

السلطان عبد العزيز لم ينتحر
وإنما قتلته «تركيا الفتاة»

إني مقتنع الآن بأن عمي عبد العزيز لم يمت منتحراً، بل مات مقتولاً، فتقرير الطبيب مرن جداً، ويمكن مناقشته بواسطة أكبر علماء الطب في العالم. كيف يستطيع منتحر أن يقطع شرايين ذراعيه الاثنتين؟ لقد لفت هذا انتباه الأطباء في ذلك الوقت. بل وتناوله الأدباء في كتبهم.

سطور مشبوهة في كتاب «أسّ إنقلاب» للمرحوم أحمد مدحت أفندي. نُشرت قبل محاكمة مدحت باشا بنحو أربع سنوات وإدانته. وأحمد مدحت أفندي لم يكن عدواً للباشا، بل كان من رجاله.

أجريت المحاكمة علانية، لم تسبقها معاملة على خلاف أصول المحاكمات، وبجانب الشهود توجد إقرارات بعض المجرمين[1].

الادعاء بأن أعضاء ودوائر محكمة الجنايات والتمييز، مهملون فاقدو الضمير بالدرجة التي ينحرفون فيها عن العدل والحق في مسألة هامة مثل هذه المسألة، لهو ادعاء من شأنه تحقير كل الأمة التي تضم بين أفرادها مدحت باشا.

---

(١) أصدرت محكمة يلديز أحكامها في هذه المسألة. ومن ضمن أحكامها: (أ) تجريد محمد باشا ونوري باشا وحسن خير الله أفندي ورشدي باشا ومدحت باشا من جميع رتبهم ونياشينهم، (ب) إعدام كل من محمود جلال الدين باشا ونوري باشا والبكباشي نجيب بك ــ حارس السلطان عبد العزيز ــ ومدحت باشا، (ج) السجن عشر سنوات لكل من سيد بك والأميرالاي عزّت بك.

وبعد تصديق محكمة التمييز وإدارة الفتوى على الأحكام عُرضت على السلطان عبد الحميد للتصديق عليها التصديق النهائي فعدل السلطان أحكام الإعدام إلى السجن المؤبّد.

أوزطونه، المرجع السابق ٦/١٧٦.

طلبتُ تشكيل هيئة على مستوى عال ــ من الوزراء وعلماء الدين ــ لكي تطّلع على حكم أخذ مجراه في المحاكم، وتبحثه، لم أمارس ضغطاً على أحد سواء مادياً أو أدبياً(1)، حتى إن بعض أفراد هذه الهيئة كان ثابتاً على أفكاره بغاية الحرية. وإذا راعينا الدقة، فإن بعضهم عرَّض حتى بشخصي. على كل حال، لم تستطع الأصوات المتجمعة أن تكون أغلبية لصالح المتهمين، وكنت في هذا الخصوص أكثر إنصافاً من هذه الهيئة المكوَّنة من أعاظم رجال الدولة. رحمتُ حياة المتهمين، ولم يُنَفَّذ حكم الإعدام في أحد منهم.

أسباب تفكير قائد الجيش
في خلع عمي السلطان عبد العزيز

كان السَرْ عسكر حسين عوني باشا هو صاحب فكرة خلع السلطان عبد العزيز، وهو الذي زجَّ بمدحت باشا وببقية المشتركين في عملية الخلع. سبب خصومة السَرْ عسكر للسلطان. إن السلطان جرَّده ذات يوم من رتبته ونياشينه. ونفاه مقهوراً إلى بلدته إسبرطه.

---

(1) قبل تصديق السلطان عبد الحميد على الحكم وقبل تعديله، اجتمع ــ بناءً على طلب السلطان ــ مجلس عالٍ مكوَّن من ٢٥ شخصاً في ٢٠ يوليو ١٨٨١م، وهو مجلس استشاري كتب كل أفراده رأيه تحريرياً وكانت النتيجة كما يلي: ١٥ شخصاً أيَّدوا نفس أحكام المحكمة، ١٠ أشخاص طلبوا تعديل الإعدام إلى السجن المؤبَّد.
وكان من ضمن الذين أيَّدوا الحكم كما هو شخصان مهمان هما الغازي عثمان باشا والآخر هو أحمد جودت باشا أعظم عالم تشريعي في عصره وصاحب مجلة الأحكام العدلية المعروفة.
أوزطونه، المرجع السابق ١٧٦/٧.

ولم ينس هـذا ــ حسين عـوني بـاشـا الحقـود ــ بـل انتقم لـه في أول فرصة، أما الإسراف وغير ذلك [مما يتهمون به السلطان عبد العزيز] فتُـرَّهات وكذب. أظهر حسين عوني باشا أثناء عمليـة شراء بنـادق «مارتيني هنـري» أنه شخص غير متعصب أمام الإضرار بالخزينة. وبقدر ما كـان حسين عوني بـاشا حقوداً بقدر ما كان محتاطاً. إنه لم يكن يريـد للسلطان عبد العـزيز الانتحـار، بل كان يريد له الحياة ليـرى في السلطان يومـاً يتشفَّى فيه منـه. ويبرهن على هذا أيضاً ذلك الخطاب المحزن الذي أرسله من «طـوب قَـابُـو» إلى السلطان مـراد. وليس هناك من حـاكم مخلوع يودّ المـوت قبل أن يـرى ويسمـع شعبه وهو يبحث عنه بندم.

مَرَضُ السلطان مراد كـان محسوسـاً ومشاهـداً منذ اليـوم الأول لمراسم البيعة له. أُخذ السلطان عبد العزيز على غرَّة. الموالون له كثيـرون جداً. رأى السر عسكر الخبيث غداة الخلـع أن ردَّ فعل كبيـر سيحدث لصـالـح السلطان عبد العزيز خلال مـدة قليلة. لذلـك رأى وجوب إزالـة الخطر بـأي صورة من الصور. وهذا هو السبب الذي أدَّى إلى حادث استشهاد السلطان عبـد العزيـز [والتخلُّص منه].

بعد التحقق من أن ما وقـع كان قتلاً ولم يكن انتحاراً، تأتي في الدرجة الثانية مسألة وجود أبرياء بين المتهمين.

تذكرت الآن وبعد كتابة هذه الأسطر مسألة أودّ تسجيلها قبـل نسيانهـا. كان كل من حسين عوني باشـا ومدحت بـاشا ورفـاقهما قي الحـادث ينتظرون بحماس مجيء طلاب المـدرسة الحـربية في «مُـوَقِّتْ خانـه» في حيّ «بَشِيكْ طاش». حينها تصوَّروا أن الساعة المتَّفق عليها جاءت ومرَّت فتحدث بعضهم مـع بعض قائلين: آه.. سليمان باشا اتفق معنا ثم خاننا.

إن هذه الحادثة حقيقية، ولا يستطيـع أحد إنكارها.

[أعود فأقول]: إن مسألة وجود أو عدم وجود بريء أو أبرياء بين المتهمين تأتي في المرتبة الثانية بعد ظهور أن الجُرم لم يُحرَّف أو لم يُفتأت. وإذا ظهر سهو أو نسيان فمردُّه إلى قضائهم.

يدَّعون أن مدحت باشا ومحمود باشا خُنقا ذات ليلة في سجون قلعة الطائف بأيدي ضباط وجنود معروفين بالاسم. وحتى لو كان هذا صحيحاً، فليس لي دخل فيه، بل ولا أرضى عنه.

أنقل هنا واقعة خطرت على بالي. أنقلها كما هي، وأريد بذلك أن ألقي الضوء على التاريخ، وأؤيد واقعة ادعائي، بالتاريخ.

أمير مكة يكره مدحت باشا

كان الشريف عبد المطلب هو أمير مكة وقت إرسال المتهمين إلى الطائف. وكانت عداوة الشريف لأركان عملية الخلع، وخاصة مدحت باشا، عداوة صريحة وواضحة. سمعت أنه ضرب القيود الحديدية على أقدامهم، فأمرتُ فوراً بتجنيبهم سوء المعاملة. وعلى ما هو معروف؛ فإن والي الحجاز وقائده عثمان باشا اعتقل الشريف عبد المطلب، وعزله من الإمارة.

أجانب يحاولون تهريب مدحت باشا من الطائف.. إلى مصر

كتب إليَّ الشريف عبد المطلب عريضةً في ذلك الوقت قال فيها: إن محاولة حدثت من بعض الأجانب لتهريب مدحت باشا ومحمود باشا إلى مصر[1]. وإن الشريف منع هذا التدخل، وكل ما لاقاه من معاملة سيئة ومن عزل كانت بسبب هذا.

(١) أرادت إنجلترا تهريب مدحت باشا من سجنه بقلعة الطائف، واتَّخذت بالفعل قراراً في هذا الصدد فكلَّفت بارجة حربية إنجليزية في البحر الأحمر بتنفيذ هذا العمل.

لم أصدِّق كلمة واحدة من كلام الشريف عبد المطلب، ولا أي تصرف من تصرفاته ومع هذا فإن ادعاءه لم يكن خالياً من الأهمية بالقدر الذي ينتهي بي إلى إهماله. قمت بإخطار عثمان باشا بأنه في حالة هروب مدحت باشا ومحمود باشا، فإني سأسائل الحرس شخصياً، وإني لن أقبل في هذا الأمر عذراً أو تعليلاً.

أبلغ رضا باشا أمين سرّي [سكرتيري] في ذلك الوقت إرادتي إلى عثمان باشا. ورضا باشا هذا كان رجلاً جاداً في شخصيته، جاداً في كلامه. وقد استأذن منى في هذه المناسبة أن ينبّه بعدم إيذاء المتهمين أو الضغط عليهم كثيراً، مراعاةً لما تقتضيه الإنسانية. وقد استَصْوَبْتُ كلامه بتقدير. لا بد أن تكون مسوَّدة هذا موجودة بين أوراق القصر الآن.

سأقابل ربِّي بضمير مستريح

أفكر الآن: أن ربما يكون الحراس قد خافوا من رؤسائهم ورأوا أن من المناسب تنفيذ الأمر الواقع، وأن ذلك يتوافق مع منفعتهم وسلامتهم. إنما أردف قائلاً: إن التقارير التي جاءتني تقول: إن ميتة الاثنين طبيعية ومُرفق بها شهادات الأطباء.

هذا ما أردتُ التحدث به عن مدحت باشا، وأعود فأكرِّر أنني كتبت هذه الأسطر ليس من أجل ذاتي وإنما من أجل حماية اسمي من هجاء غير عادل.

= ويعتقد يلماز أوزطونه أن سبب قتل مدحت باشا بهذا الشكل المفجع في وقت كان اسمه قد خفُت في وقت غير متوقع أيضاً، له علاقة بهذه المحاولة الإنجليزية، فمدحت باشا قد بلغ بتلك الحادثة الثانية والستين من عمره. قضى منها في سجن الطائف سنتين وتسعة أشهر.

انظر: يلماز أوزطونه، المرجع السابق ٧/١٧٧.

ليس معروفاً كم سأعيش بعد هذا، فالموت يقترب مني، وأحس بوقع أقدامه، وإذا أيقنت أن يوماً سيأتي يَعرف فيه كلُّ شخص هذه الحقائق فإني أموت وأقابل ربّي ــ الذي أؤمن به دائماً وأثق في عدله وألطافه ــ أقابله بضمير مستريح.

٥ مارت ١٣٣٣ [رومية]

أيّ قوة كانت في يدي
ولم أستخدمها في الدفاع؟!

ادَّعُوْا عليَّ كثيراً، بأنني لم أكن حازماً فأبديت ضعفاً تجاه مسألة الروملي الشرقية. إن عدم الحزم وإظهار الضعف يعني عدم الإفادة من القوة الموجودة [في يدي]. فأي قوة كانت موجودة ولم أستخدمها في الدفاع عن حق الحاكمية [العثمانية] في الروملي الشرقية؟

لم أسمع حتى الآن منصفاً فكَّر في هذه النقطة.

استطاعت حكومتنا أن تعلم بواقعة الاستيلاء على فيلبه [في بلغاريا] بعد أن سيطر عليها أمير البلغار «دوبا تنبرج» وذلك عندما أخبرني به عزت أفندي ناظر البرق، بعد أن علم بها من برقية أرسلت إلى سفير روسيا.

كان سعيد باشا وقتها هو الصدر الأعظم، وفي بعض بياناته وكتاباته التي قرأتها بعد تَركي العرش، رأيتُ بأسف ودهشة أن سعيد باشا قد حرَّف الوثائق لصالحه.

لم يعلم سعيد باشا باعتداء البلغاريين أول الأمر. ولمّا شاعت هذه الواقعة في إستانبول، أبدى تردُّداً فترة، ثم اكتفى أثناء بحثها ببيان عاكف باشا رئيس مجلس شورى الدولة.

كان لإرسال الجنود إلى فيلبه في ذلك الوقت لحل هذه المسألة مخاطر عدة. فلم يكن الجيش الذي تبعثر عام ٩٣ [في الحرب الروسية ـ العثمانية] قد أُعيد تنظيم صفوفه بعد، والخزانة ما زالت خاوية على عروشها، بل وكان سد حاجات الجنود وصرف مرتبات الموظفين تشكل عقبة كؤوداً. فالنقد اللازم لذلك لم يكن من السهل إيجاده. وهناك ولايات لم يتسلم جنود الجندرمة فيها مرتباتهم منذ عشرين أو ثلاثين شهراً.

وجدت أنه من الخطر دخول حرب ـ في ذلك الوقت ـ مجهولة النهاية، مظلمة، ندخلها في سبيل الدفاع عن حق السيادة الذي لم يتبقَّ منه غير الاسم فقط.

لا بد أن يكون التعقُّل من صفات الحاكم

قالوا: إنني أظهرت خَوَر عزيمة في هذا الموضوع، لأنني لم أخصص له بعض الكتائب من الفرقة الثانية المكلفة بحراسة القصر. سواء ذهبتْ أو لم تذهب بعض كتائب الفرقة الثانية، فما هي النتيجة التي كان من الممكن أن تحدث من جرّاء هذا؟ هل يمكن لعدة كتائب من الفرقة الثانية أن تهزم الجيش البلغاري الذي انتصر في ذلك الوقت على جيش الصرب الذي كان أكثر انتظاماً واستعداداً بالقياس علينا؟

نيّات الدول العظمى وتحركاتها في هذا الموضوع كانت غير معلومة. فبينما كانت الاحتمالات الأولى تشير إلى توجيه الروس ضربة، فإذا هي تقف من البلغار في هذا موقفَ المعارضة والعداء.

كان لا بد من تقديم تضحيات قليلة بين الحين والحين لكي يمكن المحافظة على دولة ضخمة من الاهتزازات العنيفة.

لم أكن أستطيع التحدِّي في كل اتجاه، بينما كان الشرق والغرب كله

ضدنا. لو كنت اندفعت إلى دخول الحرب ضد البلغار في فيلبه، فلن يواصل البلغار والصرب العداء فقط، بل سيتّحدان ضدنا، ولن تصبح المسألة في ذلك الوقت مسألة الروملي الشرقية، لكنهم كانوا سيقولون معها بحل مسألة مقدونيا باليونان أيضاً.

عندما اعتدى البلغار على الروملي الشرقية، اتحد اليونانيون معهم لإجبارنا على قبول مطالبهم في منطقة يانيا والجزر.

هؤلاء اليونانيون حشدوا حشودهم على حدود آلاسونيا بحجة اختلال التوازن في البلقان، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تمنع الجبل الأسود ـ الذي كان أقصى أمانيه أن ينزل في أشقودره ويحتلها ـ من الإفادة بهذه الفرصة. ولو كنتُ فقدت أعصابي وتدخَّلت بسبب إبعاد (غاورييل باشا) البلغاري عن ولايته للروملي الشرقية، لكنت أعددت بيدي في ذلك الوقت كارثة عام ١٣٣٨ [١٩١٢م = ١٣٠٣هـ]، حيث لم يكن لنا أدنى استعداد من جيش وميزانية.

ينبغي بتر الوزير المتردِّد

إن الحرب البلقانية التي حدثت مؤخراً جعلت قلبي ينزف دماً، لكنْ يعزِّيني أني استطعت في أيلول ١٣٠٢ [١٨٨٦م = ١٣٠٣هـ]، وبموقف حازم محتاط للأمور، أن أؤجِّل وقوع هذه الكارثة ٢٨ عاماً.

الذين يعرفون سعيد باشا عن كثب، يعترفون بلا تردُّد أن هذا الباشا لا يعطي رأياً قاطعاً وصريحاً في المسائل الهامة، ومنها هذه المسألة، كان شعاره وعمله دائماً أن يقول: (لو عملنا هذا فربما يقع المحظور، ولو سوَّينا ذلك ربما يكون ويكون). وكنا نريد التوصل إلى قرار، ولم يكن هذا وقت (ليت ولعل). كنا نحتاج لاتخاذ قرار قاطع.

تعيين كامل باشا والياً على سوريا

أنقذتُ مسألة الروملي الشرقية بتعيين كامل باشا في موقع الصدارة، وبذلك انتهيتُ من مرحلة جادة من مراحل هذه المشكلة.

يخطىء هؤلاء الذين يظنون أن رِضاي بصدارة كامل باشا مبعثه فهمه لرغبتي في مسألة الروملي الشرقية، إنه كان مرشحاً في ذهني للصدارة العظمى من قبل.

فهمت أن سعيد باشا ينافس كامل باشا وسمعت أنه يستخفّ به في غيابه في مجلس الوزراء.

تلقيتُ نبأ وفاة حمدي باشا والي سوريا أثناء استعراض الجند لتحيتهم. وبناءً على أهمية سوريا، سألت شيخ الإسلام عرياني زاده أحمد أسعد أفندي عن أنسب الأشخاص للمنصب الشاغر، وكان رأي فضيلته تعيين ناظر الأوقاف كامل باشا والياً على سوريا بعد أن برز في قيامه بوظيفته في مجال الإدارة، وكذلك بناءً على حسن الصيت الذي اكتسبه. فهمت أن هناك تياراً بين الوزراء لإبعاد كامل باشا [عن الصدارة]، ومن هنا كان تعيين كامل باشا مكان منافسه سعيد باشا.

وسواء كان سعيد باشا في الصدارة أم بعيداً عنها، فإنه لم يُجبني أبداً على أيّ سؤال سألته إياه بإجابة قاطعة.

قصة سعيد باشا معي:
أحسنتُ إليه فأساء إليَّ

لم أكن أعرف سعيد باشا حتى اليوم الذي توليت فيه العرش، في ذلك الوقت أشار عليَّ به الداماد محمود باشا ناظر التجارة. كان كاتبه وكان في الحقيقة كاتباً مقتدراً، ولم يكن أقل من ضيا باشا وكمال بك وأمثالهم

المشهورين في ذلك الوقت. وكان يفحص بنفسه ما يعرض على الباب العالي، وكان مشغولاً بالأعمال اليومية؛ تَجَمُّع نفوذ الحكومة في القصر: أثر من آثار رأيه واجتهاده. ونظراً لتمركز الحكومة في الباب العالي، وتمركز السلطنة في السراي، فيجب تفوق السلطنة على الحكومة. القائل بهذا الكلام هو المرحوم سعيد باشا نفسه لكنه لم يذكر هذا قط في مذكراته التي نشرها بعد تنازلي عن العرش. كلامي مؤيَّد بالقيودات والسجلات الرسمية الموجودة في الباب العالي، ولو وجدت الوثائق التي (سُرِّبت) من خزانة الأوراق، فإنها يمكن أن تتم الأوراق التي ذهبت من قصر يلدز.

لماذا لم ألجأ إلى الحرب لحل مسألتَيْ مصر وتونس؟

حمّلني سعيد باشا في مذكراته مسؤولية التقصير في مشكلتَيْ تونس ومصر، بينما كان هو في ذلك الحين يبعثر الأيام والشهور في (ليت ولعل). وإني أفخر بما أسنده إليَّ على شكل تقصير، لم أكن أتصوَّر اتخاذ الحرب وسيلة لكل مسألة من المسألتين، فأنا دائماً ضد الحرب، ولو كنت اندفعت للمقاومة في تونس، فربما تسبَّبت في ضياع سوريا. لو وقفت بعناد في مصر، لكنت بالتأكيد فقدت فلسطين والعراق.

لم ينكر سعيد باشا فضلي عليه فحسب، بل إني جدّ آسف لتحريفه حقائق الأمور.

لا يجوز أن أضع الحاكمية الحقيقية في الخطر، وأندفع للمحافظة على الحاكمية اللفظية.

سعيد باشا المتردد المتوهم كان يبدو أحياناً شجاعاً، ففي فترة من فترات المسألة المصرية أبدى إصراراً على إعلان الحرب على إنجلترا،

وإرسال جيش برِّي إلى هناك. وكان يأمل في معارضة فرنسا لاحتلال الإنجليز مصر، منعتُ هذا. وعلى كل حال فإني أوصيت ببحث الأمر مرة أخرى في مجلس الوزراء في حضور الغازي أحمد مختار باشا. وزال هذا الخطر عند الاعتراض الحازم والسليم الذي أبداه مختار باشا. وفرنسا حتى اليوم لم تمدّ يداً، ولم ترفع صوتاً.

التعمير أولاً، لا الحرب!

إن شاء الله، لن يحيق بهذه الدولة هذه النتائج التي تزعجني. صاحب الجلالة والشوكة أخي. صاحب الإرادة الضعيفة، لا يستطيع مباشرة مهام أمور الدولة بنفسه. وإني أنصح الأبناء والأخوة الذين سيأتون بعد هذا ألاّ يدخلوا حرباً، قصيرةً كانت أم طويلة. ومرة أخرى أقول: إن الحروب التي تنتهي بالنصر ترهق الأمة، مثلها في ذلك مثل الحروب التي تنتهي بالهزيمة. وأمور [لفظية] مثل (الرفعة والمجد) تظهر آثارها الجميلة على البلاد العامرة الأطراف، الآمن يومها، الآمن غدها. أما الجائعون العراة في الأراضي الخربة، ويدَّعون (الرفعة والمجد)، ويجرون خلفهما، فلن يكون هناك أمر مضحك مفجع كأمرهم.

أوجدتُ في الفترات الأخيرة من سلطنتي أملَ قيام اتحاد بلقاني، وكان سفيرنا في باريس منير باشا يعمل في سبيل هذا الأمر سراً وجهراً. وكانت دول البلقان أمام خطرين: روسيا والنمسا. مجهول ذلك الشكل الذي ستسفر عنه الأحوال. ولو أنه من المتوقَّع أن تتفكك روسيا في الحرب العامة، إلاَّ أن طالعها لم يتعيَّن بعد، ولو أنها تخلصت من الثورة التي تهزها من الداخل منذ أكثر من عام ــ رغم ضخامتها ــ فستظهر روسيا أكثر قوة. ما هو هناك اليوم عبارة عن نضال فكري أشدّ من ذلك الذي كان في الثورة الفرنسية الكبيرة.

كنت أحاول أن أوقظ البلقانيين أمام هذين الخطرين المشتركين.

الضباط الأحرار يحطمون محاولتي
في احتواء ملك رومانيا

كنت سأحصل على تعويضات مُجزية مقابل تضحية لفظية في مسألتَيْ البوسنة والهرسك، مثل التراجع عن الحاكمية هناك، وهي عبارة عن اسم جافٍ، وبدأ الملك كارول، ملك رومانيا، يسير على الدرب رويداً رويداً، بعد أن كان محجماً شاكّاً في أول الأمر.

حدث انقلاب تموز [الذي قام به جيش الاتحاد والترقّي في ١٠ يوليو ١٩٠٨م] في الوقت الذي كانت فيه المحادثات، وكانت بدأت بالفعل تؤتي ثمارها، حتى إن منير باشا ــ وكان متوجِّهاً إلى إستانبول ــ عاد أدراجه دون أن يصل إليها. حاولوا بعدي تأليف العناصر الداخلية، فتحدُّوا العالم دون أن يقيموا هذا التآلف، وإذا بالاتفاق الذي كنت حريصاً عليه وأريده، وبذلت الجهود في سبيله، قد تطوَّر إلى شكل لم أكن أحبه ولا أريده على الإطلاق، أعني أن الأمر انقلب إلى الضد، إلى ضدنا.

فذات يوم انقضَّتْ علينا أربع دول بلقانية [في حرب البلقان عام ١٩١٢م = ١٣٣١هـ].

قصر يَيْلَرْبَى
في ٦ مارت ١٣٣٣ [رومية]

الإنجليز أعدائي يرشون قائد جيشي

عند إعادة قراءة ما كتبته عن مدحت باشا، وجدت أني مررت على إحدى النقاط مَرَّ الكرام. ترددت كثيراً عندما فكرت في تركها، ولكن ليس من شيء أخفيه عن الله وعن التاريخ. مهما اختبأ الشيء ومهما تسترنا عليه، فلا بد أن يظهر يوماً بكل تفرُّعاته.

كنت أعلم أن السَرْ عسكر عوني باشا قد أخـذ من الإنجليز أمـوالاً. إن رجلاً من رجال الدولة يأخذ مالاً من دولة أخـرى لا بد وأن يكـون قد قـدم لها خدمات. يعني هذا أيضاً أن خلـع المرحوم عمي السلطان عبد العزيـز وتوليـة السلطان مراد العرش بدله، لم يكن حقداً فقط من حسين عوني بـاشا، ولكنـه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضاً.

وكمـا كتبت من قبل، فـإن السلطان عبد العـزيـز كـان قـد جـرَّد حسين عوني باشا من رتبه ونيـاشينه. ونفـاه إلى إسبرطـة، لم يكن حسين عوني بـاشا في ذلك الوقت يملك شروى نقير، بالإضافة إلى أنه كان مريضاً.

عندما أبلغتُ إليه إرادة عمي كان في منزله. تملَّكتـه الحيرة والـدهشة. ظهر عليه الندم الشديـد. كان يفكـر في أنه لا يمتلك شيئـاً، وأنه لم يستـطـع تأمين دَخْلٍ له حتى ذلك اليوم. كثيرون سمعـوا حسين عوني بـاشا وهـو يقول في تلك الأيام: (آه لو تسنـح لي فرصة أخرى لعرفتُ ماذا أفعل).

كان لحسين عوني باشا مـزاياه، كمـا كانت لـه عيوبـه، كان يثق بنفسـه كثيراً، وكان يظن أنه يعرف ما لا يعرفه أحد.

أقبل القول بأنه جيد كجندي، ولكنه كرجل دولة كان سيئاً بعـدم تبصُّره وكثرة كلامه وغروره، ولكني أعـرف أنه حتى تـاريـخ إرسالـه إلى المنفى كان رجلاً شريفاً. إن أسباب الحاجة والآلام التي قاساها في منفاه أوقعته في غفلة البحث عن الشرف. وكان هذا محور سوء حظه.

كنا نسمـع أنه كـان في ضيق وحرمـان أثناء مُقـامه في إسبـرطة. وكـان عمي [السلطان عبد العزيز] يسمـع مثلنا بهـذا. وأظن أن هذا أثَّـر في عمي، فرقَّ له، وصفـح عنه، وأذِنَ له بالعودة إلى إستانبول. ليس هـذا فحسب، بل عيَّنه والياً على آيدين [في الأناضول].

طلب حسين عوني باشا السفر إلى أوروبا للاستشفاء، حيث مياه العيون المعدنية لأنه يعاني من المرض الذي أُصيب به أثناء مقامه في المنفى والذي استمر مدة أحد عشر شهراً، وسافر.

إذا أكرمت اللئيم تمرّدا!

صفح السلطان عن سَرْ عسكره السابق، ولكن السَرْ عسكر السابق لم يصفح عن سلطانه!

كان حسين عوني باشا يعيش وهو يجترّ حقده، وكان يعمل كل ما في وسعه دون أن يطّلع أحداً عما صحّ عزمه عليه. وعندما سافر إلى أوروبا طرق أبواب رجال الحكم هناك أكثر من ذهابه إلى المياه المعدنية. وأثناء سفره إلى فرنسا وإنجلترا ارتمى في أحضان الإنجليز.

لا أعرف كيف حدث هذا. هل اتصل حسين عوني بالسفارة الإنجليزية وقت أن كان هنا؟ أم أن الخارجية الإنجليزية أحست بهمهمات حقده عندما وصل هناك فأوقعته في المصيدة؟ لا أدري. وإنما بعد فترة من الزمن أخبرني سفيرنا في لندن موسوروس باشا أن حسين عوني باشا تقاضى مالاً كثيراً من يد أجنبية في إنجلترا، ولم يعلم سفيرنا بهذا إلاّ في وقت متأخر جداً، وعندما وصل إليَّ الخبر كان حسين عوني باشا قد مات. ولكنَّ مسألة أنَّ قائداً عثمانياً يقبل نقوداً من دولة أجنبية [كافرة] لم يكن عملاً يُستهان به. وقفتُ طويلاً أمام هذه المسألة باهتمام.

وزيري الأعظم وقائد جيشي عميلان لأعدائي

وكانت الهدايا القيمة التي قدّمها، سواء للقصر أم لأصدقائه المقرّبين، بعد عودته من أوروبا، تفوق كثيراً قدرة باشا حديث العودة من المنفى الذي قاسى فيه الفقر والحرمان، تلك الأيام لم تغب عن عيناي، وأنا للآن ما زلت

مندهشاً متسائلاً: كيف لم يلحظ المرحوم عمي [السلطان عبد العزيز] هذا؟ رغم أن الباشا قدَّم له شمعداناً ثنائياً مرصَّعاً بالمجوهرات عالي القيمة تاريخياً، واشتراه من باريس بثلاثة آلاف ذهباً ليهديه إلى السلطان. علمت بعد ذلك أن تحقيقاً تم في أمر هذا الشراء.

أبلغني موسوروس باشا بهذا، وكان مدحت باشا وقتها صدراً أعظم وكان حسين عوني باشا رفيقاً لمدحت باشا واشتركا معاً في إنزال عمي [السلطان عبد العزيز] عن عرشه.

مدحت باشا أيضاً مثل حسين عوني باشا، اتَّبَع سياسة مؤيدة للإنجليز، وكان دائماً يفصح عن ثقته في الإنجليز.

أُحِطْتُ بجوّ تنعدم فيه الثقة. ليس عندي دليل على اتهام مدحت باشا، ولكن واضح للعيان أن للإنجليز يداً في عزل عمي السلطان عبد العزيز.

وصدردولتي يأتي في مقدمة من قاموا بهذا العمل، ومهما كانت النية حسنة، فإنه يعتمد على عدوّها، كان من الجنون تسليم المُلك ومسؤولية الحكم لإنسان يستند على عدو دولتي ولا يملك إلاَّ الخضوع له، وبدأتُ أتتبَّع حركاتهما بدقة.

لم يهزني شيء في حياتي هزاً ضخماً قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى ويقبل نقوداً من دولة أجنبية [كافرة].

إذا كان مدحت باشا عابراً نفس الطريق، فإن هذا يعني أن الدولة وقعت في الشَّرَك.

كانت الغوائل تحيط بالدولة في ذلك الوقت. كنا في حالة حرب مع الصرب والجبل الأسود، والروس على وشك إعلان حرب، والدول الأجنبية

[الأوروبية] التي اجتمعت في حيّ الترسانة في إستانبول كانوا مؤيِّدين للروس، يطلبون إعطاء الأرض للصرب والجبل الأسود والاعتراف باستقلال بلغاريا تحت اسم الاستقلال الذاتي.

اختلَّت الأمور في كريت، بل حتى في إستانبول نفسها. فقد كان يقع فيها كلَّ يوم الجديد من الاضطرابات. الطلاب الكبار في مدرسَتَي الفاتح وبايزيد، الذين أصرّوا على التمرد، أَتَوْا حتى أبواب القصر وهم يصيحون هاتفين: (يحيا القانون الأساسي [الدستور]، يحيا مدحت باشا). ونظراً لأن مدحت باشا كان الصدر الأعظم، فما الواجب عمله لهم لإصدار القانون الأساسي والباشا يبعث كل يوم فتنة ويهدف بها إلى قلب الجو؟

بتوالي الأحداث أصبح مدحت باشا في موقف عدم الثقة بي، وفي هذا الوقت الذي كنت أحجم تماماً عن الدخول فيه في حرب، إذا بي أرى أننا ندخل الحرب خطوة خطوة. انتهى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى المجتمِع في حيّ الترسانة في إستانبول، انتهى بتوجيه إنذار إلى دولتنا، فإمّا أن ننفذ ما قالوه بالحرف الواحد، وإما أنهم يدخلون الحرب معنا بالتعاون مع روسيا ضدنا.

قال مدحت باشا: إن الإنجليز والفرنسيين سيقومون معنا مؤيِّدين لنا. وإذا بي في نفس الوقت أتلقَّى عن طريق موظف خاص من السفارة الإنجليزية رسالة من سالسبوري وزير الخارجية الإنجليزية، يقول لي بصراحة: أنه في حالة قبولنا ــ نحن ــ الحرب ضد روسيا، فإنهم أي الإنجليز لن يستطيعوا تقديم أي عون لنا.

أصابتني الحيرة، لكني حاولت مواجهة الأحداث صابراً، لم يركن مدحت باشا إلى التوافق مع الدول الكبرى. قرَّروا في مجلس الوزراء [العثماني] رفض اقتراحات الدول الكبرى، وكان هذا يعني الحرب.

استدعيتُهُ إلى القصر على عجل، وطلبت منه عقد مجلس عـام من كبار رجـال الدولـة قبل إبـلاغ الدول الكبـرى بقرار مـوبوء ثقيـل مثل قـرار مجلس الوزراء هذا.

انصاع للأمر رغماً عنه، وهكذا عُقد المجلس.

نفّذ إرادتي، ولكنه لم يهمل الاستعداد لاتخاذ قرار يريده هو.

أخـذ الكلمة الأولى بعده الصدر الأعـظم السابق محمـد رشدي بـاشا، رفيقـه في عمليـة خلـع عمّي عبـد العـزيـز، فقـال: (ليس لأربـاب الشـرف إلاّ طـريق واحد. وأنـا أؤيد الـرفض القطعي لاقتـراحات المؤتمـر) قـال هـذا وخرج.

لو مرَّ في أدب البطولة لأمـة من الأمم تصرُّفٌ مثـل هذا التصـرُّف الذي صدر عن رجل كبير من رجال الدولة كالصدر الأعظم السابق، فيمكن استنتاج ما يحدث بعد ذلك.

وزرائي يؤيِّدون الحرب

صدر القرار كمـا أراده مدحت بـاشا وبـه أصبحت الدولـة العثمانيـة في حالة الحرب، وبه أيضـاً اشتركت في الحـرب ضدنـا ــ غير الصـرب والجبل الأسود ــ كل من روسيا وإنجلترا والنمسا والمجر وألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

سـألت الصدر الأعـظم [مـدحت بـاشـا] وقـائـد الجيش [السَـرْ عسكـر رديف باشا] عن أحـوال الجيش وتجهيزاتـه، فقالا لي: إن مـائتي ألف جندي تحت السـلاح، وإنهم يمكن أن يـواجهـوا بقـوة كـل هجـوم يـأتي من جـانب العدو.

في هذا الوقت تلقَّيت برقية من الغازي أحمد مختار باشـا، يُعْلمني فيها أن لديه تحت قيادته ثـلاثين ألف جندي، وأنـه لا يستطيـع بقـوة صغيرة بهـذا الحجم مواجهة قوات العدو، والتي تبلـغ مئات الألوف.

وبسرعة استدعيتُ الصدر الأعظم وقائد الجيش إلى القصر، وأطلعهم على البرقية. تهرّب الصدر الأعظم من الموقف قائلاً: أنه لا يعرف استعدادات الجيش. وارتُجَّ على قائد الجيش، واعتقدت بأنه من الجنون الدخول في حرب بأشخاص يُحَمِّل الواحد فيهم الآخَرَ الذنبَ والمسؤوليةَ بسهولة، وعدم إدراك العواقب في هذا الموضوع الخطر.

لكنَّ الشعب متعلق بمدحت باشا، وينتظر منه المعجزات وإبعاده سيكون خطأً من الدولة.

لا يمكن إحراز نصر، بصدرٍ أَعظم يجهل عدد الجنود في الجيش، بل يمكن عن طريقه التأكُّد من إحراز الهزيمة، ومع هذا صبرتُ وحاولتُ أن أُكمل نقائصه.

مدحت باشا يريد الاستبداد بوزرائه

مدحت باشا يريد تنفيذ ما يريده، بعد فترة طلب إقالة ناظر المالية الذي سبق وأن زكّى تعيينه بالمديح فيه، سألتُ عن السبب حسبما يقتضيه القانون الأساسي، قال أنه رجل دولة ناجح، ولكن ــ حسب مصلحة العمل ــ ينبغي إقالته. كنت أعرف أنه لا يتوافق مع القانون الأساسي إقصاء شخص ناجح عن عمله. رد عليَّ قائلاً: أنه تسبَّب في خسارة تبلغ ٣٥,٠٠٠ ليرة من خزانة الدولة بقرار اتخذه. قدم لي ثلاث مذكرات لا يتوافق بعضها مع بعض. طلبت عرض الموضوع. غضب وأرغى وأزبد، وبدلاً من أن يوضِّح لي، قال للموظف الذي أحضر المذكرة: (إني سأرسل كل من يعيّن في المالية إلى السراي، ويقبضون مرتباتهم منها).

لا أدري إن كان في فرنسا، أو في إنجلترا التي يهيم بها الباشا إعجاباً: يجيب رئيس الوزراء بهذا الشكل على سلطان؟

ورغم هذا فقد صبرتُ.

مدحت باشا يريد الحكم والسلطنة لأسرته هو

كنت أعلم أن كمال بك وضياء بك ورشدي باشا وآخرين من رفاقهم يجتمعون كل مساء في قصر مدحت باشا يعاقرون الخمر ويتحدثون. وذات مرة قال مدحت باشا: (ليس في الأسرة المالكة العثمانية خيرٌ يُرجى، ولم يبقَ إلاَّ الاتجاه نحو الجمهورية، تُرى كيف يمكن هذا؟ إن عدة أشخاص مثلكم يفهمون المسألة الآتية: في العالم ــ حتى الآن ــ ما يسمَّى بآل عثمان، ماذا يحدث لو ظهر ما يُسمّى بآل مدحت؟).

علمتُ بهذا من أحد الذين حضروا هذه الجلسة.

وأخيراً جاءت مذكرة من نظارة الداخلية تقول إن أحد الذين يأكلون ويشربون كل ليلة في قصر مدحت باشا قال: (أخذ مدحت الاستقلال، وبفضل هذا نجعل المراد مراداً) (١).

كانوا قبل هذا أيضاً قد نهضوا لتهريب أخي السلطان مراد من القصر وهو بملابس النساء، وظهر أن الذين تصدَّوْا لهذا العمل الفاشل بعض الشخصيات الماسونية مثل مدحت باشا.

إنچلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية.

ولم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل، فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي، ومن ناحية أخرى يريد الزجَّ بالبلاد في أتون الحرب، وقد حاول سَنَّ بعض الأعمال التي لا يتصورها العقل مثل تعيين ولاة من

---

(١) القصد من هذا: إذا تزايد نفوذ مدحت باشا فمن السهل أن نزيل حكم السلطان عبد الحميد لننصِّب مكانه السلطان مراد الذي كان مسجوناً في ذلك الوقت لإصابته بالجنون. [توضيح م. ح.].

الأقليـة في ولايـات الأغلبيـة فيهـا مسلمـون. وقبـول طلبـة من الأروام [وهم نصارى] في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش [العثماني المسلم].

أعمـال كهـذه يمكن أن تؤدِّي ـ معـاذ الله ـ إلى تقـويض الـدولـة من أساسها. لم أوقِّـع هذه القرارات، ولذلك أرسَلَ لي خطابـاً أذكر منـه ـ وكان خطاباً بعيداً عن الأدب بمعنييه ـ :

(إن مقصـدنا من إعـلان القانـون الأساسي أن ننهي استبـداد السـراي، ويجب على ذاتكم الشاهانية أن تعلم واجباتكم).

فهمت جيداً أنني لـو تـركت كـل أعمــالي وتفـرَّغت لإصــلاح أخـطاء مدحت باشا، فإني لن أستطيـع النجاح.

مدحت باشا ماسوني

بناءً على هذا كله كان المُلك العثماني يهتـز من أساسـه، كنت أرى أن الصـدر الأعظم يؤيِّـد الإنجليز ويتعـاون معهم، سـواء بـدافـع من مـاسـونيَّتـه أو بدافـع من أسباب أخرى خاصة جداً به.

ولم أعـد أحتمل، فـاستنـدتُ إلى صـلاحيـاتي في القـانـون الأسـاسي [الدستور] وعزلته عن الصـدارة العظمى، وأبعـدته خـارج الحدود[1]. وذهب إلى برنديزي [في إيطاليا].

(١) إن السبب الرئيسي لعزل مـدحت باشـا هو أنه بـدأ في تكوين جيش مستقـل خاص أطلق عليـه اسم «جنود الأمـة» تابـع لشخصـه، مكـوَّن من جنـود مسلمين ونصـارى خلاف ما هو معروف من أن جيش الـدولة العثمـانية لا بـدّ وأن يتشكل من المسلمين فقط. وقام رؤساء هـذا الجيش الخاص بـالقيام بمـظاهرات تـأييداً لمـدحت بـاشـا. طلب السلطان عبـد الحميد من مـدحت باشـا أن يكـون هـذا الجيش تـابعـاً للجيش العثماني الأول. فحرّض مدحت باشا جنود هذا الجيش الخاص به بالقيـام بمظاهـرة =

وعندما خرج من السراي، عبَّر عن أنانيته البالغة بقولـه: (رحم الله هذه الأمة)[1].

قـصر بَيْلَـرْبَى
في ٧ مارت ١٣٣٣ [رومية]

إنجلترا تحتجّ على عزلي لمدحت باشا

يعني هذا أن مدحت باشا كـان يتصوَّر أن المُلك مـرهون بـوجوده، وأن الدولة العثمانية العظيمة ستغرق بمجرد ذهابه. فهل علم بأنـه لم يحدث شيء مما تصوَّره؟ لا الشعب ثـار، بل ولم يبحث عنـه، ولا أحد من أقـرب الأقربين إليه رفـع صوتاً، لكن الدول الخارجية ـ بالطبـع ـ تأثَّرت بهذا، وحدث فيهـا

= عسكرية، ولم يستطِـع السلطان عبد الحميد على ذلك صبـراً، فعزل مـدحت باشـا، لتفصيل هذا انظر: يلماز أوزطونـه، المرجـع السابق ١٣٩/٧.
ومن الأسباب الأخرى لعزل مدحت باشا طريقة تحدُّثه إلى السلطان الخليفة فقد كان يحادثه بتكبُّر. مثال ذلك أن هذا الباشا قال مرة لسلطانه:
(أولاً: كان يجب أن تعرفوا دوركم في الحكم المشروطي. إنكم ستصبحون مسؤولين عن كل أعمالكم. ومثال آخر أن الباشا قال للسلطان عبد الحميد: «هل تدركون الأصول والنظام في دولة تُدار بالشورى؟ إنكم غالباً تهدمون بناء الدولة في الوقت الذي يجب أن تعملوا فيه من أجل إعمارها).
يلماز أوزطونـه، المرجـع السابق ١٣٩/٧.

(١) عند نفي مدحت باشا من إستانبول صـرَّح بقولـه: (عندمـا أرجـع إلى إستانبـول بعد هـذا النفي لن أرى فيها سلطاننـا في قصره). كمـا قال أيضـاً: (إن البلاد العثمـانيـة ستغرق إذا نفيتموني)، وعندما عبرت السفينة التي تقلّه، عندمـا عبرت من الدردنيـل سأل مدحت باشا من حوله قائلاً: (ألم تقم ثورة ـ بعد ـ في إستانبول؟).
عنـدما وصـل الباشـا إلى برنـديزي. أظهـر احتيـاجـه إلى نقـود، فتمَّ صـرف مبلـغ خمسمائة جنيه ذهباً له فوراً.
أوزطونـه، المرجـع السابق ١٤٠/٧.

رد فعل، فقامت الدنيا وقعدت في إنجلترا. وكتبت الصحف هناك بأنه لا يمكن توقُّع شيء من إصلاح الدولة العثمانية بعد ذلك على الإطلاق.

كنتُ أعرف أنَّ هذا سيحدث، وكنت أتوقعه، فمن الطبيعي ــ وقد تعاون مدحت باشا مع إنجلترا وأيَّدها ــ أنْ تعاونه وتؤيده. كان الإنجليز يعرفون أن الإصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تُغرق الدولة العثمانية سريعاً، تماماً مثلما أعرف أنا. فهل يا تُرى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة؟

إذا كانت الإصلاحات هي الأمر الذي ينقذ الدولة العثمانية، فقد أُحيطت الدول الكبرى علماً وكتابةً بالإصلاحات المتصوَّر قيامها، والمعلَنَة في الدستور الأساسي، وذلك أثناء مباحثات هذه الدول في حي الترسانة [في إستانبول]. على هذا كان يجب على إنجلترا وهي تنظر إلى فم السفير الروسي ألاَّ تطالبنا باستقلال بلغاريا وإعطاء الأرض للصرب والجبل الأسود، لأننا قبلنا كل ما أوصت به وبدأنا تطبيقه.

والحقيقة أن الإنجليز كانوا أكثر من الروس في إجبارنا على هذه التوصيات المستحيلة، وقد سحبوا مندوبيهم من إستانبول لأننا رفضنا اقتراحاتهم المهدرة للكيان، ودخلوا في حالة حرب، ثم أبدوا لنا صداقتهم بعدم إرسال قواتهم لمحاربتنا، مقابل تنفيذ رغباتهم، وهذا كل ما استطاعوا عمله.

ولكن عندما يصل الأمر إلى إبعاد مدحت باشا ــ الذي يعتبرونه رَجُلَهم ــ فإن الإصلاحات تكتسب فجأة أهمية خاصة، وكأنهم يقولون: إن إبعاد الرجل الأوحد الذي يستطيع النجاح في هذا العمل عن موقعه، يُعتبر موتاً للدولة العثمانية.

سمعت قصة الذئب والحمل الذي يشرب الماء، وكنت أعرف أن الإنجليز ينظرون باشتهاء إلى مصر، ليت صدري الأعظم مدحت باشا كان يعرف ذلك مثلما كنت أعرف.

حتى ولو كان يعرف، فهل سيتّجه نحو إنچلترا مباشرة ويكتب الخطابات من هناك ويتدخَّل في شؤون الدولة؟ لو عرف. وأهم من ذلك: لو عرف حدوده، فهل كان سيتّكيء بذراعه على مائدة وزير الخارجية الإنجليزية أثناء مقابلته سفير الدولة العثمانية موسوروس باشا؟ آه.. المعرفة أمر صعب، ولا سيما معرفة الحدود، كم هي مشكلة!

لكني أردف قائلاً وفوراً: إن السلطان يعني العفو، ولا يعني توقيع الجزاء، وبهذا أيضاً أمر ديننا فإن إصلاح إنسان وجعلَه يسير في الطريق السوي، أسمى من ألف عمل خير.

الواقع أن مدحت باشا لم يكن مخطئاً من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وإنما يرتكب الخطأ بين حين وآخر.. كانت فيه ميزة رجل الدولة. كان يبرع في أداء بعض الأعمال، فقد تمَّ اختباره في منصب الوالي وبيَّض وجه الدولة في الأماكن التي عُيِّن فيها، صدرت منه ــ وهو في المراكز العالية في الدولة ــ بعض الأعمال المحظورة إلاَّ أنه أمكن الإفادة منه ومن خبرته، ولم أكن أتصوَّر أنه عميل للإنجليز، وإلاَّ لما كنت استدعيته وأعيِّنه والياً على سوريا، ثم أُرسله بعد ذلك إلى أزمير.

محاكمة مدحت باشا لاشتراكه في قتل عمِّي

لو كنت أعرف أنه اشترك في قتل عمِّي ما كنت أستدعيه من أوروبا، وما كنت أسند إليه وظائف جديدة، لكن تحقيقاً كنت أمرت به في هذا الموضوع كشف عن اشتراك مدحت باشا في هذه العملية. إن قتل سلطان

لأسباب شخصية، أو مساعدة القَتَلة، أو حتى التستُّر على معلومات بشأنه، لجُرم كبير ضد الدولة وضد الأسرة الحاكمة، ولم أستطع إغماض عيني. وأَذِنت بإجراء المحاكمة.

مدحت باشا يحتمي بالقنصليتين الإنجليزية.. ثم الفرنسية

ليتني ما فعلت، وليتني لم أستدعه من أوروبا إطلاقاً، لأنه بمجرد أن فهم أنه سيمثل أمام العدالة نسي أنه وزير عثماني، وتصرَّف تصرفاً يُظهره كمجرم رابط الجأش. اتَّجه مباشرةً إلى القنصلية الإنجليزية. وجد أن القنصل في عطلة، فلجأ إلى القنصلية الفرنسية واحتمى بها.

ولم يكن ثمة دليل أكثر إدانة، فإن وزيراً عثمانياً وواليا، يفكر في اللجوء إلى سفارة أجنبية خوفاً من أن يَمْثُل أمام المحكمة، لدليل واضح ووثيقة أكيدة تدمغه تماماً.

لا يوجد مثيل لهذا في تاريخ دولتنا بكامله. هذه الحادثة أحنت رأس العثماني أمام الصديق وأمام العدو. اغتمَّتْ نفسي وأحسست بالمهانة عندما علمتُ بهذه الحادثة. ذلك لأنَّ هذا التصرف الذي أقدم عليه أثقل وطأً من الجريمة المدَّعى عليه فيها، إنه تصرف لا يمكن الصفح عنه، وأمرت ناظر العدل فوراً بتتبُّع هذه المسألة. إن الإنجليز الذين ولا بدَّ أن يكونوا عارفين بأصل المسألة لم يظاهروه، وقَبِل الفرنسيون تسليمه بعد اعتراض بسيط.



خفَّفت حكم الإعدام على مدحت باشا

أخذت علماً بسير المحاكمة ونتيجتها.. أعفو عن مدحت باشا لاشتراكه في قتل عمّي السلطان عبد العزيز، ولكني لا أستطيع العفو عن

وزير وصدر أعظم عثماني يتعاون مع دولة أجنبية.

لا بدَّ أن موقفه أثناء القبض عليه ورغبته اللجوء إلى القنصلية الإنجليزية جعلاه يفصح بوضوح عمَّن يثق به وعمَّن يخدمه.

ومع كل هذا. فإني تذكَّرت خدماته التي قدمها للدولة أثناء ما كان والياً، وخفَّفت حكم الإعدام الصادر ضده، إلى السجن.

يريدون أن يُلقوا عليّ تبعة مسؤولية موته، فليُلقوا. فغداً عندما نَمْثُلْ أمام رب العالمين سيكون وجهي أبيض، وجبهتي ناصعة، وإذا كنت سأُحاسب في هذه المسألة فإن ربي قد يحاسبني لأنني عفوت عن صدر أعظم أهان دولته وإني راضٍ بجزاء الله في هذا السبيل.

٩ مارت ١٣٣٣ [رومية]

شخصيَّة نامق كمال

يُعَدُّ نامق كمال بك من بين الذين لم ينالوا مني حقهم كاملاً. ربما يكون في هذا بعض الحقيقة.

كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم اسم (العثمانيون الجدد). كان إنساناً مضطرباً جداً، لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولا تتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية. يمكن وإلى حد كبير أن تجزم بأن إنساناً ما يستطيع عمل أمرٍ ما أو لا يستطيع، لكنك لا تستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال وأنت تفكر في كمال بك، ذلك لأنه هو نفسه لا يعرف نفسه. تستطيع القول إنه واحد من الأشخاص النادرين الذين يحيَوْن حياتين مزدوجتين في حياة، تختلف الواحدة عن الأخرى حسب مزاجه، من يعرفونه عن قرب يعرفون أنه عندما كان على وئام مع السراي ألَّف كتابه «التاريخ العثماني»، وبمجرَّد أن

فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنـه [نامق كمـال] قد قـطـع رأس التنين بقولـه: (كـلـب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف)(١)، إنه إنسـان متقلب، ربما كـان إنسانـاً مخلصاً جـداً. يمكنـك خـلال سـاعـات أن تجعله يفكـر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار.

عند كتابة القانون الأساسي [الدستور] تولّى هو أيضاً إعداد مشـروع له. كان مختلفاً مـع مدحت باشا في هذا الموضوع رغم صداقتهما الحميمـة. في البـداية كنت أدهش لـه كثيـراً، لكني بعـد ذلـك فهمتـه، كـان يُجـلّ الأسـرة العثمانية كثيراً ويريد لكل أفكـار الإصلاح أن تتم في إطـارها، وكـان في هذا على عكس مدحت باشا، الذي كـان يفكر في تحيُّن فـرصة من الفـرص يُنهي فيها حكم آل عثمان ويحل هو محلها.

مـا أعجب هذا! مـدحت باشـا يقـول ذات ليلة: مـاذا يحـدث لـو حـل

(١) هذه ترجمة لبيت من قصيدة نامق كمال المشهورة «الحرية» وهي أول عمل أدبـي في اللغة التركية العثمانية وكانت أول بذرة للفكرة القومية في الأدب التـركي، والمقصود هنا أن الشاعر هجا السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة، وبذلك باعدت القصيدة بين السلطان وبين نامق كمال. [توضيـح م. ح.].

والجدير بالذكر أن نامق كمال نفسه كـان وصف السلطان عبد الحميـد، في عريضـة قدّمها إليـه، بقولـه: (أنت أيها السلطان، الإمـام الربّـاني لهذا الـزمان، وإنـك حقاً سلطان العالمين).

وفي عريضة أخرى قدَّمها نامق كمال للقصر، مدح السلطان عبد الحميد بقولـه: (إن مقصـد سلطاننا هـو راحة الشعب والأهـالي، لذلـك فالاحتـرام واجب لهذا السلطان العظيم إنه جدير بأن نلتزم الموت في سبيله).

كمـا ذم نامق كمـال نصّ السلطان بقولـه: (في عهد شـأمته، ذهب الـدين، وذهبت الدولة، أباد المُلك وذهب، فليُقهر بظلمه).

في هـذا انـظر: ابن الأمين محمــود كمـال، حـول السلطان عبـد الحميـد. مجلة «حيات ــ تاريـخ» العدد ٨ أغسطس ١٩٧٧م، ص٥٣، إستانبول.

آل مـدحت محـل آل عثمـان. وفي اليـوم التـالي يـأتي إليَّ نـامق كمـال بـك ويخبرني بذلك.

في الأيام التي كانت اللجنـة [الدستـورية] تـدرس وتبحث فيها القـانون الأساسي [الدستور] أتى نامق كمـال بك إلى السـراي وطلب سرعـة مقابلتي. أخبرني بهذا سعيد باشا، وكانت عندي بعض المشاغل فرغبت أن يقابلني في يوم آخر. أصـرَّ على مقابلتي وقـال: (يجب أن أراه بسرعـة فما لـديَّ أهمّ)، وقابلته.

كـان في أشدّ حـالات الاضطراب: وجهه أصفر، يـداه ترتعشـان؛ أدى الاحترامات الواجبة وقال: (لا بد أن تتدخَّلوا في القانـون الأساسي الـذي يُعَدُّ الآن، وإلاَّ فمعاذ الله ستنتهي الدولة العثمانية).

هدّأت من رَوْعه قليلاً. وحَكى لي أن مدحت بـاشا يضغط عليـه بدافـع من الصـداقة الـوطيدة بينهمـا، لكنـه أصـرَّ على رأيـه، وقـد تم التفـاهم مـع سليمان باشا، ويبدو أنهم سينقلون كل حقوق السلطان إلى المجلس.

لـو نجحوا فيمـا يقولـه، فمعاذ الله ستنتهي الـدولة. فكَّـرت فيمـا يجب عمله، وجدت أن لا بدَّ لي من الاعتراض على هذه المحاولات.

ما قاله نامق كمال بك كنت أعـرفه، فقـد كان عنـدي خبر بـه. وتتبَّعت هـذه المحاولات وأنـا أحسُّ ببعض الأسى. في تلك الأيـام كنتُ مخلصـاً في مسـألة إعـلان القانـون الأساسي [الـدستور]. كـان والدي المحتـرم السلطان عبـد المجيـد الأول هـو الـذي أقنعني بهـذه الفكـرة. ولم أكن أختلف مـع مدحت باشا إطلاقـاً في هذا المـوضوع، لكني كنت أرى تعـاون السراي مـع المجلس، ومدحت باشا يريد أن يضـع السراي على الهامش.

في ذلـك اليوم رأيت أن نـامق كمـال بـك يفكـر مثلي ولا أستـطيـع أن أُخفي أنني كنت ممتنّاً جداً لهذا.

ومـع هذا، فإنني لكي أجعله يتكلم أكثر سألتـه عن أي مادة من المـواد ورد فيها هذا. اتسعتْ عيناه دهشة وحيرة، وقال:

ــ يا سيدنـا، هذا المجلس سيُشَكَّـل من عناصـر مختلفة، وعلى قـدر ما يلزم من التفكير في الجـانب الحسن في أمر من الأمـور على قدر مـا ينبغي اتخاذ التدابير لجوانبه السيئة. الدولة العثمانية موحَّدة في شخصكم وأنت اليد الأمينـة لصاحبهـا الحقيقي وهو الله، فـإذا كـان في سلطتكم واقتـداركم عقـد المجلس في حالة ضرورة فإنه من حكمة الدولة ضرورة أن يكون من سلطتكم تعطيل هذه اللجنة [الدستورية].

فهمت ممَّ يخـاف. وأعترف أنـه كان إنسـاناً وطنيـاً. كان يـرى أن بقاء المُلك فوق كل شيء.

أعدائي من «تركيا الفتاة» كلهم من أعضاء المحفل الماسوني الإنجليزي

لم أستطـع أن أفهم كيف سادت رغبة إسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخي مراد مرة أخرى. هل لأنَّ أخي السلطان مراد كان مثلهم ماسونيـاً؟ أم لأن التفكيـر أفضى به إلى أنـه من السهل عليـه أن يضغط على أخي مراد ويجعله آلة ينفذ كل شيء؟

حتى الآن لا أستطيـع تقدير هذا.

لا بد للتاريـخ يوماً أن يُفصـح عن ماهية الـذين سمَّوْا أنفُسَهم «الأتـراك الشبان» أو «تركيا الفتاة» وعن ماسونيتهم. استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل المـاسوني الإنجليـزي، وكانوا يتلقَّوْن معونة ماديـة من هذا المحفـل. ولا بد للتـاريـخ أن يُفصـح عن

هذه المعونات وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية؟[1].

---

(١) «كان كل أعضاء فروع «الاتحاد والترقِّي» في كل من: القاهـرة وجنيف وباريس، من الماسونيين. لكن الاهتمام الرئيس العـالمي الذي أوْلتـه الماسـونية الـدولية، انصبّ على كادر الماسـونين في مقدونيـا. ذلك لأن حـركة «الاتحـاد والترقِّي» في سـلانيك وهي مـركزهـا، كانت الحـركة العسكـرية لهـذه الجمعية. وكـان كل ضبّـاط الجيش هناك، باستثناء اثنين فقط، ماسوناً. والأربعة الكبار في «الاتحاد والترقِّي» في منـطقة مقدونيا ماسون وهم: محمد طلعت بك (باشا)، ومـانياسي زاده رفيق بـك، ومدحت شكري بلدا، وإسماعيل جانبولاط.

وكان الجميـع في أول مركـز عمومي لـلاتحاد والتـرقِّي ـ باستثنـاء واحد فقط ـ من الماسونيين. وفي المؤتمر الأول لحزب الاتحاد والترقِّي ـ ١٥٦ عضـواً ـ كانت أهم شخصياته من الماسونيين وهم ٧٣ شخصاً.

وفي اجتماع مجلس الشورى الأعلى للماسونيين في الدولة العثمانية والـذي عُقد في ٣ يونيو ١٩٠٩م في فندق طوقاطليان في حيّ بك أوغلو في إستانبـول حضر أعضـاؤه وهم ١٢ ماسونياً كل منهم يحمل درجة ٣٣ في الماسونية وهم:

ـ محمد طلعت ساعي.
ـ مدحت شكري بلدا.
ـ محـمد جـاويد.
ـ الدكتور رضا توفيق.
ـ محـمد عـارف.
ـ نسـيم مازليـاح.
ـ محـمد غـالب.
ـ ميشيل نورا دوق جيان.
ـ داڤيد جي كوهين.
ـ عثمـان عـادل.
ـ فـؤاد خلـوصي.
ـ عـاصم كبـار.

أما الآتية أسمـاؤهم فقد كـانوا يحملون درجـة أستاذ أعـظم في الماسـونية في عهـد =

وكما قلت من قبل: إن ذهاب كمال بك إلى ماغوسا [منفياً] ثم إرساله إلى [جزيرة] ميديللي، كان بسبب عدم قدرتي على الإساءة إلى قلمه ووطنيته، وإلَّا فإنه كان سيشترك في أعمال توجب توقيع أنواع من العقاب أكثر ثقلاً عليه.

كان محظوراً أن يبقى [نامق كمال] في إستانبول، فالمحيطون به يحرِّضونه ويستخدمونه كما يريدون، ولذا حبسته، نفيته لكن محبَّتي له لم تنتقص في يوم من الأيام. ليكن في أيِّ مكان، لكنه هو وأسرته كانوا يعيشون مرفَّهين والخطابات التي أرْسَلها تعبِّر عن امتنانه وشكره، وهي محفوظة بين أوراق يلديز، ولا بد أن تُوجد إذا ما بُحث عنها، كان المرحوم يدرك ويعرف نقطة ضعفه هذه جيداً، عليه رحمة الله.

١٠ مارت ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

كيف أكون سلطاناً وأوقِّع على مُسْتند يأخذه عليَّ وزيري؟

يقال: إن مدحت باشا ساومني قبل جلوسي على العرش، وفي نهاية هذه المساومة جلست على العرش، كما يقال: إن مدحت باشا تحدَّث معي في ارتقائي العرش أثناء تولِّي أخي السلطنة، وإنه اشترط عليَّ بعض الشروط

= الاتحاد والترقِّي، وهم:

ـ طلعت باشا.

ـ الأميرالاي الدكتور محمد علي باشا.

ـ فائق سليمان باشا.

ـ جاويد بك وزير المالية.

جمال قوطاي، في تعليقه على مذكرات طلعت باشا، ج ٣ ص ١٤٢٤ ـ ١٤٢٥.

لكي أستطيع أن أصبح سلطاناً، ويقال أيضاً: إن هذه الشروط هي: إعلان القانون الأساسي [الدستور] وتعيين ضيا بك وكمال بك في السراي، ويقال: إن تنازلي عن العرش في حالة شفاء أخي من ضمن هذه الشروط. ومع ذلك فلم يكتف بهذا بل أخذ عليَّ ـ كما يُشاع ـ تعهُّداً بتنازلي عن العرش في حالة شفاء أخي مراد، وحتى إنه قيل: إن اضطهادي لمدحت باشا كان من أجل حصولي على هذا التعهُّد منه.

لا أصل لهذا. والحقيقة هي أنَّ كلاًّ من الصدر الأعظم رشدي باشا ومدحت باشا أجريا معي ـ أثناء مرض أخي ـ محادثة، لكن أحداً منهما لم يتحدث معي في أي شرط. كذلك لم يجعلا في موضوع الحديث شرطاً من الشروط. في هذه المحادثة لم يتحدثا عن مرض أخي بشيء، ولم يذكرا شيئاً عن ارتقائي العرش. وكل ما هناك أنهما أخبراني بأن مدحت باشا قال أنه وجد من أخي السلطان مراد رغبة في القانون الأساسي، وأن بعض الاستعدادات قد حدثت في هذا السبيل. وحاولتُ أن أعرض عليهما أفكاري في الموضوع، وقلت لهما: إنني حريص على إعلان القانون الأساسي (الدستور).

والحقيقة أنني كنت أفكر في هذا في تلك الأعوام ولا سيما أنني أعلنت القانون الأساسي بعد إبعاد مدحت باشا، ودعوت المجلس للانعقاد عند دخولنا الحرب، وأمرت أنْ تستمر أعمال المجلس طَوال وقت الحرب.

أما الباقي فكذب: فكيف أكون سلطاناً وأوقِّع على مستند يأخذه عليَّ وزيري؟ وكيف يُجنّ وزيري ويجرؤ على وضع شرط على سلطانه؟

إنها أشياء استحسنها ـ من بعد ـ أشخاصٌ مخبولون. مدحت باشا كان وزيراً حريصاً وجسوراً، ولكنه لم يكن أيضاً مجنوناً.

تقييد سلطان يرتقي العرش بتعيين ضيا بك ونامق كمال بك في السراي أمر غير معقـول، فليس الأمر أمـر سلـع مختلفة. هـل تعيين كل من ضيـا بك وكمـال بك في السـراي يقيِّد يـدي وذراعي؟ ألـم أكن أستطيـع بكلمـة واحدة مني فصلهما من عملهما؟ إنه شرط يصعب على العقول تصوّره.

يأتي الكلام ببعضه، فأقول: إن ضيا باشا كان رجلاً لا يشبـع من نعمـة ولا من منصب. وعلى قدر ما كان نامق كمال بك مخلصاً كان ضيا بك جشعـاً محباً للمادة. فعندما عيَّنتُه والياً على سـوريا بـدرجة وزيـر لم يمتنّ لهذا، لأن عينه كانت مركَّزة على منصب الصدارة العظمى. كان شبيهاً بمدحت باشـا في كل ناحية. فكما أرسل مدحت باشا ــ بعد إبعاده إلى أوروبا ــ الهدايا والنقود إلى أصـدقائـه في إستانبـول عن طريق بعض الأرمن، أرسـل أيضاً ضيـا بـك (باشا) الهدايا من سوريا. وكان حريصاً على ظهور مقـالاته التي يكتبهـا بدون توقيـع في صحافة إستانبول. لا أستطيـع أن أعرف بالضبط مـدى الحد الـذي كان يباشر به أعماله في ولاية سوريـا، لكنني أعرف يقيناً أنه كـان يرسـل إلى بعض الأشخاص في إستانبول من عشرة إلى خمسة عشر خطاباً في اليوم.

ذات يـوم وصل ضيـا باشـا إلى أزمير وأدلى بحـديث إلى محرِّر إحـدى الصحف الأجنبية قال فيه، وبطريقة مستهترة، كلاماً خارج حدود الأدب قـال: (السلطان في البلاد التي تُدار بالقانون الأساسي خادم للأمة).

أعـرف أن الحاكم في كـل أمـور الحكم يكـون في خـدمـة أمتـه وليس (خادماً) لهـا. والحاكم في البـلاد التي تُحكم بالقـانون الأسـاسي (الدستـور) يحيل قسماً من اختصاصاته الخاصة بالأمة على المجلس الذي أقـامه. وليس في هذا عمل من أعمال الخدم.

وضيا بك هذا الضالّ المتغطرس يقول هذا ويعمل على تحقيـر السلطنة ويتطاول عليها. والمعروف أن السلطنة حرست الدولة العثمانيـة حرصهـا على

إنسان عينها. وكان الصدر الأعظم في ذلك الوقت هو مدحت باشا. أغمضتُ عينيَّ وبدوتُ كأني لم أسمع شيئاً حتى لا تتصعد المشكلة.

ولكن عندما وجدتُ أن ضيا بك (باشا) من خلال صحف إستانبول ــ يجمع عن طريق مؤيِّديه عدة آلاف من التوقيعات لكي يصبح نائب أمة، أخطرت الصدارة العظمى بمذكرة جاء فيها: (إنني لا أجد من الصواب أخذَ شخص في المجلس سبق له أن أساء بتصرفاته إلى حاكمه).

يريدون اتخاذ هذه المذكرة وثيقة على استبدادي.

يا تُرى: لو أن شخصاً في إنجلترا حقَّر المَلِك ــ الذي يتيه به مدحت باشا ورفاقه إعجاباً ــ وحقَّر الملكية، فهل يُقابل هذا الشخص بالتصفيق أم بالاعتراض عليه؟

مدحت باشا طلب مني عزل غالب باشا ناظر المالية، في حين أن غالب باشا رجل دولة اعتاد التعبير عن أفكاره بكلام صريح ومباشر، ولم يكن يخطىء في كلامه بحيث يخرج فيه عن حدود الأدب.

والكلمة التي أقولها عن ضيا بك: (فليعفُ الله عن ذنوبه!)

١١ مارت ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

المشكلة الأرمنية

أحضر لي مرافقي أول أمس كتاباً صغيراً باللغة الفرنسية عنوانه «إلى ذكرى بيير كيار» وهو كتيِّب يحتوي على هجاء ومديح. والممدوح هو (بيير كيار)، والمهجوّ هو (أنا).

أعرف بيير كيار اسماً، فقبل ثلاث وعشرين سنة قدم إلى إستانبول وكان مدرِّس الفساد في المدارس الأرمنية، ثم ترك إستانبول بعد أن قضى فيها ثلاثَ أو أربع سنوات.

شيء غريب كان بيير كيار هو الذي أطلق عليَّ لقب «الحيوان الأحمر». كنت أعرف الكلمة ولكني كنت أجهل قائلها. وبقدر ما أحمل من أوسمة أجنبية بقدر ما سُمِّيتُ بأسماء أُطلقت عليَّ من هذه البلاد الأجنبية.

لست غير محق أن أفخر بهذا. لقد عرفتُ من هذا الكتاب سبب تسميتي بالحيوان الأحمر. الذي عرَّفني بهذا خُطبٌ حماسية لخطيبين أرمنيين اسمهما: (أهارونيان) و(جوبانيان).

ورغم أن هذا الكتاب الذي أحضره لي مرافقي عبارة عن هجاء ضدي كتبه بعض الأدباء الفرنسيين من المشهورين ومن المغمورين على شكل خطب، إلاَّ أن الحيوان الأحمر يريد أن يسمع ويعرف ليس من أعدائه الخارجيين وإنما من أعدائه في الداخل. لماذا هو مفترس؟ لأن هذا أكثر ثقة وأقرب إلى الاطمئنان. يقول أهارونيان أفندي ومسيو جوبانيان معاً: إن بيير كيار جاء إلى إستانبول عام ١٨٩٣م معلماً في المدارس الأرمنية. ألقى على الشباب الأرمني دروساً في الفلسفة وتاريخ الأدب لكنه أحرز نجاحاً كبيراً في تلقين الثورية والإيمان بها. أصبح من الواجبات المباركة للجماعة الأرمنية أن تذكر بالامتنان والشكر اسم بيير كيار في كل مسألة تطفىء كيان المجتمع الأرمني وتريق دمه، مثل مسألة صاسون ومسألة زيتون ومسألة البنك (المصرف).

اشتبه رجال الأمن فترة في هذا الفرنسي الذي يعمل لحساب الأرمن. ومع أنهم قبضوا عليه إلاَّ أني أخليت سبيله بعد تدخل السفارة الفرنسية. لم يخطر على بالي في الواقع أمر كهذا ولا تدخل أيضاً. خرج بيير كيار من السجن، وترك إستانبول عندما وجد نفسه غير آمن، لكنه أقسم إن لم يكن هناك عليه خطر قط من ناحيتنا، وكان هو يعلم بهذا جيداً، وترك الأرمن الذين أحبهم كثيراً. تركهم في حفظ جناب الله وصَوْنه ثم في مرحمتي وشفقتي،

وسافر. قال هذا الكلام مسيو أوهارونيان وجوبانيان أفندي وكثير من الفرنسيين.

هذا الفدائي الذي ثار باسم الشعب الأرمني المظلوم، أي بيير كيار، ترك راتبه في إستانبول ـ وهو على كل حال ليس كثيراً ـ واختار العودة إلى فرنسا. وأشاع الأخبار عن مذابح الأرمن.

حتى ذلك الوقت كانت أوروبا العظيمة! غير دارية بهذه الفجائع وحكومتها تتلقى هذه الحوادث بصمت مطبق. لست أنا قائل هذا الكلام وإنما قائلوه كثير من الخطباء والأدباء الفرنسيين كذلك، ومن الأرمن أيضاً، بل إن حسين جاهد بك كان من بين المشتركين في حفل التكريم الذي أُقيم في إستانبول (تكريم بيير كيار) وسمع بنفسه هذا الكلام.

ذهب بيير كيار إلى أوروبا، وخاطب دنيا الإنسانية التي لا تبالي بشيء قط!! خاطبها وحدثها عن حوادث الأرمن التي تمزق القلوب!! ولم يكتف بهذا، ولكنه لكي يستطيع أن يُطَمْئِن الرأي العام الأوروبي على محبته للأرمن وبدافع من عشقه هذا ـ عمل مخابراً [مراسلاً صحفياً]لـ (إيللو ستراسيون). واشترك كفدائي في الجيش اليوناني وبالتالي حارب الأتراك [والعثمانيين]. وهذا أيضاً موجود في الكتاب.

ويسألُ الإنسان الذي أرادوا تحقيره بلقب «الحيوان الأحمر»(١) [وهو أنا] كلَّ كائن من بني الإنسان قائلاً: لو قام مثلاً عبيد الله أفندي الأزميري وذهب إلى الهند فرأى أن المسلمين ـ وهم هناك ليسوا أقلية، وليسوا أيضاً بالأكثرية بل يشكلون الغالبية العمومية ـ لا يملكون من الحقوق السياسية مثلما تملكها الأقلية الأرمنية عندنا، ورقَّ لحال هؤلاء المسلمين وحزن من أجلهم وقال

(١) يقصد صاحب المذكرات نفسَه، هنا. [توضيح م. ح.].

لهؤلاء المساكين: (إن لكم حقوقاً كألّا تكونوا محرومين وألّا تُظلموا، وألّا يقع أيّ ضير عليكم، وألّا تكونوا مقهورين)، لو قال هذا وأصرَّ عليه فهل يقدم الحاكم العام للهند ــ وهو من رؤساء الوزراء المعروفين بأنهم من أعظم الناس إنسانية وإحقاقاً للحق ــ هل يقدم الشكر لعمامة فقيهنا التركي؟

١٢ مارت ١٣٣٣ [رومية]

قرأت اليوم الأسطر التي كتبتها بالأمس. مرَّت ثمانية أعوام وأحد عشر شهراً منذ انسحاب سلطان جلادستون الأحمر من مسرح التاريخ[١]، يا ترى ما بال مواطني الأرمن؟ هل هم أكثر سروراً في حاضرهم وهل هم أكثر أمناً على مستقبلهم؟[٢].

١٣ مارت ١٣٣٣ [رومية]

أصحاب الكفر ملّة واحدة في تفتيت الدولة العثمانية

لم تكن المشكلة الأرمنية مشكلة الأرمن أنفسهم وأستطيع القول ــ وأنا مرتاح القلب ــ : إن الأرمن أفضل من يتبنَّوْن العثمانية[٣] وأفضل من

(١) يقصد السلطان نفسَه، هنا. [توضيح م. ح.].

(٢) أصدر الأرمن كتاباً في ست لغات ــ منها العربية ــ بعنوان القضية الأرمنية، مؤلِّفه كَرْسَام هارونيان رئيس تحرير جريدة «زار تونيك» الأرمنية. وفيه اتهام للسلطان عبد الحميد بأنه حاكم ديني وسفّاح، وأنه وقف ضدّ «نضال الأرمن التحريري» وأن السلطان عبد الحميد يتعامل مع ثورات الأرمن بوحشية. ويقول الكتاب: إن روسيا أمام هذا احتجَّت بشدَّة على الدولة العثمانية. والكتاب في نسخته العربية صدر في بيروت عام ١٩٦٥م.

انظر: جمال قوتاي، في تعليقه على مذكرات طلعت باشا، ج ٢ ص ٤٤٤.

(٣) المقصود بالعثمانية هنا، وحدة الدولة العثمانية بكل عناصرها العرقية والدينية والمذهبية. [توضيح م. ح.].

يمثلونها، لقد خدموا حضارتنا وعملوا على الحفاظ على دولتنا، وظهر فيهم عثمانيون ممتازون بخدماتهم وحسن صداقتهم ولم تكن للأرمن منا شكوى قط، ولكن الروس ـ لكي يصلوا إلى آمالهم في بلغاريا، ولكي يقطفوا من الإمبراطورية العثمانية قطعة جديدة ـ لفوا الأرمن حول أصبعهم احتواءً. أرسلوا جواسيسهم بصحبة قساوستهم ومعلّميهم إلى الأرمن، فألّبوهم علينا، وانغمس هؤلاء في المغامرة.

ليس هناك قوم يستريحون لضعف البلاد التي يرتبطون بها، لا أريد القول: إن الأرمن لهذا السبب ظلوا ساكتين مُتَعَقِّلين، من تلقاء أنفسهم، ولكن حيث إنهم لا يمتلكون قوة قط فإنهم ـ مثلهم في ذلك مثل الأقوام الأخرى ـ كانوا يستطيعون الانتظار لفترة أخرى، ولكن أعمال التحريك والفتنة دفعت بعضهم إلى الإسراع في التمرد.

لو أننا درسنا أصل الموضوع فإننا نرى أن الروس لم يكونوا يؤيدون قيام كيان أرمني مستقل «أرمنستان» في الأناضول، لأن في داخل حدودهم أرمناً يمكن أن ينادوا في هذه الحالة بالانضمام إلى هؤلاء الأرمن المستقلين.

---

(١) «معلوم أن الروس يدرِّبون مثيري الشَّغَب [من الأرمن] ضدّ الدولة [العثمانية]. في ذلك الوقت كان هناك في كل مدينة كبيرة رئيسية من مدننا [العثمانية] قنصلية روسية. وكانت روسيا تستفيد من المزايا التي منحتها لها دولتنا [العثمانية] من قديم [وهي الامتيازات الأجنبية]، فحوَّلت قنصلياتها [في بلادنا] إلى مخازن أسلحة. وكانت الدولة تعلم بهذا لكنها لم تكن تستطيع عمل شيء.
تركَّز النشاط الروسي في منطقة الروملي العثمانية وفي المناطق التي يعيش فيها الأرمن».
انظر: مذكرات الدكتور إلهامي مظهر التي نشرها مسلسلة في مجلة حيات ـ تاريخ ج ٢، السنة ٧٤، ص ٢٤.

حسـابات الـروس كانت عبـارة عن تقديم «أصبـع من عسـل» إلى أفواه الأرمن وإحداث غائلة في الأناضول.

لم يمضِ زمن حتى اشترك الإنجليز والفرنسيون في هذا. كانوا يريدون أن يصبحوا هم أيضاً أصحـاب كلمة في القـطعة الجـديدة التي ستقتـطف من الدولة العثمانية.

عاملت الأرمن
معاملة رحيمة، لكني
منعت تجمُّعَهم على فكر واحد

لم تُشَكَّـل أول جمعية ثـورية أرمنيـة، في الأناضـول، بل في بـاريس، وهذا يوضِّـح كل شيء. يعني أن رأس الفتنة كان في الخارج.

عملتُ كل ما في وسعي لسحق الفتنة وإنقاذ هؤلاء العثمـانيين الجيِّدين من الانحـراف إلى الطرق الخـاطئة. فمن جـانب بذلتُ لهم معـاملةً رحيمة، ومن جانب آخر استخدمتُ النزاع القـائم بين الأرمن من أرثوذكس وكـاثوليـك ومنعت ــ لفترة طويلة ــ تجمعهم على فكر واحد.

كان الفرنسيون يحمون الكاثوليـك، ويسانـد الروس الأرثـوذكس. كنتُ أحياناً أقف مـع هؤلاء، وأحياناً أخرى مـع أولئك، ولكني لم أنسَ قط أنَّ كلا الفريقين من الرعايا العثمانيين، إنما جهدتُ أن أحول بينهم وبين تحرُّكهم.

حـطَّموا أولاً كيـانهم ثم استداروا واعتَـدَوْا على المسلمين، كنت أعلم ــ كما كان العالم كله يعلم ــ هذه اللعبة، لقد لعبوها وحاولوهـا في بلغاريـا، وانتهت بحصـول بلغاريـا على استقلالهـا الذاتي، لـذلك حـاولت عن طـريق قوات الأمن الحيلولة دون وقوع صدام بين الأرمن والمسلمين.

طريقة الغرب
في فصل أجزاء الدولة العثمانية

هدف الأرمن إثارة المسلمين واستفزازهم للاعتداء عليهم. ثم يُقيمون العالم ويُقعدونه بحيث تتدخل الدول الأوروبية لتقول: إن الحياة بين هذين العنصرين [المسلمين والأرمن] مستحيلة، ولذلك لا بدَّ من الاستقلال الذاتي [للأرمن]. لم تكن هذه الفتن التي يتولّى القساوسة والمعلمون والعملاء تحريكها ذات أهمية في مبدأ الأمر، فكثير من الأرمن العثمانيين لم يقابلوا هذه الأعمال بترحيب. ولمّا لمست الجمعيات الثورية هذا، أخذت تقيم المذابح العامة، لكي تجبر هؤلاء الأرمن الشرفاء من تبعتنا على مسايرتهم. هؤلاء الأرمن الشرفاء كانوا في حيرة وفي خوف سواء من الحكومة أو من الجمعيات الأرمنية. ما حدث بعد ذلك أن بدأ هؤلاء أيضاً في إمداد أعضاء تلك الجمعيات بالمساعدات وحمايتهم.

كانت هذه هي الصفحة الأولى من هذه اللعبة.

أما الصفحة الثانية فكانت أن ارتدى بعض الأرمن زيّ الأتراك، وراحوا يقتلون مواطنيهم الأرمن الذين يحجمون عن مساعدتهم، ثم يقولون: (ألا ترَوْن الأتراك وهم يقتلوننا، وأنتم حتى الآن ما زلتم بعيدين عنا؟). هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كانوا يدخلون القرى التركية ويمارسون ضد الشعب المسلم فيها مختلَفِ أنواع القتل والتعذيب، من تلك: شق الجسد بالسكين، وحشوه بالبارود ثم إشعاله.

كان الذين يثيرون هؤلاء الأرمن حريصين على مداومة إثارتهم، وخاصة في منطقة (صاسون).

ولكي أخمد هذا النزاع بين الأرمن والمسلمين: أرسلت الجيش بقيادة المشير زكي باشا، إلى هذه المنطقة للعمل على سحق التمرُّد.

هرع سفراء الدول الكبرى، الواحد تلو الآخر إلى القصر، قائلين: إن من الظلم قتل هؤلاء الأرمن المساكين. وكان السفير الإنجليزي على وجه الخصوص، يريد تشكيل لجنة تحقيق فوراً، وقال بإرسال ملحق عسكري إنجليزي إلى مكان الواقعة ليقوم بدور الريادة لهذه اللجنة.

حينئذٍ قلت لجميع السفراء ـ ولا سيما السفير الإنجليزي ـ بلهجة حادة: إنَّ هذه مسألة أمن داخلي، وإن الجيش يطهِّر هذه الأماكن من المجرمين، ثم أضفت قائلاً: ولن أسمح بإرسال ملحقين عسكريين، فإن ظهور ضابط إنجليزي في هذه المنطقة سيثير النزاع من جديد بين الشعب الذي هدأت أحواله.

خرج السفير الإنجليزي من عندي والحيرة والدهشة تغلبانه.

إنجلترا تثير المسألة الأرمنية، لإبعاد الرأي العام العالمي عن مصر

كنتُ أعلم في تلك الأيام بأنباء تصادم إنجلترا وروسيا في الشرق الأقصى، فلا روسيا ولا إنجلترا، ولا أيضاً فرنسا التي تعمل حساباً لألمانيا يستطيعون التدخُّل بشكل جدِّي، وبالفعل لم يتدخَّلوا، ولكن إنجلترا بذلت أقصى ما في وسعها بعد ذلك بسنوات لإثارة المسألة الأرمنية، لكي تبعد عن الأذهان أعمال تدخُّلها في مصر. وكانت تعمل جاهدة على تركيز انتباه العالم على الدولة العثمانية.

وعندما عرف الأرمن أنهم لن يستطيعوا الوصول إلى مبتغاهم بالأعمال التي قاموا بها في الأناضول: دفعوا بعصاباتهم وجمعياتهم إلى إستانبول، وعملوا على إثارة المتاعب فيها، ونجحوا في هذا، لكن الدول الكبرى كانت تعرف أني لن أعطي الاستقلال الذاتي لهؤلاء الأرمن المبَعثَرِين الذين

لا يكوِّنون أكثرية في أي مكـان قط. وكانت تعـرف أني سأستـطيـع أن أضـع عينيَّ على كـل شيء، وهم يفتقدون القـوة التي تساعـدهم على دخـولهم في حرب، بسبب ما بينهم من تنافس. لهذا كـانت المسألـة الأرمنية مقلقـة للدولة [العثمانية] لأن هذه المسألـة فتحت الباب للدول الكبـرى للتدخـل في شؤون بلادنا حتى السنوات الأخيرة.

الصحف الأوروبية ضدِّي

لكن الصحف الأوروبيـة كـانت تضـع بصمـاتهـا على هــذه المسـألــة أيضاً. كانت تكتب عنها بشكل دائم، وتهاجمني وتلقِّبني بالسلطان الأحمر، وكانت تحرِّض الرأي العام العالمي ضدّي. وهكذا أصبحت المسألـة الأرمنية من المسائل التي تشغل الرأي العام العالمي، لكنها لم تكن بالمسـألة الجـادَّة دولياً. وفي هذا كان لسعيد باشا خدمات كبيرة.

«تركيا الفتاة» تتعاون مـع الأرمن في الخارج ضدّي

لم أكن أدهش لهيام الأرمن بحبّ الاستقلال، وخاصة بعـد معرفـة إثارة الـدول الكبرى لهم بـلا توقُّف، لكني أدهش لأن بعض أفـراد «تـركيـا الفتـاة» الذين هربـوا إلى أوروبا وأصـدروا هناك صحفـاً ضدّي، كـانوا يتعـاونون مـع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية، كما أدهش لأنهم كانوا يـأخذون منهم أموالاً أيضاً.

كـانوا يقـولون: إنهم يـريدون إنقـاذ الدولـة العثمانيـة من التمـزُّق، ثم يتعاونون مـع الذين يعملون على تفتيت الدولة ويتعاهدون معهم.

تُرى: إلى أي مدى كان يصل بهم الأمر لو لم أُوقِـعُ بينهم؟

هل قيام دولة أرمنية في بطن الأناضول شاهد إثبات على وطنيتهم؟!(1).

أسجّل هذا للاعتبار به، ولمعرفة من يكون صديقاً لمن ناصبوني العداء.

وبينما يبكي الوطن اليوم أجد التفكير فيهم أمراً يؤذيني ويغمّني.

إنهم لم يهدموا عبد الحميد.

ها هم قد هدموا الدولة العثمانية!!

١٤ مارت ١٣٣٣ [رومية]

من الخارج: أسقَطوا عمّي ثم أسقَطوني

كم هو تجلٍّ غريب: أن يصل العثمانيون الجدد ـ الذين هربوا إلى أوروبا ـ إلى مرامهم بإسقاط عمّي السلطان عبد العزيز؟ سقط السلطان عبد العزيز، وقامت بعده فوراً الحرب الروسية ـ العثمانية عام ٩٣ [رومية]، فأخذَت معها نصف منطقة الروملي. ومثلهم تماماً الأتراك الشبان (= تركيا الفتاة) الذين هربوا إلى أوروبا لإسقاطي ووصلوا إلى مبتغاهم بإسقاطي، ثم دخلوا الحرب العامة فأضاعوا الإمبراطورية العثمانية.

كل من الفريقين تعلّم في داخل البلاد. كل من الفريقين أيضاً كان معجَباً بالغرب. كل من الفريقين كان يرى الخلاص الوحيد للبلاد بتركيز جهودهم في المشروطية، كل من الفريقين اتّخذ جزءاً من الجيش لتحقيق آماله. والجيش الذي اعتمد عليه كل من الفريقين متمزِّق الأوصال من الداخل.

نعم. كم هو تجلٍّ غريب جداً أنني عشتُ أحداث الحادثين. جرَّبتُ

---

(1) المقصود هنا أعداء السلطان عبد الحميد من أعضاء حزب «تركيا الفتاة» التي تطوَّرت فكرته فيما بعد إلى جمعية «الاتحاد والترقّي». [توضيح م. ح.].

بالصبر ما لم يستطِع عمّي عمله بالغضب. وعملت أنا على الصفح والعفو فيما لم يستطِع عمّي النجاح فيه بالعقاب.

أنظر إلى تجلٍّ أكثر غرابة: العثمانيون الجدد وتركيا الفتاة كانوا يؤازرون جميعهم الدول الكبرى التي ترغب في تمزيق أوصال الدولة العثمانية وتفتيتها. كان هؤلاء الشباب أمل الدول الكبرى!! لو نفذوا ما تشاءه هذه الدول، فإن هذا خلاص الدولة العثمانية!! وإذا لم تكن آذانهم صاغية لأقوالها، فإن في هذا زوال الدولة العثمانية!!![1].

وفي المرتين انهزمنا، مع أننا نفذنا ما أرادته. فعلنا ما قالته هذه الدول فهل تفتّحت بعد كل هذا أعين الذين يعيشون في آخر حفنة [بقيت لنا] من تراب الوطن [العثماني]؟ أرجو الله هذا.

أولادي!! هم هؤلاء الأبناء الذين أعدّهم هذا الوطن، وقد جابوا هذا العالم الكبير، فكيف لم يفطنوا إلى الحقيقة التي رأيتُها وأنا في قصري بين أربعة جدران؟!

الأوروبيون أعداء
لكنهم حلفاء في معاداة العثمانيين

كيف لم يفطِنوا إلى أنهم أغرقوا بأيديهم بلداً عظيماً هائلاً روته دماء الأجداد؟

لا أجَرِّم أحداً، ولكن كانوا بأنفسهم يرون أن الإنجليز والفرنسيين والروس، وحتى الألمان والنمسويون، أي كل الدول الأوروبية الكبرى،

(١) يتهكّم السلطان عبد الحميد على تبعية الشباب الثوار للدول الأجنبية المعادية لوطنهم. [توضيح م. ح.].

وجدت مصلحتها في تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها، كانوا أعداءها، والمشاهد أن هذه الدول الكبرى ينهش بعضها في بعض، لكنها سرعان ما تتفق وتتحالف إذا ما تعلّق الأمر بمقاتلة العثمانيين.

أمّا ما لا تتفق هذه الدول فيه فهو: من سيحصل على نصيب أكبر من أراضي الدولة العثمانية؟

ألم يستطع شباب تركيا الفتاة فَهْمَ معنى مؤازرة هذه الدول لبعضها كما حدث في أفكار بعينها؟

قلت، وسأقول: شرحتُ وسأشرح مسألة هامة وهي: ألم يكونوا يفكرون أنَّ الدولة العثمانية دولة تجمع أمماً شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد. هل في البرلمان الإنجليزي نائب هندي واحد، أو إفريقي أو مصري؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟ وهم يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار والصرب والعرب في البرلمان العثماني.

لا، لا أستطيع أن أقضي على ابن الوطن الذي تعلّم وفكّر ووهب نفسه لقضيته. أقول: إن شباب تركيا الفتاة وببساطة قد خُدعوا.

ساعدتُ المعارضين مادياً، لكي تكون معارضتهم شريفة

خُدعوا ولكن عدة ملايين من أبناء الوطن الشرفاء الذين لم يُخدعوا عانَوْا الكثير، أكثر منهم أنفسهم، قُتلوا وشُرِّدوا.

هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «تركيا الفتاة» كانوا في الأصل ثلاثة أشخاص أو خمسة وهؤلاء عملوا ضدّي عدة سنوات في أوروبا. تكلّموا، خطّطوا، كتبوا. كل ذلك قبل أن يفكّروا أنَّ العمل ضدي معناه

أيضاً: العمل ضد الوطن. كانت صحفهم التي يُصدرونها تأتي خفية إلى البلاد عن طريق البريد الأجنبي وتوزَّع بواسطة الأجانب. مَضَتْ أعوام ولم تحدث إثارة جدية هامة لهذا، لأنها لم تكن أعمالاً تنبع من أفكار جدية هامة.

ورغم هذا، فإني كنت على صلة بهم. وحتى لا يتورَّطوا في شيء نتيجةً لإفلاسهم ــ وهم في بلاد أجنبية ــ فقد بذلت لهم مساعدات مادية كبيرة بحجة شراء صحفهم. وأغمضتُ عيني عن إرسال بعض الأشخاص للنقود إلى البلاد، لكي لا يكونوا أداة للأجانب، وكنت أقول: إن معارضتهم ــ رغم خطئها ــ فإنها يجب أن تظل شريفة.

هناك أيضاً بعض الأسباب التي دفعتني لذلك. أحمد رضا بك ــ وكان مديراً للمعارف في بورصة ــ سافر إلى أوروبا بحجة الدعاية للمنتجات الحريرية البورصوية في معرض باريس الذي افتتح بمناسبة مرور مائة عام على الثورة [الفرنسية]. فذهب ولم يعد، ومن هناك أرسل لي لائحة إصلاحية. قرأتها ولم يكن فيها شيء فهو لا يعرف البلاد، ولا يعرف ما يمكن أن تفعله هذه المقترحات. لذلك أهملتها.

بدأ [أحمد رضا بك] بعد ذلك يصدر مجلة ــ مَشْوَرَتْ ــ وطلبتُ من سفيرنا في باريس أن يتحرّى عن وسيلة تعيشه. أجابني بأنه يُلقي دروساً في اللغة التركية ويتعيَّش عن طريقها، وأنه يصدر صحيفة ويتحمل نفقاتها.

إنه ساذج ولا يصدِّقه أحد، حتى ولا جارية بسيطة ساذجة لم تشترِ في حياتها رغيف خبز واحد من مخبز. وبدأتُ أرسل له نقوداً بطرق مختلفة، فليس هناك حلّ آخر.

الروائي
محمد مراد بك
وصحيفة الميزان المصرية

وهنا أتحدث قليلاً عن مراد بك المشهور بالميزانجي، وهذا أيضاً عجب آخر. مراد بك هذا أتى من قفقاسيا وهو في مقتبل الشباب. مرّ بإستانبول وكان أول باب طرقه في إستانبول ــ وهو في طريقه إلى القرم للدراسة ــ باب قصر مدحت باشا.

وسريعاً ما قابله مدحت باشا واستمع إليه ثم أرسله بخطاب إلى رشدي باشا. اشتغل مراد بك فترة في ديوان رشدي باشا، وبعد موت الباشا أصبح [مراد بك] مدرساً للتاريخ في المدرسة الإعدادية. كان المعروف عنه تأييده للسياسة الإنجليزية. وعندما أبعدتُ سعيد باشا عن الصدارة العظمى، وهو المعروف بتأييده للسياسة الإنجليزية، بدأ مراد بك في إصدار جريدته «ميزان»، كان ينشر فيها مدائح لي، لكنه كان يهاجم بعنف رجالَ الدولة الذين عيَّنتُهم في الوزارة. أغلقت الحكومةُ جريدتَه بعد سنوات، فحَمَيْته وعيَّنته في إدارة الديون العمومية.

وهرب ذاتَ يوم إلى روسيا، ومن هناك توجَّه إلى أوروبا، وفي لندن قابل اللورد سالسبوري، ثم استطاع الحصول على تصريح بإصدار جريدته «ميزان» من مصر، ثم ذهب إلى أوروبا مرة أخرى وأخيراً، وبوساطة أحمد جلال باشا، عاد إلى إستانبول مرة أخرى.

لا أَوَدُّ الحديث عن كيفية معيشته أثناء هذه الفترة، ولا عن كيفية استطاعته القيام بهذه الرحلات الطويلة، ولا جبهة تمويل جريدته.

المحافل الماسونية
تساعد أسر وعائلات الثوار ضدّي

رأيتُ خطاباً تسلمه أحمد جلال الدين باشا من علي كمال بك في مصر، وغالباً ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر يلديز، فيه أسماء ومصادر التمويل اسماً اسماً. وفي هذا الخطاب أيضاً يذكر أن الدكتور عبد الله جودت، والدكتور إسحق سكوتي، والدكتور بهاء الدين شاكر، والدكتور ناظم، والدكتور إبراهيم تيمو، ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية[1] إن هذه المحافل تُسلِّم عائلاتهم الموجودة داخلَ البلاد النقود يداً بيد. هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكِّدة لهذه المعلومات.

الماسونية تجعل من المتسكِّعين أعلاماً

وكما قلت من قبل: إن الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها ورجال الجمعية الذين يجوبون هذه البلاد، لم يُخرجوا للبلاد كاتباً جادّاً واحداً. ولكنَّ محافل الماسونية ــ رغم كل تعقُّبنا لهم ــ جعلت من هؤلاء المتسكِّعين أعلاماً. عندما حرَّكوا الضباط من أعضاء «الاتحاد والترقِّي»، وتلك هي قصة «تركيا الفتاة» وجمعية «الاتحاد والترقِّي»[2].

---

(١) ثبت انتماء هؤلاء القادة والمؤسِّسين لجمعية «الاتحاد والترقِّي»، إلى الماسونية، بوضوح وصراحة في مذكرات إبراهيم تيمو مؤسِّس حزب «الاتحاد والترقِّي» والعضو رقم (١) فيه، وهي المذكرات المطبوعة في رومانيا عام ١٩٣٩م. وطبعت في إستانبول عام ١٩٨٧م.

(٢) كانت جميع شُعَب «الاتحاد والترقِّي»، سواء تلك التي تكوَّنت في العاصمة (إستانبول) أو في المراكز والبلدان الأجنبية، في حماية الدول العظمى. الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ١١٢.

نعم، هذه هي الحكاية حكايتهم، ولكن النتيجة نشاهدها اليوم بكل أسف أمام أعيننا.

سيقولون لي: إنك تعلم كل هذا، ومع ذلك لم تتصدَّ له ولم تمنعه. لماذا أغمضتَ عينيك عن خراب الدولة وانهيارها؟ حاشا!

ليست المسألة مسألة إغماض عين. لقد كنتُ يَقِظاً في كلّ لحظة. لكني لم أكن أستطيع منع هذا. كنت بمفردي وكان معهم كل عالَم العدوّ. لم تكن طبيعتي وظروفي تساعدني إلاَّ بهذا القدر.

يدينني أصدقائي بأنني متساهل، أمَّا أعدائي فيقولون إني ظالم غدّار.

والجانبان مخطئان، فلا أنا كنت السلطانَ سليم الأول، ولا بلاد السلطان سليم الأول كانت تحت إمرتي.

الإطاحة فوراً بعدة رؤوس؛ كلام من السهل قوله، من الصعب تنفيذه، وكلّ رأس إنسان تفتح أمام الإنسان هُوَّة، ولو استطعتَ أن تملأ هذه الهوَّة فسيخافون منك، وتستطيع عندها أن تهدِّد، وكل ما تهدد به سينفذ. وفي حالة عدم تغطية هذه الهوَّة، فليس هناك شيء قط يمكن عمله، وأنا إنسان رحيم منذ ميلادي ولكني أعلم أنَّ الدولة لا يمكن أن تُدار بالرحمة.

كل ما استطعت عمله عَمِلته، ولو كان السلطان سليم الأول سلطاناً في عصرنا لكان يمكن أن يعمل مثلما عملته أنا.

أدَّيتُ واجبي، وسعيتُ وراء الصالح، وحرصت ألاَّ أوذي الأهالي، عارضتُ سفك الدماء في كل مكان، ولكن عبثاً ما فعلته.

ليس ما قدَّمته لأعضاء «تركيا الفتاة» شفقة، فبلادي أضحت ضحية لغفلة هؤلاء الأتراك الشباب، وإنها لغفلة لا يمكن الصفح عنها.

١٧ مارت ١٣٣٣ [رومية]

عزلوني قبيل تحقيق هدفي الكبير

سألني مرافقي: لماذا توقفت عن الكتابة منذ يومين؟

أفكر، أفكر في مسار وطني. من أين وإلى أين؟

بلاد عظيمة فاتحة للعالم تمتدّ عبر قارات ثلاث، أصبحت في مدى عشر سنوات حفنة من تراب.

من سَبَبُ البلاء وماذا يُجدي لو عرفناه؟ ماذا يُجدي هذا بعد أن خسرنا وطننا؟

منذ أربعين عاماً وأنا أنتظر أن تشتبك الدول الكبرى مع بعضها البعض. كان هذا كلُّ أملي. كنت أرى أن سعادة الدولة العثمانية مرتبطة بهذا. وجاء ذلك اليوم الذي كنت أنتظره، ولكن... هيهات فقد أبعدوني عن العرش، وابتعد الذين حكموا البلاد بعدي عن العقل والتبصُّر. الفرصة العظيمة التي ظللتُ أربعين عاماً في انتظارها ولَّت وأفلتتْ من يد الدولة العثمانية إلى الأبد.

جاهدتُ لكي لا يعزلوني عن العرش طوال ثلاثين عاماً، وجهادي هذا كان من أجل هذه الفرصة. حبست الأسطول في الخليج ولم أخرجه ولو للتدريب، وحبسي له كان من أجل هذه الفرصة. تجاهلت الحرب اليونانية لكي لا أدع للإنجليز منفذاً للاستيلاء على كريت، وتجاهلي هذا كان من أجل هذه الفرصة. بمعنى آخر: إن كل مجهودي قرابة ثلاثين عاماً، بصوابه وبخطئه، إنما كان من أجل هذه الفرصة.

وحفظت هذا السرَّ في نفسي أربعين عاماً.

وسأوضِّحه لأحفادي لكي يعرفوني. لم أفاتح فيه أحداً حتى مع أكثر

صدوري العظام ثقة لأني تعلمت بالتجارب أن شيئاً يعرفه اثنان يخرج عن كونه سراً. ولذلك كان من ألزم الأمور ألاَّ يَعرف مقصدي هذا أحد، وألاَّ تحس به الدول الأجنبية.

كان تقديري أنَّ استخدام العثمانيين لفرصة كهذه في وقتها، وبتبصُّر، كفيل بأن ينقذهم. فيعيدون لدولتهم مكانتها في مصاف الدول العظمى.

ولكي أوضح كيف وصلتُ إلى هذا الاقتناع، يجب معرفة أحوال العالم وأحوال الدولة وقت اعتلائي العرش، لم أصل إلى هذا الاقتناع في تلك الأيام. وإنما اقتنعت بهذا بعد أن خسرنا حربنا مع روسيا عام ٩٣ رومية. وبعد أن لمست عن قرب أطماع الدول الكبرى في بلادنا، في هذه الحرب.

لم تكن لدينا قوة تساعدنا على أن نعيش ونقاوم بأنفسنا قط. إذن فلو حدث تصدع في صفوف أعدائنا المتوحِّدين من أجل تمزيقنا إلى أجزاء، ولو أمكننا أن نصبح قوة لا تتراجع عن جزء من أجزاء البلاد، لأصبح من الممكن أن نكون مرة أخرى أصحاب كلمة مسموعة في العالم.

سرّ سياستي

كان الواضح أن التنافس بين الدول الكبرى، سيجرُّها أخيراً إلى التصارع والتصادم فيما بينها. وعلى هذا، فإن الدولة العثمانية أمام تصارع وتصادم كهذا، تصبح بعيدة عن أخطار التمزق والتقسيم. ويوم التصادم [الدولي] سيوضِّح قيمتها بين الدول[1].

هذا هو سرّ سياستي التي استمرت ٣٣ عاماً.

---

(١) أي قيمة الدولة العثمانية. [توضيح م. ح.].

قصر بَيْلَرْبَى
في ١٨ مارت ١٣٣٣ [رومية]

العقلاء يتألمون لحال الدولة

عندما اعتليت العرش بعد استشهاد عمي واختلال عقل أخي مراد، أصبحت أواجه مشاكل كبيرة في الداخل والخارج. العاصمة كانت تموج بالاضطرابات، ففي وقت قصير، أي خلال أشهر قليلة، أُسقط سلطانان: استُشهد أحدهما وجُنَّ الآخر، وكان لبعض كبار ضباط الجيش ورجال الدولة ضلع في العمليتين وأذنبوا في هذا. كانوا يقبضون على زمام الأمور في الدولة، ومع ذلك كانوا خائفين. وحّدوا صفوفهم في سبيل غايتهم، وهي الهدم، ومع ذلك لم يكونوا عارفين بما سيعملونه. كان عوني باشا زعيم عصابتهم. أسقط من على العرش، الشخص الذي نفاه، ثم تسبب في قتله واستشهاده وصل حسين عوني إلى غايته، لكنه كان مضطرباً، فأصدقاؤه الذين شاركوه هذا العمل يضربون على وتر مختلف. مدحت باشا ورفاقه يهيمون بتجريد القصر من كل حقوقه. لم يكن الصدر الأعظم رشدي باشا يستطيع الثقة في كلا الجانبين، ومع ذلك لا يستطيع الابتعاد عنهم. كانوا كثيراً ما يجتمعون في القصور يتحدثون، لكنهم لم يكونوا بمستطيعين التوصل إلى قرار.

وكبار رجال الدولة البعيدين عن هذا كانوا يرون ما يحدث وهم متألِّمون. بعضهم جاء إليَّ طالباً مني منعَ ما يحدث، لكني كنت على غير قرار. فمدحت باشا يبدو أمام الشعب [في صورة] المنقذ، وتعاضده الدول الأوروبية. كان مسايراً لوجدان الشعب. وكان مسايراً أيضاً لسياسة الرأي العام الأوروبي وعقليته في تلك الأيام. . كما أني أسهمتُ في تأييده وتدعيمه عندما عيَّنته صدراً أعظم.

الوضـع المالي في الدولة

أما عن الوضـع المالي، فالبلاد مثقلة بالديون. الـدخل يقـلّ عاماً بعد عـام، والإنتاج المحلي كـان يضمحلّ يـوماً بعـد يـوم، فقـد كنـا، منـذ فتـرة التنظيمات، نـأتي بكل أشيـائنا من أوروبـا. المنسوجـات الأروبية غـطّت كل مكـان. أضحت عدة مصـانـع في طريق الـزوال، وهبط دخـل الجمـارك إلى الحد الذي لا يُجزىء بسبب تلك المعاهـدات المعقودة مـع الـدول الكبرى. لم تعد تكفينا زيوتنا. الـطرق غير مـوجودة. التخـابر صعب. وبـدأ الأمر كـأن أراضي الدولة تُركت لأقدارها.

حقيقـة أن مدارس جـديدة قـد افتُتحت بكثرة، وتم ابتعـاث عدة شبـان ليتعلّمـوا في أوروبـا. ولكن لا المتخـرجـون من هـذه المـدارس، ولا أيضـاً المبعوثون العائدون من الخـارج، استطاعـوا أن يملأوا وظـائف الدولـة. كان القسم الأعـظم من وظائف الـدولة في يـد الأقليـات. وبالتدريـج بـدأ الشبـان يتولَّوْن الأعمال، ولا سيَّما في وزارة الخارجية، ولكن كان في هيئاتنـا التمثيلية في الدول الأوروبية موظفون من أصل رومي في سفارتنا يُفَضِّل بعضهم خدمة اليونان وإعلاء مصالحها على مصالـح الدولة العثمانية.

كان الصَّـليب يتَّحـد وكان الهلال بمفرده

وإنها لحقيقة أن الجيش والأسطول كانا قويَّيْن على عهـد عمِّي السلطان عبد العزيز. لدرجـة أن الروس كـانوا يجفلون عـادة من قوة الجيش مَثَلُهم في ذلك مثل الفرنسيين والإنجليز بالنسبة لقوة الأسطول. وفي حربنا مـع الصـرب والجبـل الأسـود لفتت الأنـظار فعـاليـة الجيش عنـدمـا سحق رجـالنـا، المتطوعين من الضباط الـروس. ولهذا السبب أيضـاً حاولـوا بقدر مـا وسعهم الجهـد إسقاط عمي من نـظر الشعب بالشـائعـات التي لفَّقـوهـا عن إسـرافه وسقوطه في الملذَّات، ووصلوا أخيراً إلى ما يأملون. وبهذا لم يتخلَّصـوا فقط

من السلطان عبد العزيز وإنما نجحوا أيضاً في تمزيق الجيش والأسطول اللذين بناهما. ذلك أنه كان فيهما ضباط يؤيِّدون الأسرة المالكة وضبّاط متمرِّدون عليها. ولم يكن كل فريق يثق بالآخر.

عندما توليَّتُ العرش لم أكن أعلم بهذه الحقائق، وإنما ابتدأت بمعرفتها واحدةً بعد واحدة بالتجربة، وأثناء الحرب الروسية ــ العثمانية، كما ظهر أمر آخر أيضاً هو: أننا نقف بمفردنا في العالم لنا أعداء، وليس لنا صديق. يمكن للصليب أن يتَّحد في كل وقت لكنّ الهلال دائماً بمفرده. كلٌّ ينتظر النفع من الدولة العثمانية ويُظهر لنا الصداقة، ولكن عندما لا يوجد فيها ما يأمل، سرعان ما يعاديها. ووضعت بالتالي سياستي على هذا الأساس: التوجه للعدوّ بسلاح العدو.

شرحتُ باختصار المشكلات التي كانت تواجهها الدولة العثمانية في تلك الأيام. وعليَّ أن أشرح الآن باختصار أحوال العالم في تلك الأيام أيضاً، لتظْهَر أسانيد سياستي التي اتَّبعتها خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً.

الشيء الذي لفت انتباهي بادىء ذي بدء في السياسة الخارجية وقت اعتلائي العرش، كان تأسيس الاتحاد الألماني بعد انتصار بروسيا على فرنسا. لقد استطاع بسمارك وهو رجل الدولة القدير أن يجعل من بروسيا الصغيرة ألمانيا عظيمة.

هذه الدولة التي وُلدت وأسرعتْ في التوسع في عدة أعوام، أفسدت توازن القُوَى في أوروبا. وأدَّت بالدول الأوروبية كلها إلى ضرورة إحداث تغيير كبير في سياستها الخارجية.

خففت فرنسا ــ المتنافسة مع إنجلترا في ذلك الوقت ــ من حدَّة تنافسها، وإن لم تتركْه وبدأَتْ في البحث عن طريق للتفاهم مع الروس لضمان أمنها. ولهذا السبب أيضاً بدأت تُراجع من جديد السياسة التي

تنتهجها تجاهنا. وبسبب هذا التخوُّف، أخذت في التأييد المتَّصل للروس في خلافاتهم مع الدول العثمانية.

وبدأ الروس يعملون حساباً للألمان، جيرانهم الأقوياء في الغرب. وأقامت النمسا سياستها من جديد دون فصل بين العدو والصديق. ولكنَّ إنجلترا وهي تعتمد على جُزُرها وعلى أسطولها القويّ المتفوِّق، لم تكن على وفاق كبير مع ألمانيا بسمارك، بل إنها أفادت من نزاع الدول الأوروبية الأخرى مع بعضها البعض، واتَّبعت طريق تأمين مصالح جديدة لها في أراضي الدولة العثمانية في البحر الأبيض وفي آسيا، وسلك جلادستون طريق إقامة دولة مسيطرة، بسياسة مؤدّاها «اعمل ما تستطيع عمله، واكسب ما تستطيع كسبه».

في العام الذي تولَّيتُ فيه العرش، كان الإنجليز قد استولَوْا على الهند وصرفوا جهدهم في تأمين سلامة طريق الهند. وكانوا يحاولون من ناحية أخرى الدخول إلى الصين وإلى آسيا الوسطى. حوَّل الروس أيضاً أنظارهم في تلك الأعوام إلى آسيا الوسطى، واستولَوْا على فرغانة وخانية خواقند، وأعقبوا ذلك بالاستيلاء على قيرغيزستان وتركستان وتاجيكستان، وكان التنافس بين الإنجليز والروس عظيماً في آسيا.

اليهود يطلبون مني فلسطين

وُلِدَت في أمريكا دولة فتية قوية وكانت إسبانيا قد أُخرجت من مستعمراتها. وانتظم يهود العالم، وسَعَوْا ـ عن طريق المحافل الماسونية ـ للعمل في سبيل الحصول على «الأرض الموعودة»! وجاؤوا إليَّ بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رَفضت[1].

---

(١) وردتْ في مذكرات هرتزل معلومات مفصَّلة في هذا الموضوع، نشير إلى ثلاث منها توضِّح موقف السلطان عبد الحميد من قضية فلسطين: =

. . . .

= **الأولى**: قال السلطان [عبد الحميد]: إنه لن يتخلى أبداً عن القدس، فإنَّ جامع عمر يجب أن يبقى بيد المسلمين دائماً. (مذكرات هرتزل، ص ٢٩).

والثانية: إن الناس هناك [في إنجلترا] ينتظرون سقوط تركية [يقصد الدولة العثمانية، فتركيا لم تكن ظهرت بعد] الذي هو وشيك في نظرهم (. . .)، إن خلاص السلطان [عبد الحميد] لا يكون إلَّا باتِّفاقه مع «تركيا الفتاة» (. . .)، وقال [نيولنسكي]: إنه قدَّم تقريراً للسلطان يتضمَّن هذه النصيحة، فقلت له [أي هرتزل]: إنَّه الآن يجب أن يزيد هذه الحقيقة على البرنامج الذي قدَّمه للسلطان، وهي أن يساعد السلطان اليهود بأن يعطيهم قطعة الأرض التي يريدون، وهم بدورهم يصلحون أمره في البلاد ويثبِّتون ماليته ويؤثِّرون على الرأي العام ليقف إلى جانبه، (مذكرات هرتزل، ص ٣٢).

والثالثة: قال السلطان [عبد الحميد] لصديقي [نيولنسكي]: «إذا كان صديقك فأنصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه البلاد بإراقة دمه، وقد غذَّاها فيما بعد بدمائه أيضاً. وسوف نغذيها، بل لن نسمح لأحد باغتصابها منا (. . .). فليحتفظ اليهود بملايينهم، أما إذا سقطت الدولة [العثمانية] وتمَّ تقسيمها فقد يحصل اليهود على فلسطين بلا مقابل. إننا لن نُقسم هذه الدولة [العثمانية] إلَّا على جثثنا، ولن أقبل تشريحنا لأي غرض كان». (مذكرات هرتزل، ص ٣٥).

وفي موقف السلطان عبد الحميد من اليهود وموقف اليهود منه في مسألة فلسطين، يقول المؤرخ التركي جمال قوطاي:

(بعد المؤتمر الصهيوني الثالث في زيورخ عام ١٨٩٦م، اقترح اليهود على السلطان عبد الحميد أن يبيع لهم «المزارع السلطانية» الواقعة على ساحل فلسطين أو تأجيرها لهم لمدة ٩٩ سنة مقابل «ذهباً يعادل ثلاث ميزانيات عثمانية».

ورفض السلطان العثماني [عبد الحميد] الاقتراحين، وكان المتحدث باسم الوفد الصهيوني المحامي اليهودي السلانيكي إيمانويل قراصو. وبعد الرفض السلطاني خرج الوفد فقال هذا المتحدث باسم الوفد اليهودي، لتحسين باشا كبير أمناء القصر السلطاني: =

. . . .

= ــ سآتي هنا مرة أخرى. . لكن سيكون دوري في هذه المرة غير دوري الآن. . .
وحدث بالفعل أن كان إيمانويل قراصو ضمن وفد «الاتحاد والترقِّي» الذي أبلغ السلطان عبد الحميد بقرار خلعه).
انظر جمال قوطاي، المرجع السابق، ج ١ ص ١٤١.
أما طلعت باشا زعيم «الاتحاد والترقِّي» فيكتب في مذكراته عن موقف «الاتحاد والترقِّي» من اليهود، في صراحة تامة، ما يلي:
● كان «الاتحاد والترقِّي» أمل اليهود، هذا صحيح. ولقد بدأ اليهود في عهد توليتي وزارة الداخلية للمرة الأولى يتجمَّعون في فلسطين خاصة هؤلاء اليهود الذين أُجبروا على الهجرة من روسيا. أخذ اليهود المهاجرون يشترون الأراضي في فلسطين بواسطة اليهود من التبعة العثمانية.
● جاء ٥٠,٠٠٠ يهودي إلى أرض فلسطين خلال سنة واحدة من يناير ١٩٠٨م إلى مارس ١٩٠٩م.
● كتب عليّ أكرم بك المتصرف السابق والذي عُيِّن والياً على بيروت، إلى وزارة الداخلية بخطورة إسكان اليهود. أما صبحي بك الذي حلَّ محله فكان مؤيِّداً لإسكان اليهود ببعض الشروط؛ فالخزانة خاوية على عروشها وليس هناك في الدولة من دخل. واليهود القادمون معهم المال وأصحاب مؤسسات متكاملة ليس في المال فقط، بل وفي العلم والتجارة والزراعة والفنون وسيكونون مخلصين للدولة إذا مُنحوا فرصة العمل الحر. انظر: مذكرات طلعت باشا، ج ٣ ص ١٢٨٢.
وعن نيَّة قادة «الاتحاد والترقِّي» ــ بعد خلعهم للسلطان عبد الحميد ــ في إقامة دولة يهودية في فلسطين، يقول طلعت باشا صاحب الكلمة العليا في جمعية «الاتحاد والترقِّي» وفي حكومتها أيضاً:
«سألني نافع باشا مندوب حلب في أول مجلس نيابي للمبعوثان عام ١٢٩٣م (١٨٧٦م) قائلاً:
ــ هل ترى أن من الممكن إقامة دولة يهودية [في فلسطين]؟
ــ فأجبته بقولي: ليس ممكناً فقط، بل إني أعتبر هذا أمراً مُقَدَّراً».
طلعت باشا، مذكرات طلعت باشا، المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٩٧. =

ولم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي. فطاقاتنا لم تكن تكفي. الشيءالوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو أن أُفيد من التنافس بين هذه القوى. هذه الإفادة كانت عبارة عن توزيع الأمل ـ في لقمة كبيرة بعض الشيء ـ على كل واحد منها والإيقاع بين كل واحدة وأخرى.

١٨ مارت ١٣٣٣ [رومية]

هدف الغرب: سقوط الدولة العثمانية

مرة أخرى، إني كنت أرى بوضوح أن ظهور ألمانيا كفيل بإخلال التوازن الأوروبي، وأن هذا سيوقع الدول الأوروبية بعضها في بعض، وأني لو استطعت إنقاذ بلادي من تعريضها للانقسام حتى ذلك اليوم، فإني ـ في وقت هذا الصدام ـ أستطيع حماية وجودنا بالانضمام إلى إحدى الكتلتين وكسر الطرف الآخر، ولم أكن أرى هذا بعيداً.

كانت قوة الألمان تزداد عاماً بعد عام، وكنت ألاحظ اضطراب كل من الفرنسيين والإنجليز والروس لهذا النموّ الألماني، ونهاية هذا الأمر سيكون صدامهم.

بحثت بدقة عن الطريق الذي أسلكه.

رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذي عُقد في إستانبول ما عزمتْ عليه هذه الدول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين، بل تأمين الاستقلال الذاتي لهؤلاء الرعايا. ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية.

كانوا يعملون في سبيل هذا الهدف على صورتين:

الأولى: إثارة الأهالي المسيحيين، وتعكير صفاء الجوّ، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم.

والثانية: القول بالمشروطية، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا. واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السمن. فلم يستطع بعض الشباب العثماني المثقّف أن يفرِّق بين التطبيق السهل للحكم الدستوري في بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذُّر هذا الحكم في الدول التي لا تتمتع بوحدة قومية.

معنى انقسام الولاء في الجيش

كيف كان يمكنني أن أُنقذ بلادي من هذه الخيانات والتمردات؟

مرة أخرى، لقد أظهر مؤتمر إستانبول إن إنجازات السلطان عبد العزيز في سبيل تقوية الجيش والأسطول جعلت الدول الكبرى تضطرب، وكانت هذه الإنجازات عصارة حياته. والحرب الروسية التي قامت بعد ذلك أثبتت فعالية الجيش. ولو لم تكن في الجيش مشكلة الضباط المعادين للأسرة الحاكمة والضباط المؤيِّدين لها، لاستطعنا وقف تقدُّم الجيش الروسي، ولاستطعنا إحراز النصر. وهذا يعني أن جهود السلطان عبد العزيز التي بذلها في سبيل الجيش لم تذهب سدى.

تعليقي لدور الأسطول
لم يكن خوفاً مني على نفسي

ومقابل هذا، أظهرت هذه الحرب أن الأسطول لم يكن فعالاً رغم كثرة عدده. ربابنة سفننا كلها تقريباً كانوا من الإنجليز، يعني أن أسطولنا كان في يد الإنجليز. عندما أردنا تغيير بعض ربابنة هذه السفن، هرع السفير الإنجليزي إلى القصر، ولم يخجل من التحدث بصراحة وأن يعلق على هذه المحاولة بشكل لا يجعلنا نثق بإنجلترا.

على هذا يمكن القول بأنه لم يكن لدينا أسطول. إنه يستعدي علينا

إنجلترا وفرنسا من ناحية، ولم يثبت فعاليته في أيّ عمل في الحرب من ناحية أخرى. ولا يُعقل المحافظة على شيء عديم الفائدة ينتج عنه الضرر. أَمرتُ بسحب الأسطول إلى الخليج [الذهبي في إستانبول] وهكذا أَفهمتُ الفرنسيين والإنجليز أنه ليست لدينا النية أن ننافسهم في البحر الأبيض. والحقيقة أنَّ هذا التصرف جعل الإنجليز والفرنسيين يبتعدون عن التصادم بنا لفترة طويلة.

في مقابل هذا، أسرعتُ بتجهيز الجيش بالأسلحة الحديثة وإعداده بما هو مناسب من أسطول وفنون الحرب المتطوِّرة. واستدعيتُ إلى إستانبول الضابط [الألماني] الكبير فاندر غولتز. إني لو اتَّحدتُ مع دولة تسود البحار في هذه الحرب التي أتوقَّعها ــ ولي أمل في قيامها ــ في ذلك الحين تكون جيوشي مستعدَّة للعمل. وسيقوم أسطولي بتسهيل مهمتي. وفوق هذا، سيكون تحت يدي جيش يجيد تماماً حِيَل الحرب التي تلجأ إليها الأمم التي سأحارب ضدها.

يقولون: إن الأسطول قد تدخَّل في عملية خلع السلطان عبد العزيز. ولذلك أبطل عبد الحميد الأسطول. وهذا كذب. أنا أعرف أكثر من أي شخص آخر أنَّ قطعتين من أسطول كفيلتان بإسقاط سلطان من على عرشه. عندما أسقطوا أخي مراداً من على عرشه، هل استعانوا بسفينة أو بمدفع؟ إن من يفتري عليَّ بهذا الجهل إنما يفصح عن جهله هو[1].

---

(١) أثناء محاولة الاتحاديين إقناع السلطان عبد الحميد بعد عزله ــ عن طريق فتحي أوقيار حارس السلطان ــ بالتنازل عن ثروته للجيش، حدث الحوار التالي ــ نقلاً عن مذكرات فتحي أوقيار نفسه ــ وفيه ما يدل على نظرة السلطان عبد الحميد إلى الأسطول:

(أبلغت جلالة السلطان [عبد الحميد] بالأمر الذي تلقَّيتُه، وقلت له: «يا صاحب =

سـلاح الخـلافة

نعم، لم تكن لديَّ الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية بمفـردي، ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوباً مسلمة عديـدة في آسيا، مثـل إنجلترا وروسيـا، ترتعـد من سلاح الخـلافة الـذي أحمله. ولهـذا السبب استـطاعـوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية، وكان لزامـاً عليَّ ألَّا أستخدم هـذا السلاح خارج حدودي حتى «اليوم المنتظر»، لأن محـاولة كهـذه لم تكن تفيد إخـواننا في الـدين، ولا بـلادي. قـرَّرت استخـدام قـوَّتي كخليفـة في وحـدة بـلادي وأمنها، كما قرَّرت العمل على سلامة أخـوتنا في الـدين في الخارج ضـد كل احتمال.

تعطيلي الأسطول طمـأن الإنجليز والفـرنسيين، لكن وجود الخـلافة في يدي كان يجعل الإنجليز يعيشون دائماً في دوَّامة الاضطراب.

= الشوكة، أريد أن أعرض عليكم هذه الحقيقة: إن الأسطول ظَلَّ طـوال مدة سلطنتكم عاطلاً عن العمل. وإنه فسد في الموانىء نتيجة لعدم تحرُّكه، ولذلك فقد قدرتـه. . إن هذا ما يُدَّعَى به عليكم. على هذا، ماذا لو تخلَّص الأسطول من موقفه [المُعَطَّل] هذا، تنازل جلالتكم عن جزء من ثروتكم له [أي إلى الأسـطول]، إني أظن أن هذا لا بدَّ وأن يستوجب سروركم السلطاني».

فأجابني [السلطان عبد الحميد] بسكون ووقار قائلاً:

ـــ إني أنا الذي استدعيتُ أعظم مستشاري البحرية العالميين، ومن هؤلاء «غـامبل» و «بوخمان»، هؤلاء المستشارون كانـوا يؤمنون أيضـاً بضرورة أن نصنـع نحن السفن ونبنيهـا بـدلاً من شـراء السفن من الخـارج، وهــذا التصنيـع يستلزم مـالاً كثيـراً، والأجـانب لا يقدِّمـون قروضـاً لتصنيـع شيء في بلاد أخـرى يمكن أن يبيعوهـا لهذه البلاد. إني كنت أثناء سلطنتي أدرك أهمية الأسطول».

فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٧٠ ـــ ٧١.

جمال الدين الأفغاني

وَقَعَتْ في يدي خطة أعدَّها في وزارة الخارجية الإنجليزية مهرِّج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يُدعى بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك. واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين.

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب. كان في مصر، وكان رجلاً خطراً. اقترح عليَّ ذات مرة ــ وهو يدَّعي المهدية ــ أنْ يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى. وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا. وكان رجلَ الإنجليز، ومن المحتمل جدّاً أن يكون الإنجليز قد أعدّوا هذا الرجل لاختباري. رفضت فوراً، فاتّحد مع بلنت.

استدعَيْتُه إلى إستانبول عن طريق أبي الهدى الصيّادي الحلبي، الذي كان يَلقى الاحترام في كل البلاد العربية. قام بالتوسُّطِ في هذا كلّ من منيف باشا، حامي الأفغاني القديم، والأديب الشاعر عبد الحق حامد. جاء جمال الدين الأفغاني إلى إستانبول، ولم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها.

حرصي على الإفادة
من لعبة التنافس الدولي

ليست هذه آخر محاولة إنجليزية في موضوع الخلافة، فالإنجليز يحكمون مائةً وخمسين مليوناً من المسلمين في آسيا. وللخلافة نفوذ كبير على هؤلاء المسلمين. ولأني كنت أعرف هذا، كنت ــ ودون أن أثير شكوك الإنجليز ــ أرسل السادة الأشراف، وشيوخ الطرق الصوفية، والدراويش، إلى مسلمي آسيا الوسطى، وكنت أعرض عناية خاصة بربط مسلمي آسيا معنوياً بالخلافة. وإني أذكر بشكل خاص وبكل امتنان الخدمات التي أدّاها في هذا

السبيل الشيخ سليمان أفندي البخاري بين مسلمي روسيا، ورأيت في هذا فوائد جمة، ورأى الولاة العموميون «المندوبون الساميون» الإنجليز في الهند أن مسلمي الهند على رباط وثيق بالدولة العثمانية، فكتبوا إلى حكوماتهم بضرورة التعايش في سلام مع العثمانيين، ولهذا سهل عملنا قليلاً.

أصابت إنجلترا الوساوس والشكوك من حملة الاستعدادات العظيمة التي تبذلها ألمانيا في أسطولها، وأن من الخطر العظيم وجود ألمانيا قوية في البحار المفتوحة. في تلك الأيام اقترح الإنجليز على الروس اقتسام الدولة العثمانية. كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد: منع تقدم الروس في آسيا، واكتساب حليف لهم ضد ألمانيا. لم يرغب الإنجليز في أي وقت من الأوقات في نزول الروس في البحر الأبيض، لكنهم ظهروا وهم يضعون نصب أعينهم هذه التضحية، لأن منافعهم في آسيا كبيرة ومخاوفهم من ألمانيا تتضخم.

رفض الروس هذا الاقتراح السري الإنجليزي، لأني كنت من ناحية أقترب من القيصرية، ومن ناحية أخرى أقترب من الألمان. ومعنى اقترابي من الألمان يعني اكتساب الألمان فرصة الحركة في مساحة تمتد حتى الهند، وهذا لا يريده الروس ولا يرضى الإنجليز به. فكان أن بدأ كل من الروس والإنجليز في التصرف تجاهي تصرفات تتّسم بمزيد من الودّ معي.

لم يكن في نيتي التحالف مع الألمان. إن الظهور بمظهر المتحالف سيجعل اتفاقي مع دولة تسود البحار العالية اتفاقاً غالياً له وزنه. وكان على إنجلترا ــ لكي تطمئن على أمنها في الهند وآسيا ــ أن تسلك أحد طريقين: إما الاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية، أو الاتفاق معها. وهي لم تكن تستطيع الاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية. فالدنيا كانت ستقف ــ في هذه الحالة ــ على قدم وساق. ونظراً لرفض الروس اقتراحهم ــ أي اقتراح

الإنجليـز في التقسيم ـ كـان لا بـد لهؤلاء الإنجليز أن يتفقـوا معي. ولهـذا السبب أيضـاً سلكت إنجلترا طـريقين: الأول: التقـارب معنـا في السيـاسـة، والثاني: استخدام المحافل الماسونية وسيلةً للاستيلاء على الحكم من داخلنا لصالحهم هم.

إنجلترا وألمانيا تستغلّان غفلة المثقفين

وكمـا استغل الإنجليـز غفلة أعضاء «تـركيا الفتـاة» عن طريق المحـافل الماسونيـة، بدأ الألمـان يفعلون هذا مـع الفـريق الآخر من هؤلاء الأعضـاء، وعن طريق المحافل الماسونية أيضاً. وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل «تركيا الفتـاة» في سلانيـك، وسيطر الإنجليـز على تشكيل «تـركيا الفتـاة» في مناستر.

ولكي أُجبر الإنجْليز على اتفاق معي عهدتُ بعملية إنشاء سكـة حديـد بغـداد إلى ألمانيـا، وكان غضب الإنجليـز عظيمـاً، ولهذا أيضـاً جـرّوا علينـا مصيبة مقدونيا. لم أهتم لهذا. فقد كانت كـل الخيوط في يـدي. ومهما كـان الأمر، فلا بد إنهم كانوا سيقدمون إليَّ الاقتراحات التي كنت أنتظرها.

الماسونية والانقلاب من الداخل

كـان الإنجليـز يثيـرون عليَّ اتحـاديـي منـاستـر، ويثيـر الألمـان عليَّ اتحاديـي سالونيك. كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الـدولة من الداخل. ونجاح الإنجليز باستخدام اتحاديـي مناستر كان مصيبة بالنسبـة لي، لأنهم كـانوا سيـزيلونني ويصلون إلى مرادهم. ولم أكن أخـاف من اتحـاديـي الألمان لأن نجاحهم كان سيزيد من خوف إنجلترا.

اتحـاديّو سـلانيك الـواقعون تحت تـأثير المحـافل المـاسونيـة الألمانيـة

تحرَّكوا بكل من أنور ونيـازي. اغتيل شمسي بـاشا. وأضـاع اتحاديّـو مناسـتـر المحاولة[1].

بدأ الإنجليز محادثات سرية عن طريق الرجل الذي أثق بـه أبـي الهدى الصيّادي، واستطاع الروس أن يلاحظوا في ذلك الـوقت فقط أنهم قد خُـدعوا بسهولة.

نكبة آسيا فـوقهم، والمخرِّبـون مثيرو لاضـطرابات في داخلهم ولـذلك كان على حكومتهم القيصرية أن تظل مفتوحة العين يَقِظة.

ورغم كـل ذلك فقـد كتب لي القيصر رسـالةً خـاصـة يـطلب فيهـا منّي معلومات.

ولسبب ما أَوْقف الإنجليز مباحثاتهم السرية، وأصبحتُ أرى أن الحرب التي أنتظرها وشيكة الوقوع، ولكن لم يكن أمامي إلاَّ أن أتـرك الأحداث تسيـر حسبما تسير، ولم يكن أمامي غير منـع إراقة دماء الإخوة.

وما حدث بعد ذلك معلوم ويعرفه كل شخص.

أسقـطني اتحـاديّـو سـلانيـك عن العـرش، وتـوصَّلوا إلى اتفـاقيـة مـع الإنجليز، ودخلوا الحرب كحليف مـع دولة تسود البحـار [= ألمانيـا]، وكأن المسألة حلم.

(١) عندما أحدث الضباط الاتِّحاديون القلاقل في منطقة البلقان العثمانية، خاصة في كل من سلانيك ومناستر أرسلت الحكومة إلى هنـاك شمسي باشا للاطِّـلاع على الموقف فاغتاله الاتِّحاديّون هناك. [توضيـح م. ح.].

٢٠ مارت ١٣٣٣

الإنجليز يبحثون عن الآثار في العراق

ذكرتُ أنني أعطيت الألمان [امتياز] خط سكة حديد بغداد، وذلك لكي أجرَّ الإنجليز إلى الاتفاق الذي أرضى عنه. ولهذا قصة أخرى طريفة أعرضها هنا.

لمَّا قال الروس «لا» للاقتراح الإنجليزي الرامي إلى تقسيم دولتنا، بدأ الإنجليز يتقرَّبون مني بشكل لم أستطع في البداية فهمه، استطعت معرفته بعد عدة أشهر. ذات يوم قابلني السفير الإنجليزي [في إستانبول]، وتحدث طويلاً عن أنَّ الأناضول وسوريا والحجاز تُعَدّ مهد أعظم حضارات التاريخ، وسألني إن كنت فكَّرتُ في مشروع للتنقيب عن الآثار في هذه المناطق، فربما يمكن العثور على كنوز لو قامت مشاريع للتنقيب على هذه الآثار هناك، وقال إن التماثيل الصغيرة، والقُلَل والأواني المكسورة العتيقة، والنقود القديمة، التي ستُستخرج من تحت الأرض، لها قيمة الكنز. وإن النظر فيها ربما يكون من شأنه تغيير التاريخ، وسيمكن بواسطتها الحصول على معلومات [علمية] قيِّمة كثيرة. وبعد أن قال: إن قراءة الخط المصري القديم قدَّم للحضارة العالمية مكسباً عظيماً جداً، أضاف قائلاً: إن الدولة العثمانية لو وجدتْ أن عمليات التنقيب عن الآثار في هذه المناطق تكلِّفها الكثير، فإن الحكومة الإنجليزية مستعدَّة لتقديم مختلف المعونات بكل سرور، وسترسل رجالها على وجه السرعة، وسيبدؤون في الحفر، وستصرف لهم الحكومة الإنجليزية مصاريفهم. وفوق هذا فإن ما يعثرون عليه من الآثار التاريخية هناك سيتركونه لنا دون مقابل.

ولما كان هدفي إقامة علاقات وطيدة مع إنجلترا، ولم أكن أعرف ما ينطوي عليه هذا الاقتراح: قبلتُ، واستدعيتُ الصدر الأعظم خليل

رفعت باشا، على الفور، وشرحتُ له الاقتراحات الإنجليزية ونبَّهتُ عليه بمتابعة أعمال هذه الوفود القادمة.

والحقيقة أن الإنجليز أرسلوا مجموعة من علمائهم إلى إستانبول، دونما تأخير كثير. قابلتُهم جميعاً في لقاء عام معهم. وتمنَّيتُ لهم النجاح، وأقمت لإكرامهم في ذلك المساء مأدبة عشاء دعوتُ إليها أيضاً سفراء الدول الأخرى، وكان يبدو على السفير الروسي بشكل خاص وبوضوح أنه غير ممتنّ من هذا التصريح. كان يُنصت باهتمام وهو يبتسم بشكل واضح إلى حديثي عندما قلت له فيه: إن الإنجليز طلبوا السماح لهم بالتنقيب عن الآثار خدمة للتاريخ والحضارة.

وبدأ فريق من العلماء تنقيبهم في [منطقة] «قيصرية» [في الأناضول]، وفريق آخر في «الموصل»، وفريق ثالث في نقطة قريبة من بغداد. كانوا ينقِّبون بمساعدة العمال المحلّيين، وكنا أيضاً قادرين على متابعة أعمالهم، ولم يظهر شيء من هذه الحفريات غير بضعة أوانٍ مكسورة وقُلَل وتماثيل صغيرة وتوابيت ومقابر، وقام الإنجليز بتسليمنا هذه الأشياء، حتى النقود النحاسية القديمة.

كان السفير الإنجليزي يطلب كثيراً مقابلتي والتردُّد عليَّ للإدلاء بمعلومات عن هذه الحفريات، وكنا نتحادث، وكنت أقدِّر جميع هذه الفرص، وكنت أمهِّد الأرض للاتفاق الذي فكرت في عمله. كنت أريد ألَّا أقدِّم أنا هذا الاقتراح. ولكني كنت أريد أن يقدِّمه الإنجليز بأنفسهم إليَّ، وبذلك يكون الاقتراح في ذلك الوقت اقتراحهم هم. وإذا وجدته مناسباً وافقت عليه، وإن لم أجده كذلك كنت سأرفضه. وهكذا كنت أحاول اقتطاف الأفضل.

ظهور
البترول في العراق

حدث في هذه الأثناء شيء لم أستطع فهمه أيضاً. جاءني السفير الإنجليزي ذات يوم وهو متحمس. وقدَّم إليَّ سيفاً مرصَّعاً عُثر عليه في إحدى الحفريات بجانب الموصل. كان السيف مكسوراً، لكن يده كانت مرصَّعة بكثير من الأحجار الكريمة. وقال السفير: إن هذا السيف سقط على الأرض أثناء إحدى الزلازل، فذهب جزء منه في أعماق بعيدة، وعُثر على الجزء المتبقِّي منه ضمن الحفريات، شكرتُ السفير وأنعمتُ عليه، ولكن لم تكن مخابراتي على علم بسيفٍ كهذا. إذن فتفسير الأمر على شكلين: الأول: أن مخابراتنا تجهل هذا الخبر، والثاني: أن السفير ربما لعب عليَّ لعبة لا أعرفها. عرضتُ السيفَ على بعض التجَّار من السوق مِنْ هؤلاء الذين يفهمون في هذه المسائل، فقالوا: إن هذا السيف ليس قديماً، ولكن أدخلتُ عليه بعض التعديلات ليبدو كأنه قديم.

ازداد اهتمامي جداً بالأمر، لكني لم أفصح لأحد بشيء من هذا الاهتمام، ثم علمت من الأخبار التي ترد إليَّ أن بعثتَيْ التنقيب عن الآثار في كلٍّ من الموصل وبغداد قد تركتا أعمالهما على وجه الأرض، وبدأتا تحفران آباراً.

في ذلك الوقت وَضُحَتْ أهدافهم. كانوا يريدون مني أن أصدِّقهم، وهكذا كانوا يريدون أن يحصلوا على إمكانية العمل براحة أكثر، وهذا السيف الذي قُدِّم لي على أنه قديم ومزيَّن بالأحجار الكريمة كان من أجل أن أزيد ثقتي بهم، ولم يكن ما يبحثون عنه أواني مكسورة أو تماثيل، وإنما كان البترول.

منعْت الإنجليز من
استخراج بترول الحجاز وسوريا

كنتُ أعرف من قبل أنه من أجل العثـور على البترول في الأفـلاق [في رومانيا] يقوم المختصّون بحفر الآبار، وعن طريقها يبحثون عنـه.

بعد فترة جاءني السفير الإنجليزي بحجة أنْ يقـول لي خبراً آخـر. قال لي: إن قسماً كبيراً من أراضي سوريا والحجاز عبارة عن صحـراء، والمعانـاة شديدة في هذه الأماكن من العطش، لعدم وجود الماء، ولهـذا السبب، فإنـه يتعـذَّر تعمير هـذه المناطق، ولـذا، فإن الحكـومة الإنجليـزية ـ إذا أصـدرتُ موافقتي ـ مستعدة باسم الإنسانية أن تفتـح آباراً هنـاك، ولكن لهذا شـروط: إذا تم العثور على الماء، وتكـوَّنت واحات، فـإنهم سيتركـون استخدام المـاء الذي سيخرج للأهالي، ولكنهم في هذه الحالة يصبحون أصحاب الماء.

إن مسألة الاتفاق ذاته لا يسير كما أريد.

رفضت الاقتراح، ولم أكتف بهذا، بل أغلقت رسمياً الآبار التي فتحوها بالموصل وبغداد. تأثَّر الإنجليز أبلـغ التأثُّر بهذا، وغضبوا، وتركوا الآبار كمـا هي، ولكنهم بدأوا يأخذون على عاتقهم التحرُّش بمسألـة الخلافـة، متَّخذين من جمال الدين الأفغـاني وسيلة لمآربهم. كمـا كانـوا يريـدون الوصـول إلى غايتهم باحتواء أمير الحجاز.

منعْت البترول عن الإنجليز
فأثاروا مسألة الخلافة العربية

في مقـابل هـذا قمت بإرسـال قافلة كبيـرة نوعـاً مـا من الـدراويش إلى مسلمي الهند، وقابل الإنجليز هذا الموقف بـإثارة نكبـة كريت، وذهبـوا لأكثر من هذا، بأنْ حاولوا إقناع روسيا وفـرنسا بـإسقاطي من على العـرش، ورفض الـروس بلهجة حـادة هذا الاقتـراح الإنجليزي، لأن إنجلتـرا كانت تـرتب في

روسيا حركات تمرُّد لإجبار القيصر على قبول الحكم الدستوري، كما فعلتْ تماماً مع الدول العثمانية.

وفي الوقت الذي وقَعنا فيه مع إنجلترا في الصراع، بدأتْ ألمانيا في مدّ يد الصداقة إلينا، وأيَّدتنا صراحة في قضية كريت، واختلفتُ في ذلك مع الدول الكبرى الأخرى.

إن انتصار جيشنا في اليونان قد نبَّه الألمان وفتح أعينهم، فاقترب مني القيصر [الألماني ويلهلم] لدفع التحالف الفرنسي الإنجليزي الروسي. أما أنا، فلكي أهدد الإنجليز بأني أستطيع فتح طريق الهند للجيوش الألمانية: اقتربتُ بسرعة من الألمان، وإن كانت أفكارنا في الأصل مختلفة عن بعضها البعض تماماً.

في أثناء هذه الزوبعة وصل القيصر «ويلهلم» إلى إستانبول، فأعددت له استقبالاً فخماً، وألقى القيصر بدوره خطباً رنّانة أشاد فيها بكرم ضيافتنا، ولم يتحرَّج من القول بأنه صديق ثلاثمائة مليون مسلم يعيشون في أرجاء العالم المتفرقة، وبعث من دمشق بخطاب إلى قيصر الروسيا قال له فيه: (إن الدولة العثمانية ليست على وشك الموت، وإنما هي دولة تمتلىء حيوية)، كما لم يتحرَّج القيصر الألماني أيضاً من تهديد قيصر روسيا بقوله: (ابتعد عن مسِّ شرف المسلمين وخليفتهم).

حتى الألمان يطمعون
في بترول المنطقة العربية

ليس هذا أصل ما أريد شرحه، وإنما هذا التصرف وهذا السلوك من جانب القيصر جعلاني أشعر بأحاسيس طيبة كثيرة، وتصرفت معه تصرف الأصدقاء إلى آخر مدى.

جاء مع الإمبراطور الألماني إلى بلادنا بعض العلماء الألمان، من بينهم من كان يشتغل بالحفريات ــ تماماً مثل الإنجليز ــ وكانوا يريدون البحث عن الآثار القديمة حول الموصل. سمحت لهم، وحيث إني سمعت أنهم شموا رائحة البترول الذي كانت تنقِّب عنه البعثات الإنجليزية فإني أرسلت أحد مرافقيّ باسم مستعار ونبَّهت عليه بمتابعة الأمر من مكان الحفائر. مضى على هذا وقت قصير جداً ــ وكان الإمبراطور ما يزال ضيفاً ببلادنا ــ وإذا بي أتلقَّى تقريراً من صلاح الدين أفندي يقول: إن البعثة الألمانية تفعل ما فعله الإنجليز تماماً، تنقب وتفتح الآبار.

أعترف بأني ابتأستُ لهذا الخداع إذ لو كان الإمبراطور الألماني قد جاء لاقتراح البحث عن البترول لأعطيته الموافقة على أساس من بعض الشروط، إذ إن هذا البحث يهمّ بلادي أيضاً. أمَّا أن يكون الأمر إرسال جواسيس يبحثون عن البترول بحجة البحث عن الآثار القديمة فإنه يُفصح بوضوح عن نظرة الألمان للعثمانيين.

البترول وإبعادي عن العرش

أقترح تحسين باشا «أمين البلاط السلطاني» أن أشير إلى هذه المسألة للإمبراطور، لكني رفضت وقلت: نتركهم يبحثون فإذا ما اكتشفوه فإنهم لن يضعوه في جيوبهم، نعطيهم أواني الصلصال المكسورة ونستخدم نحن البترول، وذلك لأنهم لم يحصلوا مني في الأصل على إذن للبترول.

مرافقي صلاح الدين أفندي كان رجلاً يفهم هذه المسائل جيداً. استدعيته وأرسلته إلى أمريكا، لأن أمريكا متقدمة جداً في هذه الأمور في تلك السنوات، وهذا أيضاً يساعد على إقامة علاقات طيبة مع هذه الدولة، وفي نفس الوقت نستطيع أن نعرف إنْ كان في بلادنا بترول أم لا.

وللأسف لم تسفر محاولتي هذه عن شيء، فالشركات التي اتصل بها صلاح الدين أفندي في أمريكا لم تبدِ اهتماماً بالأمر، وعاد بعد عام صفر اليدين.

وقال لي صلاح الدين أفندي عند عودته: (إن الأمريكيين يعتقدون أنهم يستخرجون من البترول ما يكفي احتياج العالم وأنهم لا يميلون إلى هذا الأمر الخاص بالتنقيب عن بترول البلاد العثمانية بحجة أن وجود آبار جديدة من شأنه أن يخفض أسعار البترول).

لكننا أيضاً شممنا رائحة البترول بعد الإنجليز والألمان، ولذلك طلبتُ من اليابان وفداً متخصِّصاً في التنقيب عن البترول ووافَقَتْ اليابان على طلبي.

لا أعرف بقية هذا الموضوع لأنني أُبعدت عن العرش بعد قليل.

٢٢ مارت [١٣٣٣]

جهاز مخابراتي: لماذا؟

حسب العرف العثماني، يتعرف السلطان على تفكير الرعية وشكاواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب، وعن طريق التكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير بناء البلاد عليها.

جدّي السلطان محمود [الثاني] وسّع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحَّل إليها. كان هذا الموقف عندما ارتقيت العرش، وعلى ذلك استمرَّ.

علمتُ ذات يوم من موسوروس باشا، سفيرنا في لندن، أنَّ الصدر الأعظم السابق، السَرْ عسكر حسين عوني باشا، تسلَّم نقوداً من الإنجليز. إذا كان الصدر الأعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته، فإن

مخابراته لا بدَّ أن تبلـغ القصر على أنَّه يؤدي عمله على الوجه الأكمل، لذلك تكدَّرتُ وتأثَّرت.

في أثناء تلك الأيام قابلني محمود باشا وأدلى إليَّ ببعض معلومـات عن بعض أعضاء «تركيا الفتاة»، وكانت الأخبار التي قـدَّمها لي هـامة. سـألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت أنه أنشأ مخابرات خاصة، واحتوى ــ بـالنقود ــ أقـارباً لبعض الأشخـاص من «تركيـا الفتاة»، وهؤلاء كـانـوا يقـابلون أقـاربهم ويسمعون منهم ثم يخبرونه، فيدفـع لهم.

صحيـح أنه زوج أختي، إلاَّ أنه لا يصـح أن يقيم أحد باشـوات الدولـة مخابرات سـرية مستقلة عن مخـابرات الـدولة. قلت لـه أنْ يحلّ جهـازه هذا فوراً، وألا يعاود العمل بمثل هـذا الأمر مـرة أخرى، أحـال إليَّ جهازه هـذا، وهو متضايق كثيراً.

لا يمكن للدولـة أن تكون آمنـة، إذا تمكَّنتْ الـدول الكبـرى أن تجنِّـد لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجـة وزير أعـظم. بناءً على هـذا قرَّرتُ إنشـاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرةً، وهذا هو الجهاز الذي يسميـه أعدائي بالجورنالجية [الشرطة السرية = المخابرات].

وكـــان ضـروريـــاً أن أعـرف أنَّ بين أعضـــاء جهـــاز الجـــورنـــالجيـــة [المخـــابـرات] المخلصين الحقيقيين أشخـاصـاً مفتـــرين، لكني لم أصـدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقيق دقيق.

كـان جـدي السلطان سليم [سليم الثـالث] يصيـح قـائـلاً: (إن أيـدي الأجـانب تتجوَّل فـوق كبدي، وعلينـا أن نرسـل السفراء إلى الـدول الأجنبيـة [لنقل أساليب التقدم الأوروبـي]، وعلينا إرسال الرسل إلى الخارج، ولنعمَـلْ سريعاً على تعلُّم ما وصلوا إليه).

كنت أحسُّ أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله. إنهم يشترون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي. كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقتُ عليهم من خزانة الدولة ولا أستطيع معرفة ما يعلمونه وما يدبِّرون ويعدُّون؟

نعم، أنا أسَّست جهاز الجورنالجية [المخابرات]. وأنا أدرته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدوري العظام يرتَشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم والتآمر على سلطانهم أسَّستُ هذا الجهاز لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي يعرفَ ويتعقَّبَ هؤلاء الذين خانوا دولتي في الوقت الذي كانوا يتسلَّمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حُلُوقهم!![1].

---

(١) عن جهاز المخابرات الذي وُجِّهتْ بسببه انتقادات شديدة من قِبَل «الاتحاد والترقِّي» إلى السلطان عبد الحميد، يقول الدكتور إلهامي مظهر في مذكراته عن بعض أدوار إيجابية، كالآتي:
(عندما كان مثيرو الشغب والإرهابيون يثيرون الأرمن للتمرد ضد الدولة [العثمانية]، كان الجنود يتصدَّوْن لهم وتُراق دماء كثيرة... كان للسلطان عبد الحميد جهاز مخابرات قوي. وكان هذا الجهاز يخبر السلطان فور ظهور كل حركة لذا تمكَّن السلطان [عبد الحميد] ــ خلال ثلاثين سنة ــ من إخماد كلِّ تمرُّد داخلي في حينه. لذلك استطاع هذا السلطان منع حدوث حرب بين روسيا وبين الدولة العثمانية. ولهذا السبب فقط حاول الروس اغتيال السلطان عبد الحميد، واستخدمت روسيا في هذا الأمر الإرهابيين الموالين لمنظمة «طاشناق سيان» الأرمنية).
مذكرات الدكتور إلهامي مظهر، المصدر السابق، العدد الخامس، مايو ١٩٧٤م، ص ٢٤.
وكان السلطان عبد الحميد يرى ضرورة هذا الجهاز لحفظ أمن المجتمع ويؤيده في هذه النظرة طلعت باشا زعيم «الاتّحاد والترقِّي» مع أن من ضمن أسباب ثورة =

قصر بَيْلَرْبَي
٢٣ مارت [١٣٣٣]

الذين يكتبون ضدي يعانون عذاب الضمير

منذ إبعادي عن العرش حتى الآن كتبوا ضدّي مجموعة من المقالات وعديداً من الكتب. يقطر الدم من قلم أعدائي، فما أكثر ما لم أعلمه، وما أكثر ما لم أنفذه لمثقّفينا.

= الاتحاديين على السلطان هذه المسألة يعني امتلاكه لجهاز مخابرات دقيق، لكن هذا التأييد في وجهة النظر جاء بعد فوات الأوان، أي بعد أن خَلَع الضباط الأحرار السلطان عبد الحميد:

(أريد أن أسجل الحقيقة التالية: لم يكن السلطان عبد الحميد يخشى من نشر تقارير المخابرات التي كان هذا الجهاز يقدّمها إليه، بل كان يودّ نشرها بشكل أو بآخر. إنه كان يعتبر هذا الجهاز نظام أمن لإدارة البلاد وهو الذي فضّل أن يعيش بين جدران قصر يلديز. . والذي حدث بعد إقصاء السلطان عبد الحميد من العرش أن احترق ــ فجأة ــ جزء كبير من هذه التقارير).

مذكرات طلعت باشا ج ١ ص ٤١٤ ــ ٤١٥.

وكما ذكرنا من قبل أن الاتحاديين قد وجّهوا تهمهم إلى السلطان وأقصَوْه عن العرش، ووجود مخابرات قوية كان من ضمن هذه التُهَم، إلاّ أن «الاتحاد والترقّي» أنشأ بعد استيلائه على السلطة جهاز مخابرات أقوى وأوسع. وفي هذا يقول طلعت باشا صراحةً ما يلي:

(أنشأ أنور باشا [الزعيم والقائد العسكري الاتحادي بعد استيلاء «الاتحاد والترقّي» على الحكم في الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد]، أنشأ جهاز المخابرات السرية باسم جهاز «التشكيلات المخصوصة». وجدنا أن وجود هذا الجهاز ضرورة لا غنى عنها. هذا الجهاز الذي انتقَدْنا السلطان عبد الحميد كثيراً لأنه أنشأه بل حتى كنا نتّهمه [قبل وصولنا إلى السلطة] بأن هذا عمل غير أخلاقي منه).

طلعت باشا، مذكرات طلعت باشا، المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٠٤.

كان هؤلاء يكتبون أثناء عهدي، ويسخرون، ولكن ما ينشرونه إمَّا أنه كان يُطبع في أوروبا، أو يُنشر في مصر، لكن شارع الباب العالي[1] الآن يمتلىء بما ينشرونه ضدّي.

يقولون في الأمثال: «لا صديق لمن وقع» وأنا شخصياً لا أنتظر الصداقة من أحد، كما أني لا أستطيع بشكلٍ ما أن أفهم هذا العداء الجزافي.

فلنقل إنهم كانوا يخشونني أثناء سلطنتي، وكانوا يكتبون ضدي، حسناً، والآن ما الداعي لخوفهم مني ويشغلون أقلامهم هكذا بلا انقطاع؟ ها أنذا منزوٍ بعيداً، ها أنذا في حالي، ولا أتعامل مع أحد، فماذا يريدون؟ هل يا تُرى تعاني طبيعتهم الجاحدة من عذاب الضمير نظراً لما أسديتُ إليهم من معروف ومن خير؟

أعمالي تدلّ على أني احترمت العقل والعلم

كنت عدواً للعقلاء!

هكذا يكتبون دون أدنى خجل.

إذا كان العقلاء الذين يقصدونهم مثلهم، فإني لم أعطِ لهذا العقل أدنى اعتبار في أي يوم من أيام حياتي. وإذا كان يقصدون العقلاء الحقيقيين، فليقدِّموا نموذجاً واحداً على ذلك. لو استطاعوا أن يقدموا دليلاً واحداً على هذا، فإني أقبل بكل ما يقولون، لأني أبحث طول حياتي عن الإنسان العاقل، ويا أسفا، لم أستطع أن أجده، ولذلك استخدمت أحياناً أمثال هؤلاء الكُتّاب.

---

(١) وهو شارع الصحافة في إستانبول. [توضيح م. ح.].

لـو كنتُ عـدواً للعقـل والعلم فهـل كنت أفتـح الجـامعـة؟ وهــل كنت أنشىء المدارس التي تُعِدُّ للدولة الإنسانَ المثقفَ مثل مدرسـة ملكية شاهانه[١] لـو كنت هكذا عـدواً للعقل والعلم فهـل كنت أُنشىء لفتياتنـا وهنَّ لا يختلطن بالرجال «دار المعلمات»؟ لو كنتُ عدواً للعقل والعلم حقيقة أفكنت أجعل من «غَلَطَة سـراي سلطانيسي»[٢] في مستوى الجـامعات الأوربيـة، وأفـرض على الطلاب فيها دروس الحقوق؟

عندما أَمَرْتُ بتدريس الفلسفة في مدرسة «ملكية شاهانه» تمرَّدَ الـطلاب جميعهم وقـالوا: (يـريدون أن يجعلونـا كفاراً). ولكني كنت أعـرف أن الكفر ليس في العلم ولكنه في الجهل. وتمسكت بتدريس الفلسفة، ودرسـوها مـع تعـديل في الاسم. غيَّـرنا الاسم إلى «الحكمـة»، كما أمـرتُ بتـدريس هـذه الدروس في الجامعة باسم «الفيزيقا».

لم تقتصر جهودي في إعداد أشخاص متعلمين، بفتـح المدارس فقط، وإنمـا شجعت هؤلاء العصـاميِّين الـذين يُعِـدُّون أنفسهم بـأنفسهم. سـانـدتُ وأيَّدت مادياً ومعنوياً كلًّا من جودت باشا، وأحمد مـدحت أفندي، حتى مـراد أفنـدي الذي يعتبـر نفسه مؤرخـاً عظيمـاً، والكثير غيـرهـم، كمـا ضَـمنتُ لهـم حصولهم على الكتب.

أمـا كيف حَمَيْت الأدبـاء الآخـرين ورَعَيْتهم فقـد تحـدثت عن هـذا من قبل.

دار الشفقة أُسِّست قبلي لكنها كانت متوقفة تقريباً. قامت هذه المدرسة لرعايـة يتامى دولتي. أمـا وضعها الفعلي اليـوم فقد حـدث بجهدي. لكن كم

(١) وتعادل كلية العلوم السياسية في وقتنا الحاضر. [توضيح م. ح.].

(٢) وهي مدرسة غَلَطَهْ سراي السلطانية في إستانبول. [توضيح م. ح.].

هو غريب أنَّ هؤلاء الذين يحملون لي كل هذا العداء، درسوا كلُّهم تقريباً في المدارس التي افتتحتُها أنا. ومع ذلك، وبكل أسف، لا يخجلون أن يُطلقوا عليَّ لقب عدو العقل والعلم.

لم أخشَ مطلقاً في يوم من الأيام من رجل متعلم، إنما أتجنَّب هؤلاء الحمقى الذين يعتبرون أنفسهم علماء بعد قراءتهم بعض الكتب. وهذه الفئة من الوالهين بالغرب، الذين تفتنهم معامل الأمم الأوروبية وأزياؤها، لا تلقى مني أدنى عناية.

لست نادماً على هذا، ولكن هل يمكن أن يكون عدوّاً للعلم والعقل سلطانٌ بذل كلَّ ما في وسعه قرابة الثلاثين عاماً لكي يرى في كل قرية مسجداً وبجانب المسجد مدرسة؟

لينظروا إلى الكتب التي طُبعت في عهدي ويقارنوها بما بعد ذلك، وكم في أوروبا من أديب وفيلسوف وعالم كبير طُبعت أحسن أعمالهم في عهدي وراجت بيعاً وقراءة.

ما أردت أن أتوقّاه ليس علم أوروبا، ولكن الجهل به.

كما أني أرسلت البعثات إلى أوروبا للدراسة. صحيح أنه ظهر بينهم ثلاثة أو خمسة من الفاسدين. لكن أكثرهم يؤدي خدمات خيِّرة للدولة. وأنا أفخر بهم.

قد يكون الناس أيام سلطنتي لم يتمكَّنوا من الثرثرة كثيراً، لكنهم درسوا وتعلَّموا أكثر. وأنتج عهدي علماء. وكل إنسان أظهر من المعرفة بقدر البندقة وجد مني اهتماماً بقدر الجوزة. كيف لا أشجِّعهم وكل المصائب التي نزلت ببلادي كانت من جرّاء جهلنا بما حدث في العالم؟

أدخلت التلغراف وكان جديداً

بمجرد ارتقائي العرش أدخلت التلغراف في كل أرجاء الدولة، ولم يكن التلغراف في ذلك الوقت قد دخل حتى بعض الدول الأوروبية.

أقيم خط تلغرافي بلغ ٣٠,٠٠٠ كيلومتر، امتد حتى القرى، تحت إشرافي الدقيق.

تجارب الغوّاصات كانت على نفقتي الخاصة

وقامت تجارب بناء الغواصات في إستانبول من مالي الخاص. وفي تلك الأيام لم تكن حتى إنجلترا تملك سفينة تسير تحت البحر [غوّاصة]. وإن كان [الاتحاديون] قد تركوا هذا العمل بعدي فلا بدَّ وأنهم لن يسجِّلوا هذا الذنب عليَّ.

لا، وأكرِّر وأؤكِّد بقلب حزين، أنني لم أكن عدوّاً لأي شيء جيد وجميل ومفيد على الإطلاق، وليس من عدوّ لهذا إلَّا هم أنفسهم.

٢٤ مارت ١٣٣٣ [رومية]

سألني مرافقي: لماذا أُظهر نفسي في هذه المذكرات وكأني أدافع عن نفسي؟

قال لي: وهل يشكّ أحد في أن الطريق الوحيد الضروري للمحافظة على كيان الدولة قد اتُّبِعَ في عهد سلطنتكم؟

قلت له: اكتب إذن، سأجيب على هذا: لن أتردَّد في حضرة الله وأمام التاريخ، لقد عملتُ ما عملت لكي أحافظ على البلاد وعلى رفاهية الأهالي. لقد نَحَّيْتُ الأحاسيس جانباً، وكنتُ إذا رأيتُ في إنسانٍ ما وعياً، ولو قليلاً، بقدر «الحشرة النارية» كنت أعامله معاملة النجم دون أن أنظر إلى ماهيته

ونيّاته. وكنت أُعلي من شأنه، وأصفح عن أخطائه، وأُظهر التسامح تجاه أنانيته. حتى الأفراد الذين خانوا بلادهم لم أعاقبهم بنفسي، كنت أُحاكمهم بعدل، وأخفف حكم القضاء عليهم. صفحتُ عن بعضهم وأنا أقول: (ليس من عبد من عباد الله بلا أخطاء)، ولو خفي هذا على الناس فإن الله يعلم كل شيء والتاريخ سِجِلٌ. ليس لديَّ أدنى قلق بالنسبة لهذه النقطة.

لكني أرى اليوم الكارثة التي لحقت بالبلاد. جيشنا يتراجع منهزماً نحو العاصمة. نفقد كل أراضي الدولة بشكل لا نستطيع استردادها مرة أخرى، ولهذه الهزيمة مسبِّبوها، من خونة ومذنبين وأذناب. إنهم يدينونني لينقذوا أنفسهم من عدالة التاريخ وعدالة الأمة. يقولون هذا الحريق أشعله عبد الحميد. إني أكتب لأبناء الأمة الذين يختلجون بمرارة فقدان دولة عظيمة. أكتبه لكي يتبصَّروا بكل شيء، ويقوِّموا كل شيء جيداً ليعرفوا من يدينون، ولكي لا يتحيَّرون فيمن يجب الإمساك بتلابيبه، لكي يستطيعوا التفكير على أتم وجه دونما انتظار لحكم التاريخ.

مرة أخرى: لا بد أن يدركوا ماذا يجب عليهم عمله. أقولها عندما أرى أن المثقفين الأتراك يعتبرون أن الوطنية هي التصفيق لمخرِّب أرمني يعتدي بقنبلة على سلطانه وخليفته العثماني. ليس هناك أرمنيّ شريف انعدم حياؤه للدرجة التي يطلق فيها لقب «الصياد المَجيد» على شخص من بني جنسه [الأرمن] يحمل في يده قنبلة ويتآمر على سلطانه(١).

(١) عن حادثة محاولة الأرمن اغتيال السلطان عبد الحميد عند خروجه من صلاة الجمعة: يقول سير هنري وودز، وكان يعمل مستشاراً للقصر العثماني:
«بعد التحقيقات اتّضح أن العربة التي استُخدمت في تفجير القنبلة قد اشتراها من ڤيينا بعض الإرهابيين البلجيكيين والعملاء الأرمن المتآمرين، كما تمَّ القبض على إرهابي بلجيكي وأودع السجن عدة أشهر. وقبض على أرمني متآمرك. لكن =

يُمطرونني بوابل من المفتريات. حتى سعيد باشا يغمس قلمه بحبر ضميره الأسود، ولا يتردَّد في تسويد صورتي[1].

لا بدَّ إذن أن أكتب الحقيقة، فأنا لا أدين أحداً ولا أدافع عن نفسي، وإنما أوضح الحقيقة فقط، لكي يفهم الناس وليعلموا كل الأمور.

= لم يمكن محاكمة هذا الأرمني في المحاكم العثمانية نتيجة لوجود الامتيازات الأجنبية كذلك كان الأمر بالنسبة للبلجيكي، وسُلِّما إلى سفارتيهما رغم اقتناع السفيرين بدور هذين الشخصين في المؤامرة على السلطان، وانتهى الأمر بإخراج هذين خارج الحدود العثمانية على ألا يدخلانها مرَّة أخرى».

سير هنري وودز، ذكرياتي عن تركيا (أربعون عاماً في البحرية العثمانية ١٨٦٩ ـ ١٩٠٩م) الترجمة التركية التي قام بها الأميرال البحري التركي فخري چوق أر. إستانبول ١٩٧٦م.

أما المثقَّف التركي الذي مدح الأرمني الذي حاول قتل السلطان عبد الحميد بالقنبلة، فهو الشاعر التركي محمد توفيق فكرت، وكان شاعراً قوياً ملحداً ومعادياً للتاريخ العثماني كله. [توضيح م. ح.].

(١) كان السلطان عبد الحميد حزيناً بسبب عدم وفاء سعيد باشا له. ويورد ابن الأمين محمود كمال، الفقرة التالية للدلالة على ذلك: (في مساء اليوم الذي خُلع فيه السلطان عبد الحميد، أفصح السلطان لمن حوله من المخلصين له عن بعض أسباب حزنه. وبالذات في مسألة تنكُّر سعيد باشا وهو الصدر الأعظم له (أي السلطان)، فقال جلالته:

ـ سعيد باشا! هذا الرجل الذي أغدقت عليه النعم طوال ثلاثة وثلاثين عاماً! كيف يمكن أن يرأس المجلس الذي قام ضدّي؟! إن كلَّ ما كنت أفعله لم أفعله إلَّا بعد استشارتي له. آه!! إن الله عظيم. سبحان الله. لو حدث وواجهته ذات يوم، سأقول له هذا صراحة. وإذا لم يحدث هذا فإني سأحتكم إلى الله فيه يوم القيامة. إن الدنيا لا تدوم لأحد).

ابن الأمين محمود كمال، المرجع السابق، ص ٤٩.

من السهل القول بأن عبد الحميد كان يُلقي بالشبان في البحر ويغرقهم، ليس الإنسان بطائر لا يظهر له صاحب. فكم كتبوا كثيراً من بعدي، فهل باستطاعتهم تقديم أيّ دليل على أني ألقيت بشاب واحد في البحر؟!

لكنهم لا يتوقفون عن الكلام.

أبناء البلاد هؤلاء أبنائي، وهم دائماً إنسان عيني. فالكثير والكثير منهم عفوت عنه. وأغمضت عيني عن كثير من عيوبهم. وصفحت عن ذنوبهم. وأنا أعلم بها. فكيف يمكن أن أُلقي بهم في البحر؟!

ليس هذا جريمة فقط، وإنما التفكير فيه أيضاً كذلك. إنني أنظر فيما حدث من بعدي، وأفهم وأنا جدّ متأثر بأن الذين يفتعلون هذا الكلام هم نفس الطينة التي تستطيع فعل هذا، أي إنهم يظنون أنني غادرٌ مثلما هم غادرون.

تذكَّرت الآن شيئاً، كان ذلك أيام الحرب الروسية؛ وكان سليمان باشا يعمل وقتها قائداً عاماً لجيشنا في الطونة والبلقان.

تلقَّيْتُ منه ذات يوم برقية قال فيها إنه قَبَضَ على بعض قادة الجيش من رتبة «الباشا» مثله، وأرسلهم تحت الحراسة إلى إستانبول بحجة أنهم خونة. وأدان بعضَهم بإفساد مؤونة الجيش، وبعضَهم الآخر بتغيير الأوامر الصادرة إليه، وغير ذلك من الاتهامات.

وعندما وصل الباشوات إلى إستانبول تولَّيْتُ شخصياً الإشراف على التحقيق. ورأيتُ أنهم ينتقدون سليمان باشا بسبب تدخُّله في خلع السلطان عبد العزيز.

وبكل ما استطاع سليمان باشا من قوة قَبَض عليهم وأدانهم وأرسلهم

تحت الحراسة إلى إستانبول لإعدامهم رمياً بالرصاص. وأدان تقرير راسم باشا ـ الذي كلَّفته بإجراء التحقيق ـ سليمان باشا، وذكر التقرير أيضاً صراحةً أنْ ليس على هؤلاء الباشوات أيُّ شائبة؛ حدث هذا أثناء الحرب.

لم أتفوَّهْ بأيِّ كلمة، ولم أوجِّهْ لسليمان باشا أيضاً أيَّ كلمة، وبعد التحقيق مع هؤلاء الباشوات طيَّبتُ خواطرهم، وأسندتُ إليهم أعمالاً أخرى، ثم أرسل سليمان باشا برقية إلى الصدر الأعظم أدهم باشا يسأله فيها قائلاً: ماذا حدث؟ هل وقَّعتم العقوبة على الباشوات.

القائد المجتهد
لا بدَّ من احترامه

إن جندياً شريفاً ارتقى في مناصب الدولة إلى رتبة الباشا لا يصح أبداً أن يُقبض عليه وتُقيَّد يداه بهذا الشكل مهما كان ذنبه طالما أنه لم يخُنْ بلده ولم يتعاون مع العدو أو يحرِّض الجيش على الفرار، لا سيما وأن هؤلاء انتقدوه وبحق في عملٍ اقترفه في حينه. ولكن إذا استطاع أحد أن يغدر بسلطان دولته، فهل يمكن أن يكون صاحب شفقة إزاء زملائه؟ يقولون: إن سليمان باشا جنديٌ جيد! ولا أريد أن أناقش كيف يكون كبير القادة في الجيش جندياً جيداً وهو قد هُزم وأتى بالعدو إلى أبواب إستانبول، ولكني أعرف أنه رجل حقود لا يعرف العفو عن خطأ قَطْ. ولا أعتقد أن هؤلاء الذين لا يحملون في روحهم الرحمة والشفقة يمكن أن يكونوا جيدين.

ما كتبته أتعبني، وأكثر من هذا: إن الضيق قد استولى عليَّ اليوم، وسأعاود غداً إن شاء الله الكتابة في مسألة سليمان باشا.

٢٥ مارت ١٣٣٣ [رومية]

أخلاقيّات سليمان باشا
أحد قوّاد جبهة الطونة

يعتبرون سليمان باشا أيضاً من ضمن ضحاياي، وكأني نفيته لأنه صديق لمدحت باشا ولأنه لعب دوراً في خلع عمي السلطان عبد العزيز. وإنها لحقيقة أنه لعب دوراً كبيراً في إسقاط السلطان عبد العزيز من عرشه في الوقت الذي كان يشغل فيه منصب قائد المدرسة الحربية. ولكن ظهر أنه لم يشترك في قتله. من الواضح أنه إذا اشترك أحد الباشوات في إسقاط سلطان من على العرش ألاّ يثق به السلطان الجديد، لأن الذي لعب دوراً ضد الأول يستطيع لعب نفس اللعبة ضد الثاني. ورغم هذا، فإني قد توصّلت إلى قرار وهو اعتبار مدى إمكانية خدمة الإنسان واستعداده هي موضع الاعتبار في أكثر الأوقات. فالبلاد تحتاج كثيراً الإنسانَ صاحبَ الاستعداد. كان ما يُرجى عَمَلُهُ كثيراً. وكان قليلاً هؤلاء الرجال ذوو الاستعداد للعمل.

ولهذا السبب فإني دفعت سليمان باشا وأمثاله إلى العمل بدلاً من إبعادهم عنه.

وكان الجو على وشك استئناف الحرب من جديد في جبهتَي الصرب والجبل الأسود. أعلوا من شأن سليمان باشا فوصفوه بأنه «الجندي العظيم». أرسلته في هذه الفترة الحساسة من تاريخ الدولة العثمانية إلى هاتين المنطقتين كقائد عام لجيوشنا في البلقان. تحاربنا في هذا الوقت مع الروس وكان سير الحرب في غير صالحنا. ولمّا كان من المفيد أن يدعم سليمان باشا جيش الطونة بجزء من قواته فقد صدرت له الأوامر بذلك.

أنزل سليمان باشا الجنود تحت قيادته إلى زغرة عن طريق «دَدَه كوى» بزحف إجباري. وبعد أن أقام الاستحكامات هناك توجّه إلى زغرة القديمة

وأجبر قوات الجنرال «جوركي» على الانسحاب في يومين بعد أن شتّت شملها. وفي نفس الوقت سار الغازي عثمان باشا نحو «بلاونة» وكانت في يد العدو [الروسي] واستولى [العثمانيون] عليها في يوم واحد. وبلغت الخسارة في صفوف الروس سبعة آلاف قتيل نظير ألف فقط في صفوفنا والحمد لله. أسعَدَتْ أنباء الانتصارين المتعاقبين الجيش والأمة.

كان الاقتناع عاماً بأنَّ الحرب حتى ذلك اليوم لم تكن تُدار جيداً، وعزلتُ السَرْ عسكر عبد الكريم نادر باشا ورديف باشا من القيادة العليا للجيش بناءً على قرار ديوان الحرب المشكَّل من كبار القادة العسكريين والمنعقد في القصر وتم تعيين المشير محمد علي باشا بديلاً لذلك.

في هذه الأثناء تسلَّمنا برقية من سليمان باشا. كان يريد إرسال جزء من القوات الموجودة تحت قيادة حفظي باشا إلى الجبهة، وهذه القوات كانت ستلتحم مع العدو في حالة انشطار الجبهة. ورأى ديوان الحرب إبلاغ سليمان باشا بالموقف وتم إبلاغه. وكان الردّ الذي تلقيناه من سليمان باشا خارجاً عن كل أصول الأدب. كان الرد يقول: «إذا فشلت أنا هنا فستضيع البلاد، ولن يكون في ذلك الوقت أيّ احتياج للعاصمة». رأى مجلس الحرب أن هذا التجبُّر وقلة الحياء لا يتناسبان مع أخلاق المهنة ولا مع وقار موظف الدولة، فأصدر بالإجماع قراراً بعزل سليمان باشا وكان ديوان الحرب سيوجِّه قيادة جيوش البلقان إلى الغازي عثمان باشا بديلاً عن سليمان باشا.

تدخَّلتُ وطلبتُ إبلاغ الغازي عثمان باشا بالموقف أولاً، ثم الوصول إلى قرار بعد أخذ رأيه.

كما توقعت بالضبط، أخطرنا الغازي عثمان باشا بأنه من الصعب عليه جداً ترك موقعه، وأنه يرى تكليف سليمان باشا بهذه الوظيفة، وكان رأي جنديّ مثل عثمان باشا التحم مع العدو في الجبهة وحقَّق انتصارات، رأياً له

أهميته. ورغم ما فُهم من برقية سليمان باشا الأخيرة، فإني اقترحتُ على ديوان الحرب تعيينَه للقيادة، في الوقت الذي أعرف فيه أنه يتصوَّر بأن أفكاره هي أساس نظام العالم دائماً. لم يتقبَّل ديوان الحرب رأيي بسرور، ولكن مع ذلك تم تعيين سليمان باشا، ليس قائداً عامّاً لجيوش البلقان فقط وإنما قائداً عاماً لجيوش الطونة أيضاً.

سليمان باشا صديق لمدحت باشا
ومع ذلك عيَّنتُه قائداً عامّاً لجيوشنا في البلقان

فلنفكِّرْ الآن بعدلٍ وإنصاف، لو كنتُ عدوّاً لأصدقاء مدحت باشا وعدوّاً لمن تدخَّل في إسقاط عمي السلطان عبد العزيز عن العرش، أكنتُ أسلِّمه لديوان الحرب أم كنت أجعل منه قائداً عامّاً لقواتنا في البلقان والطونة؟ يا تُرى هل من سلطان غيري كان يصفح عن أحد قواده عندما يرسل له هذا القائد برقية سفيهة وقحة ممتلئة بالاحتقار؟! أأنا إذن الذي يحقد أم سليمان باشا الذي يقبض أمام أعين الجنود المحاربين في الجبهة على القوّاد الذين انتقدوه ثم يرسلهم إلى إستانبول لإعدامهم؟ ولأن المقام الذي أحتلُّه مقامٌ يستلزم الارتفاع فوق مستوى الشعور الشخصي فإني أصفح تماماً ــ دون أن تطرف عيني ــ عن ذنوب هؤلاء الذين ألمس منهم فائدةً للبلاد. وحتى لو لم يسألني أحد عن هذا في الدنيا، فإني أعلم وأؤمن بأني سأحاسَب يوم الحشر عن كل ما فعلته. ولا بد لي أيضاً ــ كسلطان ــ من نواحي قصور، لكن مهما كان قصوري، فالحمد لله أنه لم يكن قصوراً أرتكِب به حمل أحقاد وأخلط فيه أحاسيسي الشخصية بأمور الدولة. ولن أساءَل في هذا يوم القيامة.

تقدُّمُ الروس في البلقان واستيلاؤهم على بعض قلاعنا، شجَّع البلغاريين على الطغيان، وبدأوا يتعدّون على الأتراك هناك بمختلف أنواع الظلم والتعذيب، لدرجة أن كل الصحف الأوروبية تقريباً، وصفت هذه

التصرُّفات بأنها خالية من الإنسانية. وكانت تلعن البلغاريين. وكنت أبديتُ انتباهاً شديداً حتى لا تكتب صحف إستانبول ولا غيرها من المدن العثمانية هذه الأخبار، لأنَّ من الممكن جداً أن يثور الأهالي المسلمون هنا، ويقابلوا الأهالي غير المسلمين بالمثل. وعلى نفس التقدير أيضاً يمكن أن تعود الدول الأوروبية مرة أخرى إلى عدائنا ويمكن أن نرى الأساطيل الإنجليزية والفرنسية أمام شواطىء إستانبول بحجة حماية غير المسلمين.

ولكن سيل برقيات سليمان باشا من الجبهة لا ينقطع. يشرح أنواع المظالم التي يلقاها الأتراك، ويطلب إرسال وفد من الصحفيين إليه ثم لينشروا عن طغيان البلغاريين في صحف إستانبول. لا يشغل بال سليمان باشا إلَّا الشهرة. ولم يفكر فيما يمكن أن يحدث بعد نشر هذا في الصحف، ولكن رغم شدة الحاجة فإني لم أرسل له الصحفيين ومنعت نشر هذه الأخبار. وبعد أن كتبنا له أفكارنا في هذا الموضوع ردَّ علينا متجاوزاً حدوده واتهمنا جميعاً بالخوف والتوهُّم.

القائد العام يقول:
لا بدَّ لما أردته أن يتحقق وليَحِقْ بالدولة ما يحيق

أفكر الآن لو كان في هذا الأمر خطأً ما، فهل يا تُرى يكون نشر هذه المظالم في الصحف وعدم التفكير فيما يمكن أن تقع فيه البلاد من مخاطر جديدة واضطرابات، أفضل أم نكتبها وبذلك نفتح الطريق أمام نكبات لا يمكن إصلاحها؟

وأنا أوافق على خطأ «باشا» يعمل قائداً أعلى للجيوش ولا يستطيع أن يدير عقله في أمرٍ بسيط كهذا الأمر، ولكن فليقبل أذناب سليمان باشا المتبجِّحين أنه كان أنانياً ومعدوم البصيرة عندما قال: «لا بدَّ لما أردته أن يتحقق وليَحِقْ بالدولة ما يحيق».

وتحت القيادة العامة لسليمان باشا خسرنا الحرب مع روسيا، وديوان الحرب مقتنع بأننا خسرنا الحرب بسبب أخطاء القائد العام. علّلوا هذا بأنه لم يستطع استخدام القوات ولم يستطع النجاح في استخدام الجنود، ولهذا حلّت بنا الهزيمة وخسرنا الحرب.

طلبوا محاكمته، ولم أتدخل في هذا، فقد كان عملاً عسكرياً، وحوكم أمام محكمة عسكرية وأُدين، وأصدرتُ عفواً عنه، وأبعدته عن إستانبول.

ها هو ذا وجه الحقيقة في قصة سليمان باشا، ولو كان هذا حكماً صعباً بالنسبة له، فإنه لم يكن بتقديري أنا ولكن بتقدير الله، وإذا كان لسليمان باشا تقصير في جوانب أخرى فنسأل الله الصفح عنه.

٢٦ مارت ١٣٣٣ [رومية]

ثقة الوزير الأعظم بإنجلترا كانت خطأً

حاولت كثيراً منع هذه الحرب ولم أستطع. حاولت بعد ذلك أن أَكسبها فاستنفذ هذا مني الكثير، سواءٌ من نوم ليلي أو حضور نهاري. ولم أستطع النجاح. هذه الحادثة سيقررها التاريخ دونما حيرة: عشرات الآلاف من أقق[1]... الأوراق التي في دور المحفوظات. وأمام الناس أعداد لا تحصى من الكتب، والتاريخ سيسجل دونما حيرة أيضاً كيف أن سلطاناً دُفع بقوة إلى أتون هذه الحرب. لذلك فإني جد متأثر من جراء هذا.

أعدائي يحاولون تماماً كما يحاولون في كثير من الأمور الأخرى تحميلي مسؤولية الحرب الروسية عام ٩٣ [رومية]. إنهم يرون أني أردت هذه الحرب وأني منعت وساطة الدول الكبرى وأني دخلت هذه الحرب لاكتساب

---

(١) جمع أُقة وهي وحدة كيل وميزان. [توضيح م. ح.].

شهرة وأني أدرتُ هذه الحرب من القصر ــ ولا علم لي بالحروب على الإطلاق ــ وأني أبعدتُ كثيراً من القواد عن مراكز قيادتهم وعيَّنتُ في أماكنهم قوّاداً آخرين جهلاء، وأني تركت الجيش بلا سلاح وبلا مؤونة وهكذا عملت بالضرورة على هزيمة الجيش.

نعم، هكذا يستطيعون الكتابة دون أن تحمرَّ وجوههم خجلاً. ويعملون على إقناع كل الناس بهذا. وعندما يرى الإنسان هذا ويقرؤه لا يتمالك نفسه من أن يفكر قائلاً: عجباً هل زالت دور المحفوظات من الوجود؟

أدخلت التلغراف بجهودي

أخطأ مدحت باشا وأنصاره كثيراً عندما وثقوا بالإنجليز وتمادوا في مواقفهم، وبالتالي ألقوا ببذور الحرب. والوقوف أمام هذا التصرف يمكن على كل حال أن يأخذ شكل الخيانة. فهمت أنني لن أستطيع منع الحرب وعلى ذلك فقد بدأتُ الاستعداد للحرب.

لم تكن الطرق الداخلية في البلاد كافية. وكان التخابر يحدث بواسطة الجياد وكان تلقّي الأخبار عن جيش أُرسل إلى الحدود يستغرق أياماً بل أسابيع في بعض الأحيان. سمعت ببدء استخدام واسطة التخابر المسماة بالتلغراف فتحرَّكت فوراً واستدعيتُ خبيراً من بلجيكا كان اسمه جان ديكرو، وكان رجلاً من أصحاب الأعمال، وأقمتُ في القصر مركز تلغراف مجهَّز بأقوى الكابلات وقامت كل ولاية بنصب أعمدة التلغراف في ساحتها وركَّبت الأسلاك وبدأ عمل الخطوط وكان ديكرو هذا يدير هذا المركز التلغرافي. استدعيته وقلت له أنه لو علَّم رجالنا كل أعمال التلغراف بحيث يمكن أن يديروه بأنفسهم خلال ستة أشهر فإني سأمنحه نيشاناً عثمانياً وأعطيه ألفين ذهباً.

وسريعاً ما أقام جان ديكرو مدرسة في القصر وقسّمها إلى ثلاثة أقسام، وبدأ يلقي دروسه ليلاً ونهاراً وبعد شهرين ونصف شهر أمكنه إعداد موظفي تلغراف مستعدِّين بأنفسهم أن يديروا شبكة التلغراف التي تربط أهمّ الولايات سواء في الأناضول أم في الروملي بالعاصمة وهكذا أمكن تأمين التخابر.

قالوا: إن عدد الجيش في الشرق وصل إلى ثمانين ألفاً، وعدده في الروملي [منطقة البلقان العثمانية] مائتا ألف، فدعوتُ الصدر الأعظم أدهم باشا والسَرْ عسكر رديف باشا والسردار الأكرم عبد الكريم نادر باشا ورؤوف باشا ناظر البحرية ومحمود باشا مشير الطوبخانة [دار المدفعية]، دعوتهم إلى القصر وكوَّنت منهم ديوان حرب سألتهم عن آرائهم وما يفكِّرون فيه. وتوصَّل ديوان الحرب هذا بعد مناقشات استمرت عدة أيام إلى القرارات التالية:

١ ــ تعيين عبد الكريم نادر باشا على رأس القوات التي ستواجه الروس عند الحدود، وهي القوات المعروفة باسم جيش الطونة.

٢ ــ تكوين ديوان حرب في القصر من الباشوات المختصين، حيث أصبح من الممكن تأمين الاتصال بالجيش بواسطة التلغراف، يوالي هذا الديوان ــ بعد توزيع الاختصاصات ــ يوالي دقيقة بدقيقة كل أمور الجيش من إعاشة ومؤونة وذخيرة وتموين وكافة التجهيزات، كما يتابع دقيقة بدقيقة كبار قادة القوات ويقوم بتسهيل أعمالهم.

٣ ــ يستخدم باسمي كل طاقات الدولة العثمانية وإمكاناتها فيما تقتضيه الحرب.

كانوا أكفأ باشوات في الدولة العثمانية. ووافقتُ على قراراتهم بعد هذه الدراسات. أخبرني كل من الصدر الأعظم أدهم باشا والسَرْ عسكر رديف باشا أن بعض القلق يسود بين ضباط الجيش من مختلف الرتب، ذلك لأن بعض

الباشوات والضباط من هؤلاء الذين احتضنهم حسين عوني باشا يرون صواب تنحية السلطان عبد العزيز من العرش. وبعض الباشوات والضباط يرون أن هذا أمر غير صائب وأنه معيب. وهذا جعل الجيش ينقسم على نفسه من الداخل وانعدمت الثقة بين الفريقين. ورغم أنه لم يظهر في الأفق اضطراب قط إلاَّ أن كلمتَيْ «منا ومنهم» كانت تدور على ألسنة كل من الفريقين. وتأثرت لهذا، فإننا والعياذ بالله نفقد كل شيء من جراء هذا. سألتُ عن الحل فاقترح عبد الكريم نادر باشا أن يُنقل الضباط الذين يحتمل أنهم مثيرو هذا الأمر إلى جبهات مختلفة، قال السَرْ عسكر رديف باشا: إن هذا من شأنه إحداث الاضطراب والبلبلة في الجيش، فالجندي الذي يحارب تحت قيادة ضابط يعرفه، لا بد وأن يحارب جيداً. وبعد مذاكرات طويلة تقرَّر أنه إذا ظهرت هذه الخلافات فعلى ديوان الحرب اتخاذ التدابير اللازمة لمنعها.

أسباب انهزامنا أمام الروس

لست عسكرياً، وكنت لا أعرف أيضاً الحالة الروحية للجنود. اقتراح عبد الكريم نادر باشا أعجبني وتصورت أنه الصواب ووجود الجماعة التي تفهم بعضها بعضاً معاً في مكان واحد لا بد وأن يكون أكثر فائدة للمصلحة العامة. ونظراً لضيق الوقت الذي أمامنا، وبناءً على الأفكار التي قُدِّمت عن الحالة الروحية للجنود، اشتركتُ بدوري في اتخاذ القرار. وكان هذا واحداً من أفدح الأخطاء التي جعلتنا ننهزم أمام الروس.

أربعون عاماً تمرُّ اليوم على هذا القرار وما زلت أفكر فيما لو كنا قَبِلنا رأي عبد الكريم باشا القائل بنقل الضباط المثيرين للفتنة إلى جبهات مختلفة، لو كنا قبلناه لما كنا انهزمنا أمام الروس، ولكن لم يكن هذا القرار فقط هو الشيء الوحيد الذي لعب الدور الأول في هزيمتنا. إن التكتيك الذي استخدمناه في الحرب كان أيضاً خطأً. لم نقبل ساعتها الحرب على أرضنا.

كنا قبلناه على أرض العدو،كان ذلك بناءً على آراء بعض الباشوات وفي أثناء الحرب ظهر خطأ رأي كل من رديف باشا وعبد الكريم نادر باشا هذا الرأي الخاص بانعدام القدرة الهجومية لدى جيشنا. إن تكوين الجيش الروسي من ثلاثمائة وعشرين ألفاً مقابل مائتي ألف عندنا أخاف كلاًّ من رديف باشا وعبد الكريم باشا.

شخصية رديف باشا

رديف باشا قائد يتمتع بعلم عسكري عال لكنه كان متردداً لا يستطيع اتخاذ قرارات حاسمة ولا يستطيع أن يجد في نفسه الشجاعة على تحمل المسؤولية بمفرده. وأرى الآن بوضوح أنه لم يستطع استخدام مهارته خوفاً من الخطأ كما كان يخاف أن يفقد منصبه نتيجة لخطأ يقع فيه.

أما السردار الأكرم عبد الكريم باشا فقد كان رجلاً مهيباً ذكياً وعالماً لكنه كان قد بلغ السبعين من عمره، نجح في حرب الصرب والجبل الأسود. كان جندياً قديراً درس في مدرسة الحرب في ڤيينا، ويُجيد اللغات الأجنبية، ويفهم تكتيك الجيوش الأوروبية، لكنه لم يستطع ركوب الخيل وكان يقوم بجولاته في معسكرات الجيش راكباً عربة لأنه كان مريضاً. وكان ككل كبار السن يحتاط للأمور أكثر مما ينبغي. وكان يخاف أن يفقد في معركة واحدة شهرته التي اكتسبها في عدة سنوات. لهذا لم يكن يستطيع أن يضع فكرة الهجوم نصب عينيه. أصر على القلاع الأربعة: سلستره وروسجق وڤارنا وشومو، ولم يرغب في التفكير بأن الروس يمكنهم أن يعبروا البلقان.

الخطأ الآخر الذي ارتكبته هو منح هذين الباشوين مسؤولية كبيرة. اتضح الموقف بعد انتصار سليمان باشا في «أسكي زغرة». وبعد نجاح الغازي عثمان باشا في هجوم «بلاونة» سحبت هذين المشيرين، ولكنا كنا خسرنا نصف الحرب حتى ذلك الوقت. أما الذي أخذ بنصف الحرب الآخر

فكان أنانية سليمان باشا وتقديمه لنفسه على كل الباشوات والضباط المؤيدين له وشلّه لحركة هؤلاء الضباط الذين اعتبرهم معارضين له. هذا ما أخذ بنصف الحرب الآخر، وأتى بالروس إلى أبواب إستانبول. ومن هذه الأسباب أيضاً عدم إمكان نجاح الغازي أحمد مختار باشا في الجبهة الشرقية رغم أنه كان قائداً جيداً وثقنا به كثيراً.

أظهرت حرب ٩٣ [رومية] أشياءَ كثيرة. أما أولئك الذين أغلقوا أعينهم لكي لا يروا شيئاً فإنهم يكررون بلا توقف ما حفظوه. وهم في ذلك كالببغاوات، ويواصلون هذيانهم واتهاماتهم لي قائلين إن السبب دائماً: عبد الحميد! عبد الحميد!

تُرى من كان يعتبرني على حق لو أنني لم أكن سلَّمت الجيش إلى سرادار أكرم مظفر مثل عبد الكريم نادر باشا. من هذه الحقيقة من أين لي أن أعرف أن جندياً شبعانَ العين سيتخذ قرارات خاطئة بسبب من شيخوخته. لم يعترض أحد على خطة الحرب غير سليمان باشا، حتى «مولتكه» وهو قائد من أعظم القادة الألمان، قَبِل بأهمية القلاع الأربعة.

هل كان من العقل تغيير القادة في اليوم الذي طَرَقَتْ فيه الحرب الأبواب؟ ثم وعند الحديث عن هؤلاء، ألم يكونوا من أعلم القواد وأكثرهم تجربة بين هؤلاء الذين أُعِدّوا إعداداً عثمانياً؟ ومن يا تُرى ذلك الذي لو وضعته في نفس الموقع كان يمكن أن يهزم الروس؟ ألم يظهر تحت قيادة سليمان باشا ذلك الانهيار الكبير الذي وصلنا إليه؟ حتى ذلك الجندي المبارك الغازي عثمان باشا، هل جنح [ولو قليلاً] لتحمل المسؤولية؟ يجب أن نعرف لماذا خسرنا الحرب، ولكن ليس لاتهام هذا أو ذاك وإنما لكي لا تتكرَّر في بلادي نفس الأخطاء مرة أخرى [فيما بعد].

ولم أقع في نفس هذه الأخطاء مرة أخرى في الحرب اليونانية، كنت

أعرف انقسام الجيش من الداخل. وكنت أعرف أنه يجب على القائد أن يثق بنفسه، كنت أعرف أنَّ جيشاً أُعِدَّ إعداداً جيداً للدفاع، ينبغي مراعاة رفع قوته الروحية عند دفعه للدفاع. أما مستوى العدد بين الجيوش فيأتي في مرتبة تالية. ولكن لكي أستطيع الإفادة من هذا كان يجب أن أحمل مرارة الهزيمة من الروس في داخلي كل هذه السنوات العشرين.

أجد نفسي في هذه الأيام وأنا في مقام محاسبة الضمير وأنا بعيد جداً عن الدنيا قريب جداً إلى الآخرة، أفكر في أن الخطأ الكبير حقيقة يأتي متدحرجاً من أيام جدِّي إلى الآن. لقد قضينا على الإنكشارية ولكنا لم نقضِ على الأسباب التي أفسدت الإنكشارية. إن إنهاء هذه المؤسسة العسكرية قد جرَّ علينا وصول محمد علي باشا حتى مشارف كوتاهية. ولم يُثْنِه شيء في طريقه وهو الذي كان بالأمس أحد عبيدنا. كما جرَّ علينا [إلغاء الإنكشارية] عقد معاهدة «أينالي قاواق» مع الروس، وإصدار فرمان التنظيمات. ليتنا كنا استطعنا إبعاد الجيش عن السياسة. لم تمض أربعون عاماً على انكسار الإنكشارية حتى أسقط جيش حسين عوني باشا، عمِّي السلطان عبد العزيز من على العرش.

انقسم الجيش الجديد على نفسه بدعوى الموالاة للأسرة المالكة والمعاداة لها ففقدنا حرب ٩٣. إن نفس هذا الجيش هو الذي أسقط أخي مراداً من على العرش وكذلك أسقطني أنا. وكذلك الأسباب التي فقدنا من جرّائها حرب ٩٣ هي نفس الأسباب التي جعلتنا نفقد حرب البلقان. ليس التاريخ هو السبب، بل إن السبب يكمن في تكرار الأخطاء بلا انقطاع.

ولو فقدنا اليوم وطننا فذلك يرجع إلى ذات السبب أيضاً.

العدل هو أساس الـمُلك العثماني

الذين يفهمون التاريخ العثماني يعرفون أن هذه البلاد لم تقم مستندة على القوة، ولكنها قامت على العدل، فلو كانت الجيوش العثمانية حملت معها الظلم إلى البلاد المفتوحة لتفتتت هذه الإمبراطورية إلى أجزاء كالبذور، ولم تكن قد قامت لها قائمة بعد ذلك لأن العدل هو أساس المشروعية، والمشروعية مسند الحاكمية، والقوة مؤيِّدة المشروعية، والحاكمية مضطرة للاعتماد على العدل[1]. فإذا نهض أحد للحكم بلا عدل واستخدم القوة بلا مشروعية، فلا بد لهذا الحكم أن ينهار. كذلك الجيش أيضاً إذا استخدم القوة التي يملكها في إطار غايتها فذلك مشروع. أما إذا وضعها في غير إطار غايتها فذلك غير مشروع. قد يهدم الجيش أشياء، نعم، يهدمها لكنه في النهاية يهدم نفسه وبكل أسف فأحياناً تنهار دولة تحت هذه الأنقاض.

قصر بَيْلَرْبَى

٢٨ مارت ١٣٣٣ [رومية]

الشكوى من مخابراتي

أُسجِّل الآن أمراً مرَّ بخاطري. اشتكى أعدائي كثيراً من موظفي رقابتي [مخابراتي]. وهؤلاء الأعداء يزعمون أنه سيطر عليَّ الوهم والخوف، ولذا أتصور البرغوث جملاً. وعلى هذا فإن رجال الرقابة أيضاً كانوا يجعلون من أخبار الصحف وموضوعاتها مادة مبهمة. لا! فكما أني أراعي ألَّا أكون تحت

---

(١) يؤكد عبد الرحمن عزام، وهو أحد رجالات العهد العثماني الأخير، وأوَّل أمين لجامعة الدول العربية هذا المعنى بقوله: «ولم يكن فوز آل عثمان كما يظن بعض الناس مستَمدّ من سيف وشجاعة، بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع».

عبد الرحمن عزام، آخر الخلفاء، مقال في الأهرام بتاريخ ١٩٤٤/١٠/٢٢م.

سيطرة الوهم، فكـذلك أيضـاً أراعي ألاَّ أكون غـافلاً. ذلـك لأن الغفلة تؤدي إلى أذى كبيـر، يفوق مـا يؤدي إليه الـوهم من أذى. بعض الذين علَّمتهم في مـدارسي وأرسلتهم إلى أوروبا، وكفلت لهم تعليمهم في بـلاد العالم ظهـروا بألا قابليـة لهم ولا استعداد. كـانوا يعـودون إلى البلاد بـأفكار تضـرها، ذلـك لأنهم لم يستـطيعوا معـرفة مـا هو ضـروري ممـا شـاهـدوه في أوروبـا ورأوه. لا أستـطيـع مجازاتهم لأنهم أعـدوا أنفسهم إعداداً خـاطئاً، ولكن لم يكن من حقي أن أصرح لهم بإعداد الآخرين إعداداً خاطئاً.

عين العدل أن تكون الإدارة في يد المسلمين

كـانـوا يـرون أن من مقتضيـات العـدل ووجـوب انتخـاب القـائمقـام والمـوظفين في قصبة صغيـرة من القصبات التي يزيد فيها عـدد غير المسلمين عن خمسين في المائة، وجـوب انتخابهم من غيـر المسلمين. لم يخطر على بالهم [أي أعدائي] حتى مجرد التفكير في أنه لا يوجد في البرلمان الإنجليزي ممثـل واحد للهنـد، ذلك البلد الكبيـر البالـغ عـدد سكانـه مائتـان وخمسـون مليون نسمة. إنهم رأوا المشروطية في إنجلترا وهامـوا بها لكنهم لم يـروا من الذي يستخدم المشروطية في إنجلترا.

كـانوا يـريدون نسف البـلاد بكتابـة هذه الأفكـار الجـاهلة ونشـرهـا في الصحف لكني لم أتركهم، فكانوا يتهجَّمون عليَّ في ذلـك الوقت ويصفـونني بأني ظالم.

بعض الشباب يُبتعث إلى أوروبا فيفسد

بعض الشبـاب الـذي كـان يـذهب إلى أوروبـا، كـان قبـل أن يـرى ما يحدث في المختبرات العلمية هناك، كان يرى السيدات تـراقص الرجـال. وكـان هذا الشبـاب يُعجَب بـالأوروبيين وهم يشـربـون الخمـر أيضـاً، وعنـد

عودتهم إلى بلادهم يوصون بالأخذ بكل ذلك [السَّفَه] مدَّعين أن قمة الحضارة الأوروبية تتمثل في مثل هذه الأمور، وكنت أقول إن هذا خطأ، فكانوا يتهمون تفكيري بأنه عنكبوتي.

كذلك بعض الشبان الذين أرسلتهم إلى أوروبا درسوا وتعلموا الثورة الفرنسية ووجَّهوا اهتمامهم بها، دون أن يدرسوا أسباب انفجار هذه الثورة. وهؤلاء كانوا عند عودتهم إلى البلاد يعتبرون أن حب الوطن هو الدعوة لإثارة الشعب والعمل على تمرُّده. ولم أكن أسمح بهذا. كانوا في ذلك الوقت يهاجمونني بمثل ما كان يهاجمني به أعداء البلاد [الخارجيِّين] من وصفهم لي بصفة السلطان الأحمر وكنت أمنع انتشار هذه الأفكار التي أتوا لنا بها من الخارج.

الرقابة ومصلحة الأمة

وهذا هو الرقيب، الرقيب اسم لمن يقف أمام الذين يريدون تقديم السمّ بدلاً من الدواء لبلادي التي تجاهد في سبيل الصمود وسط العواصف المختلفة.

كتبتُ وكذلك سأكتبُ. وقلتُ وكذلك سأقولُ: أين هو الكاتب أو الأديب أو العالم في بلادي الذي كتب موضوعاً مفيداً أو ألقى محاضرة نافعة أو أخرج كتاباً قيماً ومنعتُه؟ دعكم من المنع، أيٌّ من هؤلاء لم أقدِّم له العون ولم آخذ بيده؟

الذين يجهلون أنفسهم وبلادي التي يحيَوْن فيها ويجهلون ما رأَوْه ودرسوه، قد وقعوا في هوس قذفي بحجارة بعض الكلام والكلمات. وإني لأشكر موظفيَّ إذ منعوا هؤلاء، رغبة في حماية وحدة البلاد واستقرارها. أشكرهم باسم بلادي فقد فعلوا خيراً وطوبى لهم.

كنت كالبستاني
يحمي شعبه من الحشرات الضارة

وكما يحمي البستاني أزهاره من الحشرات الضارة، حميتُ أنا أيضاً بلادي من الأفكار التافهة ولم أسمح لها بِقَرْض دولتي. عاملت هؤلاء الشبان وهم أصحاب أفكار خاطئة، عاملتهم بشفقة ولم أعاملهم بظلم. ولقد حاولتُ مع الكثير جداً منهم، كل على حدة، أن أرشدهم إلى الطريق القويم وعملت على تحويل نيران حماسة شبابهم إلى خير البلاد. نجحت مع بعضهم وأخفقتُ مع البعض الآخر. حلال عليهم ما بذلته من جهد، لم أستخدم همتي هذه في سبيل شراء ضمائرهم، لكني استخدمته لتنوير ضمائرهم.

إنني أتحدث بصراحة تامة في هذه الأيام التي ارتبطتُ فيها بالدنيا برباط النفس، وبالآخرة برباط النفيس، وأقول: ليس من أحد من الذين تملَّكوا الدولة من بعدي عرفوا احترام الفكر قدر ما عرفته. سيطروا على الدولة ورددوا كلمة الحرية وبمجرد شروعهم في الحكم ظهر أنهم لا يريدون الحرية إلاَّ لأنفسهم فقط. إن الحرية التي فهموها هي التي تبدو بأنها حرية السبِّ فيَّ، وشتمي، والتصفيق لهم، ويدخل ضمن هذا أيضاً حرية قتل الكاتب المعارض لهم فوق الكوبري.

ليحمِ الله بلادي من هذه الحريات المختلفة.

قصر بَيْلَرْبَى

في ٣١ مارت [١٣٣٣] (١٩١٧م)

لم أَتدخَّل في حادث ٣١ مارت

ارتعشتُ رغماً عني عندما شرعت في كتابة تاريخ اليوم. الواقع أن هناك ثلاثة عشر يوماً ناقصة على هذا اليوم إذا ما وضعنا في اعتبارنا حساب التاريخ الجديد. إن هذا الاسم قد خرج من كونه رقماً إلى كونه عَلَماً على

تـاريـخ فترة. قليـل جداً من النـاس هم الذين أحسـوا بأن حـادثـة ٣١ مـارت [١٣ إبـريل] ستحـدث. لكن لم يعلم أحد قط حقيقـة هـذه الحـادثـة وسببهـا ومسببيها جميعاً. وإني لا أريد على الإطلاق أن تبقى هذه المسألـة محجوبـة. سأسجِّلها هنا مراعياً ألَّا أكتم شيئاً منها أو أُحَرِّف منها شيئاً.

لم أتدخَّل قـطعياً في حـادثة ٣١ مـارت(١)، ولم أسفَّ بنفسي لأفيد من هذه الفرصة التي جاءت من تلقـاء نفسها. ولـو كان لي دخـل فيها، ولـو كنتُ أردت الإفادة منها، ما كنتُ اليوم (منفياً) في قصر بَيْلَرْبَى وإنمـا كنت سأكـون (في السلطة) في قصر يلديز.

---

(١) تؤيد الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد في مذكراتها المنشورة عـام ١٩٦٦م في إستـانبول، تؤيـد هذا الكـلام، وتُضيف إليـه رأيهـا في الحـادث فتقـول: «كنت في السـابعة عشـر من عمـري عنـدما وقعت حـادثة ٣١ مـارت التي زجّـوا بـأبـي فيهـا، لم يكن لدى أبـي أيّ خبر عنها. وعندما سمـع بها حزن كثيراً، كانت المسألـة عبارة عن مؤامـرة مفجعة جـداً. افتعلتها قـوات الحفاظ على المشـروطية بتحـريض بعض المغـرضين لخلـع أبـي من السلطنـة، افتعلتهـا في شكـل تمـرُّد ضـد مـجلس المبعوثان».

مذكرات الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد ص ٣٢.

أما عن موقف السلطان عبد الحميد من حادث ٣١ مارت فيصفه الدكتور رضا نور في مـذكـراتـه التي نشـرتهـا مجلة المجتمـع الكـويتيـة عـام ١٩٨١م، كـالآتي: «ادَّعى الاتحاديون أن عبد الحميد هو الذي دبَّر الحادث وهـذا كذب. مسكين عبـد الحميد فلم يكـن لـه أيّ دخـل في هـذا الحـادث، حتى إنني أعلم يـقينـاً أنـه رفض مقابلة الجاويش حمدي القائم على هذا الحادث؛ عبد الحميد براء من هذا الحادث. لم يدبرها، ولم يشترك فيهـا، ولم يوافق عليهـا. لكنه أيضـاً لم يتحرَّك ضـدَّها. وفي هذا أيضاً لم يكن يستطيـع أن يضادها. ولم تكن هذه وظيفته».

مذكرات رضـا نور، الحلقـة ٤، المجتمـع العدد ٥٣٣، يـونيو ١٩٨١م: الكـويت. وواقعـة ٣١ مارت التي يتحـدث عنها السلطان تقـع في ٣١ مـارت ١٣٢٥ المـوافق ١٣ أبريل ١٩٠٩م و٢٢ ربيـع الأول ١٣٢٧هـ.

تصوَّرَتْ جمعية «الاتحاد والترقّي» أن حسن معاملتي لهم عندما كانوا ضعفاء جداً في ١٠ تموز، تصوَّرَتْ أن هذا ضعف مني أو أنني لم أستطع الإفادة من قوَّتي. فبدأتْ تتحفَّز للانقضاض عليَّ من أعلى. اعتراض كامل باشا على إقامة مأدبة ضيافة لباكستون اعتراضٌ وجيه وفي مكانه، وقد تسبَّب هذا في حدوث أزمة بين الباب العالي والمركز العام للجمعية. إن استدعاء طوابير القنّاصة من الجيش الثالث لكي تحمي المشروطية، وقيام طابور من الفرقة الثانية التابعة لطوابير القناصة هذه، بحملة تأديبية في عدة أماكن، أحزن الجنود الموجودين في إستانبول وضايقهم.

كانت جمعية «الاتحاد والترقّي» تتردَّى شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم(١). أما مطبوعات كل جانب خاصة الإسلامية منها، فقد كانت تنال من إسلام الجانب الآخر. قال كامل باشا بضرورة اتخاذ التدابير الحاسمة وإنَّ هذا وقتها. كان الفريق ناظم باشا قائد الجيش الثاني الموجود في أدرنة حانقاً على تدخُّل جمعية «الاتحاد والترقّي» في كل الأمور وعلى تصرُّفات الضباط التابعين للجمعية، وكان يخطرني أيضاً كتابة بأن لا بد من اتخاذ التدابير الحاسمة، وكنّا قرَّرنا إعادة طوابير القنّاصة وتهدئة الجنود الموجودين هنا وخفض عددهم.

ومع أن علي رضا باشا ناظر الحربية كان جندياً مقتدراً إلاَّ أنه كان رجلاً حليماً جداً. وغير هذا، فقد كان خانعاً للجمعية أيضاً، وكان لناظم باشا في ذلك الوقت مكانته في الرأي العام كذلك.

---

(١) عن تردي «الاتحاد والترقّي» يقول الدكتور رضا نور ــ وهو سياسي ومؤرِّخ ــ يقول في مذكراته: «كنت خائفاً من الاتحاديين لسرقاتهم واغتصاباتهم من ناحية، ولإفساحهم المجال لليهود من ناحية أخرى. وكان الآمر الناهي في الاتحاديين، ثلاثة أشخاص: جاويد (من يهود الدونمة) وطلعت (ماسوني) وقراصو (يهودي دونمة)، وأخيراً قررت الدخول في معركة ضدهم. وكان هذا عملاً خطيراً».
مذكرات رضا نور، الحلقة الرابعة، المرجع السابق.

نُفي علي رضا باشا في وقت من الأوقات إلى أَرْزِنْجَان ولم يكن هذا النفي بسبب سياسي، وتسبَّب هذا النفي في حبِّ الشعب للباشا، وكان أملي إعادة الأمان وإعادة الموقف لما كان عليه من هدوء، وتأمين الجو المناسب للمنافسة الوطنية. نسيت كل المغامرة التي حدثت مع ناظم باشا ووافقت على تعيينه لمنصب نظارة الحربية. وكان ناظر البحرية أيضاً من الذين جاءت بهم الجمعية ووافقت على تعيين حسني باشا في هذه النظارة. وتصور بعض أعضاء مجلس «المبعوثان» ومجلس الأعيان وبعض الأعيان وبعض الصحف أن هذا التعيين ضربة موجهة للمشروطية. وانسحب على الفور النظار الاتحاديّون من وزارة كامل باشا.

كان مانياسي زاده رفيق بك ناظر العدلية مقيماً في بيته، راقداً على فراشه نتيجةً للمرض الذي أُصيب به، والذي أدى إلى موته بعد ذلك بقليل. وكنت أسمع أنه على خلاف مع بعض كبار رجال الجمعية وخاصة مع رحمي بك السلانيكي.

كان مانياسي زاده يميل فكرياً إلى كامل باشا ومع أني لم أودّ الاستفادة من ميله هذا فقد توجَّه إليه في بيته كل من سامي باشا زاده سزائي والبكباشي أنور بك [وهما من كبار الاتحاديين] حيث جعلاه يوقِّع على استقالته وهو على فراش الموت، حاول ناظم باشا في البداية أن يستخدم طوابير حراس المشروطية، ولكن كل محاولاته ذهبت سدىً لأن مجلس «المبعوثان» الذي انعقد في ذلك اليوم اتخذ قراراً بإسقاط حكومة كامل باشا. ومعروف ما حدث في هذه الجلسة وماذا كان شكلها. في البداية سيطر أنور باشا على داخل مجلس «المبعوثان» بمجموعة من الضباط والجنود بملابسهم العسكرية والمدنية، وأتى بمصفَّحة وجعلها بحذاء مجلس «المبعوثان».

أبلغني بقرار مجلس «المبعوثان» رئيسه أحمد رضا بك، وأضاف إليه

ـ في سذاجة بالغة ـ أن الأمة وهي تبلغكم رغبتها هذه فإنه من الموفقيات التاريخية أن هذه المحادثات والمناقشات والقرارات المشبَّعة بحب الحرية من شأنها إضفاء الشرف على عهد جلالتكم العظيم.

لا أدري مدى الرغبة الحقيقية للأمة في هذا الأمر. لكن إسقاط كامل باشا على هذه الصورة لم يكن خيراً ولم يعد ذلك من الخير في شيء أيضاً.

كانت الجمعية وهي تستند إلى أكثرية مجلس «المبعوثان» تريد حسين حلمي باشا صدراً أعظم فقبلت حتى لا أزيد المشكلات ولم يكونوا يثقون بي، ولهذا السبب عهدوا إلى حسين حلمي باشا أيضاً ـ وهو محل ثقتهم الكبيرة ـ بنظارة الداخلية. والتزم كثير من الذين لم يرضوا بهذا الوضع جانب كامل باشا وبدأت المخاصمة صريحة بين الطرفين. أما الصحافة فلم تكن تفكِّر في المشروطية، وإنما كانت تفكِّر في مدى الإفادة التي تعود عليها من كل أعضاء «الاتحاد والترقّي» أو من كامل باشا ومؤيِّديه. وكشفت الحرية تماماً عن مدى استعدادنا وقابليتنا لها. وبفضل المشروطية عرفنا تماماً في ثلاثة أو أربعة أشهر مدى قدرتنا ومدى عجزنا في أمور كثيرة. وظهر الخطر بجلاء واضح. في هذه الأثناء تشكَّلت جمعية «الاتحاد المحمَّدي» ولم يكن لها داع، إن مؤسسها الدرويش وحدتي القبرصي كان معتوهاً، وكان منفياً فترة إلى الأناضول.

كان لسعيد باشا ابن كامل باشا في هذه الأثناء نشاط ضخم وكان معه كثير من المعارضين للجمعية، وكذلك كان معه إسماعيل كمال بك أيضاً.

وعلمت أن خلافاً كبيراً حدث بين الجنود. ورأيت أنه من الخطر الكبير غير العادي عليَّ وعلى الدولة حدوث ثورة، وبشكل خاص تدخُّل الجنود في أعمالٍ مثل هذه الأعمال. أخبرتُ حسين حلمي باشا بالموقف، بل

واستدعيتُ في إحدى الليالي وزير الحربية والغازي مختار باشا زاده محمد باشا قائد القوات الخاصة إلى السراي وكان معنا الصدر الأعظم وتباحثنا في الأمر بحثاً طويلاً.

قالوا: إنهم يقدِّرون خطورة الموقف وإنهما سيتخذان فوراً التدابير اللازمة، ولكن عندما اتُّخذت هذه التدابير كان الموقف قد اختلط وتغيَّر وتعقَّد تماماً. عجزُ السلطة كان واضحاً فقد أعلنت الصحف والجمعيات والنوادي وبشكل مثير عن حريق ٣١ مارت.

لم أتدخَّل حتى لا أكون شريكاً في مسؤولية الواقعة. كان يمكن لحكومة حسين حلمي باشا قمع هذه الفتنة خلال ساعتين لو كان لديها العزم الصادق على هذا، يقول رجالي بعد أن حقَّقوا في الأمر: إن هذه الواقعة بدأت بعدد قليل من العسكر. وكان سعيد باشا ابن كامل باشا هو الذي أتى برجل ألباني اسمه الجاويش حمدي. وأَمَدَّه بالمال اللازم ودَفَعَه لتحريض هؤلاء العسكر.

لم أقابل سعيد باشا إلَّا مرة واحدة وكانت بعد المشروطية. وسبب هذا كان تذكيري لوالده ـ الذي كان صدراً أعظم في ذلك الوقت ـ بمنع الحكومة رسمياً نشر هجوية ضدي بعنوان المحكمة الكبرى نُشرت وبيعت فوق الكوبري [= في وضح النهار]، منع نشرها وغيرها مما شاكلها. وقد استدعيتُ سعيد باشا بصفته ياورا لي وكلفته بإبلاغ الصدر الأعظم أمري وإرادتي في هذا الشأن.

طُبعت المحكمة الكبرى قبل ذلك في أوروبا. وقد علمت بعد التحقيق أن كاتبها بكباشي ـ لا أستطيع تذكُّر اسمه ـ من معلمي المدرسة الحربية فنفيته. لقد أخبرني ابني الأمير أحمد وهو يبكي وكان في أشدِّ حالات التأثر أنها طُبعت في إستانبول أيضاً. بل وتُوزَّع علانية. وبدافع من هذا التأثر فقط كنت استدعيتُ ابن كامل باشا هذا. ومن كان مثلي وفي مثل هذا الموقف كان

من واجبه ومن حقه الطبيعي أن يتصرف بمثل هذا التصرف. فلقد كنت سلطاناً من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أمام عملية إهانة علنية موجهة إلى شخصي مليئة بأقذع أنواع السباب.

إنني أسامح أمتي مسامحة تنطوي على الصدق والإخلاص، ولكن ليست حياة ثلاثة أشخاص أو خمسة هي حياة أمتي التي أُكِنُّ لها الحب، وروح بلادي المخلصة لا تسب ولا تشتم سلطانها التي تعوَّد شعبُها اعتبارَه أباً وذلك منذ ستمائة سنة.

فلنعد إلى موضوعنا: لو لم يتردَّد حسين حلمي باشا ورفاقه، ولولا أن تقاعسوا عن أداء واجبهم لانتهت حادثة ٣١ مارت في ساعة واحدة. استقالت وزارة حسين حلمي باشا بعد أن أحاط الحريق بالمدخنة. طالب المجتمعون في ميدان آيا صوفيا بصدارة كامل باشا، وأن يكون ناظم باشا وزيراً للحربية، ونظراً لأنهم لم يكونوا حَذِرين فإني أوصيت بتعيين توفيق باشا وهو محايد، في الصدارة العظمى وبتعيين الغازي أدهم باشا وزيراً للحربية.

الاتحاديون يهربون

كنتُ أعلم أين يختفي كبار رجال الاتحاد والترقي [بعد هروبهم]. وأصدرت أمري إلى رجال أثق بهم بأن يحافظوا على أحمد رضا بك الذي نُقِلَ ليلاً وخفية من الباب العالي إلى منزله الكائن في مَقْرِي كُويْ.

قرأت في الصحف بعد ذلك أن لي يداً في مقتل «علي قبولي بك». رفضت هذه الفرية باشمئزار. لنفرض أنه كانت هناك ضرورة للانتقام، وأسففت بنفسي. وتدنيت بها إلى هذه الدرجة الحقيرة، فهل كنت أقتل رجلاً مثل «علي قبولي بك»، وهو لم يكن له دور في الانقلاب لا من الدرجة الرابعة ولا حتى من الدرجة الخامسة، أو بمعنى أصح أكنتُ أقتل رجلاً لم يكن له أي ذنب مطلقاً في هذا الأمر؟

وفي مجال اتخاذ الجمعية من الإجراءات الاحتياطية ضدّي كانت مسألة تعيين محمود باشا ابن الغازي مختار باشا قائداً للقوات الخاصة. ومع هذا فإني أنا الذي أنقذت حياة محمود باشا هذا من الموت أثناء ضجيج ٣١ مارت. وتُثبت هذه الحقيقة وثائق دار البرق في كل من يلديز وقاضي كُويْ.

عندما تكون الصحافة آلة في يد الضبّاط

ساعدت جمعية «الاتحاد والترقّي» وعدم خبرة الحكومة التي استندت إليها هذه الجمعية وسوء تدبيرها على إحداث ٣١ مارت. ولقد أفاد من هذا مجموعة من معارضي «الاتحاد والترقّي» وعلى رأسهم سعيد باشا ابن كامل باشا وإسماعيل كمال بك، ولم تكن هذه المجموعة على دراية بالصحافة وتجهل الإحساس بالخطر، وكذلك كانت تزيد النار اشتعالاً. قامت الصحافة الصادرة في أول نيسان وبشكل عام بامتداح القائمين بهذه الحركة. وذهب مراد بك في جريدته «الميزان» إلى أبعد من ذلك. فقد أطلق على الجنود الذين قاموا بقتل ضباطهم لقب «الغزاة»، وقارىء «الميزان» في ذلك الوقت كان مقتنعاً بأن مراد بك هو منظّم هذه الحركة ورائدها بالإضافة إلى هذا فإن مراد بك محرِّر «الميزان» لم يكن عنده حتى أدنى خبر عن أن حركة كهذه ستحدث.

إنه وضع نفسه في هذا الإطار وجَمَّله، وأخذ يكيل المديح أثناء تناوله هذه المسألة، مثلما يفعل في كل أمر آخر، ولو كانوا زجّوا بمراد بك ضمن المصلوبين في هذه الحادثة فإن ذلك ليعدّ ذنباً كبيراً.

لم أحب مراد بك في أيّ وقت من الأوقات، هل هو الآن على قيد الحياة؟ هل هو مُتَوَفَّى؟ لا أعرف. إنه كان رجلاً يثق بخياله أكثر من ثقته في

الحقائق التي يثبتها الآخرون. لقد تقرَّب إليَّ عن طريق يوسف ضيا باشا رئيس لجنة المهاجرين، وذلك عندما أصدر جريدته «الميزان» لأول مرة في إستانبول.

كان يوسف ضيا باشا غريماً لكامل باشا الصدر الأعظم وقتذاك وكان مراد بك يُرضي – ولأقصى حد – رغبات رضا باشا وأهدافه بذلك الهجوم الشديد الذي كان يشنّه على كامل باشا [في جريدته «الميزان»].

وفي أشد أوقات المسألة الأرمنية حرجاً، قدَّم [مراد بك] لي مذكرة عن طريق الحاج علي بك رئيس البلاط، قابلته وتحدَّثت معه طويلاً، كنت قابلته عدة مرات قبل ذلك. وكان يبدو من تصرفاته في ذلك المساء، أنه كان يريد الظهور أمامي بمظهر المُرشد والموجِّه لي. كان له معروضات[1] أخرى، غير تلك المذكرة التي نشرها أخيراً، ليته كان نشر معروضاته هذه، لكان ظهر بوضوح بالغ صعوبة تنفيذ اقتراحاته لأنها من الخيال المحال تطبيقه، وفي هذه الحالة كان لا بد من إحقاقي في رأيي فيه.

مراد بك رجل حسن النية، لكنه كان يثق في نفسه كثيراً وكان مغرماً أيضاً وبدرجة مفرطة بالجمال والحُسْن. وكان الإحسان يأسره إلى أقصى درجة. وعيوبه هذه كانت تجعله فاشلاً في كل ما يقوم به.

لم تكن معركة ٣١ مارت هي التي دفعت مراد بك إليها، لكنه هو الذي زجَّ بنفسه فيها. كان قد جلب على نفسه عداء الدنيا بمهاجمته للأوضاع، وللضباط الذين قدموا من الجيش الثالث، ثم مهاجمته للجنود والمدنيِّين الذين انضمّوا للجمعية بعد ذلك.

---

(١) المعروضات تعني في المصطلح التاريخي العثماني ما يُعرض على السلطان من مسائل وتقارير. [توضيح م. ح.].

كان لا بد أن تنفجر هذه المواد المشتعلة التي كانت الأحداث والإدارة غير المقتدرة تعدّها كل يوم وبشكل متغير. حتى إن تأخّر انفجارها إلى ٣١ مارت لأمر يبعث على الحيرة، وفي الوقت الذي لم أكن فيه مجبراً على تقديم حساب لأحد، أُقسم وأؤكد أنني عملتُ ما في وسعي لقمع الشر. وأظن أن لمساعيَّ الخيِّرة دخلاً في مسألة تأخر انفجار الخطر.

كلما زادت اهتزازات أعصاب الأمة كان أعضاء «الاتحاد والترقّي» يزدادون استعلاءً وتهديداً. وأعلن أحمد رضا بك رئيس مجلس «المبعوثان» في مأدبة بلغت أقصى غايات الضخامة أقيمت في فندق «پيرا بالاس» قبل حادثة ٣١ مارت بشهرين، أعلن في خطابه المهول وبصراحة بالغة، أن جمعية «الاتحاد والترقّي» ستقهر وتنكّل بكل معارضيها. أفلم تكن حادثة ٣١ مارت ردّ فعل مؤلم للضجة التي أثارتها الصحافة حول هذا الخطاب؟!

كانت صحف الجمعية تخيف الدنيا بالموت والحريق. الواثقون بأنفسهم لا يتدنون في أي وقت من الأوقات إلى درجة تخويف أحد. أما هؤلاء السادة الذين تحكّموا فجأة في مواقع السلطة فقد أعلنوا مرة أخرى عن ضعفهم مع كل تخويف بواسطة أدب التخويف الذي اتّبعوه.

لو تركنا جانباً الأحداث الصغيرة والعديمة الأهمية فإن العوامل والأسباب الرئيسية لواقعة ٣١ مارت هي ما كتبتُه.

إن عدم وجود أي شخص مطلقاً من ذوي الصلة بالقصر سواء من قريب أو من بعيد، بين القائمين بالحركة ليثبت ألاّ دخل لي في هذه المسألة. يُظهرون أن وجود تقرير أو تقريرين من تقارير المباحث بين أوراقي بعد ١٠ تموز يكفي لإثبات أنني اشتركت بعد [إعلان] المشروطية [الثانية] في أعمال [عنف] مثل هذه الأعمال.. حقيقة هذه المسألة أن مصطفى أفندي، طحّان الدخان، أحضر لي مرة أو مرتين بعض أوراق وقبلتُها لمحض الاطلاع

على مجرى الأمور فقط، وسمعت أن رئيس الكتاب جواد بك قد آخذ مصطفى أفندي لِشَغله السلطان بأشياء مثل هذه الأشياء، بل وأخطره ألاَّ يعود إلى مسألة كهذه مرَّة أخرى. وقد أحققتُ جواد بك على هذا.

رفضتُ إيقاف الجيش الزاحف لإسقاطي

كان البنك العثماني هو أول من أخبر بتحرُّك جيش الحركة من سلانيك، ولم يصعب عليَّ فهم مضمون هذه القافلة التي يحمل قوادها لقب الفدائيين، في الوقت الذي كان جنود جيش الخاصة [الحرس السلطاني] في العاصمة على أكمل وجه من الاستعداد وكانوا جنوداً منتخبين مخلصين لمقام الخلافة ولشخصي.

وقد أوصاني مجموعة من رجال الدولة وفي مقدمتهم ناظم باشا بإيقاف جيش الحركة في الطريق قبل وصوله، ولكني رفضتُ. أخبروني بأن قطاعاً من الجيش المعسكر في أدرنة انضم إلى جيش الحركة، ولم أضطرب إطلاقاً لأن ليس من بين أعمالي شيء أخاف منه.

طلبتُ، ونبهت بشدة، ألاَّ يخرج الجيش الموجود في إستانبول من ثكناته، أثناء تحرك جيش الحركة من آيا اسطفانوس إلى إستانبول وألا يشتبك معه. ألم يكن في إمكان جنود إستانبول في حالة خروجهم من ثكناتهم وانتشارهم على أعالي [حي] كاغدخانة [في إستانبول] أن ينتصروا على ذلك الجند القادم من سلانيك وهم في حالة يعوزها النظام؟

كنت سأتنازل عن العرش بمحض إرادتي

لم أرغب في أن أريق دماء جنودي. كنت أرى أن الأمة لم تعد تثق بي، وكنت أبديت رغبتي هذه من قبل، ولكنهم عارضوني، عندما التقيتُ لأول مرة مع أحمد رضا بك قال لي معارضي هذا القديم:

«سيدي ليس ثمة اختلاف قط بينكم وبين شعبكم، فقد توليتم السلطنة على البلاد وستتفضلون جلالتكم ببذل خدماتكم لمُلككم كتلك التي بذلها ميقادو لليابان».

الفرق بين اليابان وبين الدولة العثمانية

كان ميقادو موتسو هيتو حياً في ذلك الوقت. ولقد بذل حقاً خدمات هائلة لليابان. لا أدري مدى صحة تشبيه الدولة العثمانية باليابان، ولا أدري مدى صحة توقع النجاح من سلطانها مثلما كان من إمبراطور اليابان، تقع اليابان على جزر في طرف من أطراف المحيط. إنها كيان اجتماعي ضخم حقق وحدته الوطنية بدين واحد وشعب واحد. ليس هناك من أرض في الدنيا قط تشبه بلادنا المسكينة. كيف كنت أوحِّد الأكراد والأرمن والأتراك مع اليونان والعرب والبلغار؟

والذين تملكوا زمام الحكم من بعدي؛ أزالوا الخلاف بين العناصر المعادية لنا، وأوجدو الشقاق بين العناصر التي تقف بجوارنا وتؤيِّدنا!!!

عندما تكون القومية أعلى من الدين

ارتمى الأروام بموجب أحد القوانين الكنسية في أحضان البلغار ورجَّح الذين تولَّوْا زمام الحكم من بعدي داعي القومية عند الأتراك، وجعلوه في مرتبة أعلى من الغيرة الدينية، ونفّروا منهم العرب فبئس ما كانوا يفعلون.

وكان من الغريب أن يهرجوا في الداخل بدعايات القومية في حين كانوا يناقضون أنفسهم برفعهم في الخارج شعار الجامعة الإسلامية.

لم يكن أمام ميقادو موتسو هيتو حواجز كهذه الحواجز في أي وقت من الأوقات، ولم تواجِهْ اليابان عواقب مثلما واجهت الدولة العثمانية. مثال ذلك أنني لو كنت أشقّ طريقاً صغيراً في الأناضول الشرقي لأقامت روسيا الدنيا

وأقعدتها، ورغم كل هذا، كافحت بالتدريج وبتؤدة، القسم الأعظم من المرافق العامة هناك كالمدارس والطرق أُقيمت في عهدي وفي هذا المضمار أجد نفسي أكثر سعادة من أسلافي.

عندما يكون اليأس من التقدم شعاراً

ولم أجد حولي هؤلاء الرجال العظماء الذين كانوا حول ميقادو. كان هنا دائماً شيء موجود، سواء في الموجودين أو في الذين أعددتهم، ألا وهو اليأس من التقدم.

يقولون اليوم: إن في طبيعتي تردداً ولا أنكر أن عندي أثراً من هذا، الله سبحانه وتعالى فقط هو الذي يعلو فوق العيوب والتقصير، لكني أرفض بشدة ذلك الادِّعاء الذي يقول بأني عدو للتقدم.

لو كنت قلت هذا لأحمد رضا بك في ذلك الوقت، لكان هناك احتمال أن كان يظن بأني أدافع عن نفسي بخوف واضطراب، إن الحكام يقدمون الحساب عما فعلوه أثناء سلطنتهم في الدنيا أمام التاريخ، وفي الآخرة في حضور الله، ولا يقدمونه للأفراد.

عند افتتاح مجلس «المبعوثان» للمرة الثانية أوضحتُ أن سبب الإغلاق الأول هو أن الأمة لم تكن قد وصلت بعد إلى الحالة الضرورية من الرشد. نقدوا هذا في ذلك الوقت ووصفوه بأنه تزييف. وبعد مدة جاوزت الثلاثين عاماً، كم يا تُرى بلغ رشد وسداد هؤلاء النواب الذين هم رجال مثقَّفون حصلوا من الدراسة شيئاً كثيراً، بشكل غير قابل للقياس بالنسبة لمن قبلهم ولمن هم بينهم؟

أمكن أن تمرَّ دورة الانعقاد لأولى [للمجلس النيابي] بشكل أو بآخر أما الثانية فقد مرت بين بين. وبلغ هذا التردد درجة أن رقص المعارضون في قاعة المجلس

وردهاته فرحاً عندما انفصلت طرابلس الغرب [ليبيا] عن الدولة بعد احتلال إيطاليا لها. وبعد ذلك أيضاً قابل المؤيِّدين [إعلان] الحرب العالمية الأولى بالتصفيق.

لم تكتب الصحافة شيئاً، إلاَّ أني سمعت من المقرَّبين مني أن الحكومة قد أسندت إلى السادة نواب الأمة أعمالاً مربحة جداً مثل أعمال عربات السكة الحديد، إن اشتغال هؤلاء المكلفين بالرقابة الشعبية في أهم المسائل المتعلقة بحياة الأمة، إن اشتغالهم بأعمال تجارية غير مشروعة، ليظهر أنني لم أخطىء أبداً عندما تصوَّرت أن الأمة لم تستطع بعد أن تصل إلى الرشد والسداد المطلوب للحكم حسب أصول المشروطية [الديمقراطية].

فيما يتعلق بمسألة افتتاح مجلس «المبعوثان» أعترف بأنني لم أفكر في نفع للتاج أو العرش أو لشخصي، بقدر ما فكَّرت بنفع الدولة. والذين يدَّعون أو يظنون أن أمل الحفاظ على الاستبداد كان يراودني، لا بد أنهم قد جانبوا الصواب تماماً إن لم يكونوا مغرضين.

ماذا حدث بعد إعلان المشروطية هل انخفضت ديون الدولة؟ هل كثرت الطرق والموانىء والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقاً؟ هل ازدادت الحقوق الشخصية عما قبل؟

هل الأهالي الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزادت المواليد؟ هل أصبح الرأي العام العالمي الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟ وهكذا عديد من الأسئلة، والتي إذا زادت فليس من ردٍّ إيجابي يمكن أن يُردَّ به عليها. وينبغي ألا يُظن أن فكري واقتناعي مُوَجَّه دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروطية.

الدواء الناجح يصبح سُمّاً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء، أو في يد من لا يعرفون أصول استعماله.

وإني لجدٌّ آسف، فالأحداث قد أظهرت وفي أقل مدة زمنية، صدق كلامي.

١ نيسان ١٣٣٣ [رومية]

أكرمت خليل بك الألباني فأخلص لي

منذ ٣١ مارت والضِّيق يساورني حتى اليوم الثالث عشر من نيسان. اختلَّ النظام تماماً في العاصمة. الجنود يقتلون كل من يصادفهم من الضباط ومن بعض المدنيين. اهتزَّ نفوذ السلطنة والخلافة إلى أقصى حد. لو لم يكن حادث ٣١ مارت قد حدث لما استمر الحال على هذا المنوال من اضطرابٍ وضعفٍ للحكومة. بل ربما أيضاً لم يكن لهذا الحال أن يظهر على الإطلاق. وكما أني رفضت مواجهة الجيش لبعضه البعض فإني رفضتُ أيضاً اقتراح خليل بك ـــ وهو من قوّاد سلاح البنادق ـــ بمواجهتهم. وما زلت أذكر ما قاله هذا التابع الصديق بعد أن جثا على قدمَيّ وهو يبكي. خليل بك كان في كل ما يفكر فيه متعلقاً بسيده، وقد حدَّد إخلاصه لسيده، طريقه إلى حبل المشنقة. إنني أذكر هذا الألباني الشهم الطيب القلب، بالترحم وقراءة الفاتحة على روحه. قال لي وقتها: تفضّلوا بإصدار إذن جلالتكم لي [بالتحرك]، لقد أكلت من خبزكم وتمتعت بنعمتكم سنوات عديدة: إن لحمي وعظامي، ولحم أولادي وعظامهم نمت بخبزكم. لو سكتنا على اعتداء عدة مجانين على تاجكم وعرشكم، فإننا لن نخجل فقط أمام ضميرنا، بل سيلحق باسمنا العار أيضاً أمام قومنا وشعبنا.

مسكين خليل بك!! كم كان مخلصاً وصادقاً عندما قال هذه الكلمات. ولو لم أكن متحكماً وقتها في إرادتي، فربما كنت أقع تحت تأثير كلماته هذه. يا تُرى؟ ألم يكن منكسر القلب مني عندما أعدموه. إن سلطانه راضٍ عنه. اللهم ارض عنه أيضاً.

كم كـان جيش الحركـة يشبه الأبـطال الخائفين أو الخـائفين في صـورة الأبـطال. كنت سمعتُ أن المجلس القومي قـد انعقد في آيـا اسـطفـانـوس، وبينما القلق يساورني من الخلـع ويزعجني كثيراً إلَّا أنه من الغريب أن الفتـرة من ٣١ مارت إلى اليوم الذي صدر فيه قرار المجلس القـومي هي أكثر الأيـام هدوءاً واطمئناناً بالنسبة لي، لأنني كنتُ واثقاً من تصرفاتي.

هـدَمَتْ جمعيـة «الاتحـاد والتـرقِّي» نفـوذ الحكـومـة في نـظر الشعب، وهدمت حادثة ٣١ مارت أيضاً قوة الجمعية. ولو لم أكن قـد أحسنتُ استعمال مقام الخلافة ونفوذ السلطة، لكان الدم يسيل مدراراً سواء في إستانبول أو في الولايات.

أمعقول أنْ أطلب الحماية من دولة أجنبية؟!

صوَّرني أعدائي وكـأنني طلبت من النمسا أن تحميني شخصيـاً وتحمي استمرار سلطنتي، كما صوَّروا الأمر وكأنني قدمت تنازلات للنمسا في مسـائل أخـرى غير مسـألة البـوسنة والهـرسك. إني أرفض بكـامـل الاشمئـزاز هـذه الفـريـة. فـإني لم أتـدنَّ حتى أطلب لنفسي حمـايـة دول أجنبيـة وأشخـاص أجانب. كنت أستطيـع في ٣١ مارت وما تلاه من أيام أن أفعـل ما كنت أريـد فعله، فقد كانت كل دولة من الدول المتنافسة مـع بعضها ينتظرون أقل إشـارة مني[1].

(١) عن استعـداد الدول الأوروبيـة المتنافسـة فيما بينهـا، لإنقاذ السلطان عبـد الحميـد، ورفضه لهذا، تقول الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد ما يلي: في هذا الوقت العصيب وأثنـاء انعـدام الأمن في القصـر، اجتمـع سفـراء الـدول الكبـرى بـأبـي [السلطان عبد الحميد]: سفير إنجلترا وسفيـر فرنسـا وسفير ألمـانيا، وأبلغـوا والدي رسمياً بأنَّ: «في مواجهة الحالة الحاضرة التي تمرون جلالتكم بها. نعلن لجلالتكم =

٢ نيسان ١٣٣٣ [رومية]

كنت أنتظر ما ستأتي به الأيام بصبرٍ وثبات

الأحوال التي ملأت ساحة الأحداث في الفترة ما بين ١٠ تموز و ٣١ مارت. أظهرت قابلية الأمة واستعدادها ودرجة رشدها وسدادها. لو كنت أريد لاستطعت أن أمنع قرار عزلي قبل إصداره. لكني لم أتدنَّ لهذا. وعندما يظنّ بي الناس الظنون بأني كنت مضطرب النفس بالخوف على حياتي، لم تصدر مني حركة، غير انتظار ما ستأتي به الأيام، بتوكُّل وثبات (١).

كنت أستطيع الفرار حتى الساعة الأخيرة. فلو كنت سافرت إلى أوروبا مدة من الزمن، لكنت أعود مرة أخرى قبل أن يمرَّ وقت طويل، وفي الوقت الذي أعرف فيه هذا، لم أنحطّ ولم أتدنَّ إلى درجة الفرار. وأعدائي الذين

= أننا رهن أوامركم»، فأجابهم والدي بقوله: «إني أشكر لكم هذا إلاَّ أني لا أرى أيَّ داعٍ لشيء مثل هذا الذي تتفضّلون بالإشارة إليه».
الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٣١.

(١) بعد انتهاء مقابلة سفراء الدولة الكبرى للسلطان عبد الحميد ليعلنوا استعدادهم باسم دولهم لحماية السلطان، قال السلطان للأميرة شادية ابنته: (إنه لمن الواضح وضوح الشمس أن كل هذه الاستعدادات التي يقوم بها الجيش إنَّما موجَّهة ضدّي وللقضاء عليّ. واعلمي أنني سأتعرض لنفس الجريمة التي تعرَّض لها عمي السلطان عبد العزيز. ومع هذا، فلو قطَّعوا لحمي إرباً إرباً، فلن أفكر في اللجوء إلى دولة أجنبية. إن الهروب من الوطن يوجب العار. بل إن أكبر أنواع الانحطاط والسفالة أن يرتكب إنسان مثلي يحكم دولة منذ ثلاث وثلاثين سنة، عملاً مثل هذا. إني مستسلم لله ولقضائه).
الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٣٢.

لم تكن لهم مزايا غير مزايا فتوات الشوارع، كان البحث جارياً عنهم في المدن والمنازل التي هربوا إليها واختبأوا فيها [أثناء حادث ٣١ مارت]. يعني حتى هذه المزية الوحيدة لم يكن لها وجود عندهم.

ثُرْتُ جداً بالطريقة التي أبلغوني فيها قرار خلعي أكثر من الخلع نفسه. فلقد انتخبوا وفداً من [مجلسي] الأعيان و«المبعوثان»، جاؤوا بضجة وضجيج حتى وصلوا إلى غرفتي. واجهني واحد منهم بتصرف قبيح غير مهذَّب وهو تيرانلي أسعد باشا وقال لي: عزلتك الأمة[1]. لقد كانوا في غاية السفالة عندما واجهوني بكلمة العزل، في الوقت الذي كان لا بد أن يضعوا بدلاً منها كلمة الخلع. مسكينة هذه الأمة! آه لو كانت تعلم النتيجة المُرَّة التي تنتظرها.

نوعية الذين أبلغوني بقرار إسقاطي من على العرش

كان أسعد باشا هذا معروفاً، ولكنَّ المعلومات التي أعرفها عنه قليل جداً من يعرفها. كنت أحب حافظ محمد باشا الأرضرومي وأثق به. عرفني به المشير درويش باشا عندما كان حافظ محمد باشا متصرِّفاً على «دراج» كان لأسعد باشا هذا أخ صغير يسمى «غنى» وقد بدرت منه بعض التصرفات السيئة، وكان غنى بك ــ وهو شخصية معروفة في قضاء تيران التابع لسنجق دراج ــ مرتبط بعائلة طوبطاني. ولم أرَ بقاءه هناك مناسباً فقبضوا عليه وأرسلوه إلى إستانبول. ثم أرسل إليَّ برقية عن طريق يوسف رضا بك رئيس لجنة

---

(١) تطلق كلمة الخلع في المصطلح العثماني على إسقاط السلاطين من على العرش، أمّا كلمة «العزل» فتطلق في المصطلح ذاته على إقالة الموظفين من وظائفهم. [توضيح م. ح.].

المهاجرين، فأفرجت عنه ووضعته تحت الحراسة في القصر. كانت هذه الواقعة حسبما أذكر بعد حوادث فيلبه واليونان بسنة أو سنتين أي حوالي سنة ۳۰۳ [۱۸۸٦م] تقريباً. لم يسترح في القصر، فنفيته إلى خربوط، وبسبب مجرى الأمور والأحوال في ألبانيا، أتيتُ به إلى إستانبول، بعد أن أتى بكفيل له يتكفَّل بألّا يحدث أي أمر سيِّيء بعد ذلك. وجَّهت إليه منصب الياور ورقَّيته حتى رتبة «العقيد». غنى بك كان رجلاً مجرماً بالطبيعة، كما لم يكن أخوه أسعد باشا نظيف الخلق. وأعترف بأنني غير محق عندما أعطيته أكثر مما يستحقه. ولو كان عاش بعد ذلك فإني كنت بالطبع سأدفع به إلى خربوط مرة أخرى، أو حتى إلى أيِّ بلد أكثر بُعداً منها. إن موت غنى بك لم يكن حادثاً سياسياً ولم يكن أيضاً نتيجة أخذ بالثأر. غنى بك تحالف مع واحد من طينته يدعى بورصلي حافظ وكانا يقومان بأعمال السلب تحت ضغط التهديد في عدة أماكن مختلفة، ثم دبَّ بينهما الخلاف حول غنيمة سلباها. وفي الوقت الذي تقدَّم غنى بك ليقتل حافظاً إذ بالثاني يتحرك بحركة أسرع فيقتل غنياً. وهذه هي حادثة مقتله. ولأن أسعد باشا كان أخاً للمقتول فلا بد إذن حسب العرف والعصبية أن يأخذ بثأر أخيه. لكنه بدلاً من هذا قُتل وفي وضح النهار جاويد بك ابن الصدر الأعظم خليل رفعت باشا ولم تكن له أدنى علاقة بهذه الجريمة ولم يكن له [أي جاويد بك] من خطأ سوى إظهاره السرور لمقتل غنى بك. وحدث هذا قبل عدة أيام في جزيرة «بيُوكْ أَضَهْ». كان مقتل جاويد بك فوق الكوبري. وكان القاتل المأجور شخصاً ألبانياً اسمه الحاج مصطفى.

خففت حكم الإعدام الصادر ضد قاتل جاويد بك إلى الحكم المؤبَّد تجديفاً في السفن، وذلك بدافع من وقاية شخص رفعت باشا وأفراد عائلته من أن يصبحوا هدفاً لانتقام آخر، وكذلك بدافع من رجاء رفعت باشا نفسه في هذا الصدد. ولكي أدفع شرَّ أسعد باشا، استخدمته فترة في رئاسة قوات

الجاندارما. إن الذين ضمّوه ـ وهو الرجل الذي يمثل أخيه غنى بك من كل النواحي ـ إلى لجنة المراقبة الوطنية قد أعطوه اعتباراً كبيراً، جعله يتمكن من الانضمام إلى اللجنة التي ضمت يونانيين وأرمن ويهود ليبلغوا الخليفة حكم القدر الإلٓهي[1]، وليجد أسعد باشا في نفسه القدرة ليقول بطريقة ينعدم فيها

---

(١) عن هذه اللجنة التي أوكلها المجلس بتبليغ السلطان عبد الحميد بقرار التنازل عن العرش، يقول فتحي أوقيار، في مذكراته: «كنا ننتظر الوفد البرلماني المكلَّف بتبليغ السلطان بقرار الخلع، وبعد قليل وصل الوفد المذكور مكوَّناً من أربعة أشخاص، وبجانبهم كل من حسني باشا قائد الجيش الثاني والأميرالاي غالب بك. . . وقالوا: إنهم يريدون مقابلة السلطان، كان الوفد المذكور مكوناً من كل من:

ـ آرام أفندي الأرمني عضو مجلس الأعيان.

ـ عارف حكمت باشا اللازي عضو مجلس الأعيان وفريق بالقوات البحرية العثمانية.

ـ أسعد باشا الألباني نائب مدينة دراج بمجلس «المبعوثان».

ـ إيمانويل قَرَاصُو اليهودي نائب سلانيك بمجلس «المبعوثان».

ومن هذا الوفد يبرز أسعد باشا الألباني [الطوبطاني] وهو كما أعلم قد تدرَّج في قوات الجاندارما حتى أصبح ياورا للسلطان، وأُدين أثناء حرب البلقان باغتيال حسن رضا باشا القائد الذي دافع عن مدينة أشقودرة. وكان أسعد باشا هذا قد تعاون مع الإيطاليين ـ أعداء الدولة العثمانية ـ ليتولَّى رياسة بلاد ألبانيا. وقد اغتاله أحد الشبان الألبان في باريس.

أما عارف حكمت باشا، فقد كان من مرافقي السلطان عبد الحميد، ومن الذين نالوا الكثير من أفضاله. ومن شخصيات هذا الوفد أيضاً: إيمانويل قراصو، وقد علمت فيما بعد أنه كان ضمن الوفد الصهيوني الذي أراد عام ١٨٩٨م شراء المزارع السلطانية الموجودة في سنجق القدس، لإقامة وطن يهودي في فلسطين، ولمّا رفض السلطان هذا الاقتراح طلب هذا الوفد الصهيوني تأجير المكان لمدة ٩٩ سنة. . . والحقيقة أنني لا أدري من اختار هذا الوفد بالذات لإبلاغ هذا القرار [قرار الخلع] إلى السلطان. . .». =

الأدب لسلطان وخليفة لم يسيء إليه بل تحمل مساوىء كثيرة صدرت منه عبارة:

«عزلتك الأمة».

ألا فليخجل العازل من المعزول؟[1].

= فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٤٥ ــ ٤٦.

يلاحظ أن فتحي أوقيار هو حارس السلطان عبد الحميد في المنفى، ثم أصبح زميلاً لأتاتورك. [توضيح م. ح.].

ويعلق الدكتور رضا نور وهو من أعداء السلطان عبد الحميد وكان وزيراً هاماً في أوّل حكومة كمالية، على دور اليهود والاتحاديين في إسقاط السلطان عبد الحميد بقوله: (لقد أسقطوا السلطان التركي وهو رئيس سلطنة عظيمة، على يد يهودي حقير جداً، ومعه ألباني رذيل قاتل هو أسعد باشا، ثم أرسلوا السلطان منفياً إلى سلانيك ليجلسوه في منزل تاجر يهودي غني يدعى ألاتيني».

رضا نور، المرجع السابق، العدد ٥٣٤ المجتمع الكويتية في ١٩٨١/٦/٣٠م.

أما عن المندوب اليهودي في لجنة خلع السلطان عبد الحميد، فيقول شيخ الإسلام مصطفى صبري: «قراصو اليهودي نائب سلانيك. . والذي سبق له الحصول ــ قبل إعلان الدستور في تركيا ــ على مقابلة السلطان مندوباً من اليهود الصهيونيين فاتجه فيها رجاؤهم التعلق بمسألة الهجرة إلى فلسطين مع تقديم هدية موعودة قدرها خمسون مليوناً من الجنيهات الذهب لخزينة الدولة، وخمسة ملايين منها لخزينة السلطان الخاصة على تقدير قبول المسؤول، فلقي رجاؤه ردّاً عنيفاً من السلطان مقروناً بإخراجه من حضوره في سخط واحتقار».

مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ص ٢٢/١ ــ ٢٣، القاهرة ١٩٥٠م.

ومصطفى صبري كان أحد شيوخ الإسلام أصحاب الشخصية القوية في أواخر عهد الدولة العثمانية، وهاجر من بلاده إثر اعتلاء مصطفى كمال (أتاتورك) ورفاقه منصّة السيطرة على تركيا». [توضيح م. ح.].

(١) يبدو أنَّ الاتحاديين وأعوانهم مهَّدوا لخلع السلطان عبد الحميد قبل إبلاغه بقرار الخلع، ويفهم هذا مما ورد في مذكرات سعيد باشا رئيس المجلس النيابي في =

٣ نيسان ١٣٣٣ [رومية]

إبعادي عن السلطة لم يحزنني
لكنها المعاملة المُهينة!!

بعد رضاء الله يأتي رضاء الناس وإذا لم يرضَ الناس فهذا يعني أن المشروطية معدومة. وبناءً على أن المجلس النيابي الذي تكوَّن أخيراً لا يرغبني فلا بد أني كنت سأبعد عن السلطة. إن ما يحزنني ليس الإبعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقاها. بعد كلمات أسعد باشا

= وقت الخلع، يقول سعيد باشا:

«٢٤ نيسان عام ١٩٠٩م:

البرقيات الواردة إلينا تقول بأن اسم السلطان عبد الحميد لم يُذكر في خطبة الجمعة الماضية.

٢٧ نيسان عام ١٩٠٩م:

اجتماع المجلس الوطني تحت رياستي وفيه تم اتِّخاذ قرار خلع السلطان عبد الحميد الثاني...».

الصدر الأعظم سعيد باشا، مذكرات سعيد باشا، ص ٣٢٨، إستانبول.

وجاء في مذكرات علي جواد بك كبير الأمناء وعضو جمعية «الاتحاد والترقِّي» ما يلي مؤكداً ومفصلاً:

جاء وفد مكوَّن من الفريق البحري وعضو مجلس الأعضاء ومن مرافقي السلطان: عارف حكمت باشا ومعه آرام أفندي عن الجماعة الكاثوليكية الأرمنية... وإيمانويل قراصو عن الجماعة اليهودية... وأسعد باشا...

طلبوا مقابلة السلطان فأذن لهم، قال أسعد باشا: جئنا من قِبَل مجلس المبعوثان. ومعنا فتوى شريفة، عزلتك الأمة. لكن حياتكم مضمونة. «وكان السلطان يستمع لهذا في كامل وقاره وثباته».

جمال قوطاي، مذكرات طلعت باشا، تعليق في صفحة ٦٢٨ وصورة خط علي جواد بك كبير أمناء قصر يلديز صفحة ٦٢٩.

هـذه والتي خرجت عن كـل حـدود الأدب، التفتُّ إلى عـارف حكمت بـاشـا وقلت: إنني أنحني للشـريعـة ولقــرار مجلس «المبعـوثـــان». إني مستـريـح الضمير. وإنما أريد أن يكون معلوماً جيداً أنـه لم يكن لي أدنى علاقـة لا من بعيد ولا من قريب بـالأحداث التي تفجَّـرت في ٣١ مارت[1]. وعلى أمتي أن تبحث عن هؤلاء الـذين كـانـوا السبب في هـذه الأحـداث. وعليهـا أيضـاً أن تحـاسبهـم. إن ما أصـاب البلاد العثمـانية لكبيـر في ضرره. وإني أشكـو إلى حضـرة رب العالمين هؤلاء الـذين أساؤوا إلى بـلادي. إنما لي رجـاء واحد، وهـو أن أقضي أواخر أيـامي مـع أولادي في قصر چـراغان[2] الـذي أقام فيـه

(١) يؤكـد فتحي أوقيار في مـذكراتـه تألُّم السلطان عبـد الحميد من جـراء الافتـراء عليـه القائل بأنه السبب في أحداث ٣١ مارت، يؤكِّده بالشكل التالي: (كنت دائماً أسمـع من السلطان عبد الحميد أنْ ليست له أدنى علاقـة بتمرُّد ٣١ مـارت، وأنه دائمـاً كان مـرتبطاً بـالقَسَم الذي أقسمـه لشيـخ الإسلام جمـال الدين أفنـدي بأنـه سيـظل وفيّـاً للمشروطية. كما كان السلطان يتسـاءل دائماً، لمـاذا لا يحاكمـونه مـا داموا يتّهمـونه بـإثارة أحـداث ٣١ مارت؟ ولمـاذا لا يتيحون لـه الفرصة للوقـوف أمـام القضـاة في المحاكم لتبرئة نفسه من هذا الأمر؟ فإذا صدقـوا في اتهامهم في محـاكمتهم حكموا عليه بالحكم المناسب، هذا إذا وجدوا إدعاءاتهم هذه صحيحـة!!) مذكـرات فتحي أوقيار ص ٧٢.

أما الدكتور رضا نور فيؤكِّد براءة السلطان عبد الحميـد من هذه الحـادثة بقـوله: (إن السلطان عبد الحميد بريء تماماً من تدبير ٣١ مارت، كما أنه بـريء من كل الـدماء التي سـالت أثنائهـا). مذكـرات رضـا نـور، العـدد ٥٣٤، المجتمـع الكـويتيـة في ١٩٨١/٦/٣م.

(٢) عن رجاء السلطان في هذا تقول الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد ما يأتي: (... قال والدي جلالة السلطان عبد الحميد: إنني متعب، وكبر سنّي لا يساعـدني على السفر الطويل. لكنني أرجو أن أقيم مـع أسرتي في قصر چراغان الذي أقام فيـه أخي).

الأميرة شادية المصدر السابق، ص ٣٤.

أخي السلطان مراد. اضمنوا لي هذا الأمر. وغداً أعبر الحديقة وأقيم في جناحي.

كان عارف حكمت باشا هذا من «الياوران» السابقين لي وكان أكثر أعضاء اللجنة أدباً، وقد حزن لكلامي هذا بدرجة واضحة. أجابني على ذلك قائلاً: إن هذا الأمر خارج عن صلاحية وفدنا، وسنعرض يا سيدي رغبتكم الشاهانية على المجلس. أنهيت حديثي قائلاً لكبير الأمناء علي جواد بك الذي كان هناك: تابع هذا الأمر وأخبرني بالنتيجة. وخرجوا.

كان ابني الأمير عبد الرحيم بجواري يبكي. والصراخ يعلو من ناحية مكان الحريم. وكانت أصوات الجنود قادمة من فناء القصر. كما كانت أصوات المدافع آتية من خارج القصر وهي تعلن مراسم جلوس [السلطان الجديد محمد رشاد]. شيءٌ غريب! أُحسُّ بالراحة والسكينة إلى آخر حد. وكأنَّ جبلاً انزاح من فوق صدري، رغم أنَّ حياتي لم تعد آمنة. كان في ذهني كل المصائب التي حاقت بعمِّي [السلطان عبد العزيز]، كما أن التفكير في أنني متوضىء يمنحني قوة ذات طعم مختلف. انتظرتُ وأنا ساكن النفس. كان أولادي وبناتي والمرافقون يدخلون ويخرجون من عندي. وكل منهم يتحدث حديثاً مختلفاً، أو يبكي، أو يواسيني. وكنت أعرف أن هذا عبث. ومع هذا كنت أعمل بكل جهدي على مواساتهم. أخيراً جاء الخبر المرتقب: علي جواد بك كبير الأمناء(1) يبلغني أنني سأقيم في قصر صغير في سلانيك، وأن لا بد من الاستعداد السريع للتوجُّه إلى هناك.

---

(1) عن تعيين علي جواد في القصر تقول الأميرة شادية: (عزل الاتحاديون تحسين باشا كبير أمناء (السلطان عبد الحميد) وعيَّنوا محله علي جواد بك وهو من أعضاء «الاتحاد والترقِّي» وأحد أمناء القصر السلطاني. دخل علي جواد بك على والدي [السلطان] قائلاً: «إنني يا سيدي، عبدكم الصادق والمخلص لكم، وإن تحسين باشا كان دائماً يمنعني من مقابلتكم» وكان في حديثه هذا يبدو وكأنه يتوسَّل. =

كنتُ في وضع صعب، فلو أني هممت بالذهاب بمفردي فإن أولادي لم يكونوا ليرضوا بهذا. وإذا أخذتهم معي فإني كنت لا أريد أن تحدث حادثة ما أمام أعينهم. قلت لعلي جواد بك ـ وأنا أتطلّع إلى أولادي الذين يتصايحون صارخين مولولين من حولي ـ : إنني أقدم كافة الضمانات الشخصية! وليس لي طمع في شيء، وآخر شيء أطلبه من أمتي أن أقضي البقية الباقية من عمري مع أولادي في جناح من أجنحة قصر چراغان ولا ينبغي حرماني من رغبة بسيطة مثل هذه.

اكتنفت اللامبالاة شخص كبير الأمناء. فنظرتُ إلى وجهه فبدأ وكأنه سيجيب ثم سكت وانسحب. فهمت من حركته هذه أن القرار نهائي. كبير أمنائي علي جواد بك كان يحاول أن يبدو عذب المظهر تجاه أصحاب السلطة الجدد حتى لا يفقد منصبه. والحاصل أنه جاء مرة أخرى بعد قليل، وأخبرني وبصوت عالٍ هذه المرة(1):

= وكان والدي [السلطان] متضايقاً من عزل تحسين باشا وتعيين هذا محلّه، فلقد كان علي جواد بك معروفاً في القصر بالمراءاة والنفاق. أخرج والدي [السلطان] من درج مكتبه حزمة بنكنوت وأهداها لكبير أمنائه المفروض عليه. وعندما شاهد علي جواد بك هذا الإحسان الكريم سجد على قدميّ والدي ليقبِّل قدميه. ورغم حزن السلطان بسبب الأحوال السياسية المضادة له وكذلك بسبب ضيقه بتعيين كبير الأمناء الجديد، رغم ذلك لم يفت السلطان أن يقول لعلي جواد بك: «استغفر الله إن السجود لا يكون إلاّ لله رب العالمين. أرجو ألاّ تفعل هذا مرة أخرى كما أرجو ألاّ تجبرني لتنبيهك بهذا مرة أخرى...».

الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٣٤.

(١) تعقيباً على هذا الموقف من كبير الأمناء تقول الأميرة شادية في مذكراتها: نَقَلَ جواد بك كبير الأمناء لوالدي جلالة السلطان قرار المجلس بضرورة الذهاب إلى سلانيك. في هذه المرة لم يتصرف جواد بك التصرف اللائق. هذا الرجل الذي سجد على قدميّ والدي ليقبِّلهما عندما وجد هدية السلطان إليه كبيرة، ونهره والدي =

إنني مُجْبَر على الذهاب إلى سلانيك، وإن وفداً برئاسة الفريق حسني باشا ينتظرني كي يُخرجني من القصر. كان واضحاً من تصرُّفه وسلوكه هذا أن الوفد ينتظر أمام الباب: فقلتُ: أدخِل الوفد.

والحقيقة أن وفداً برئاسة حسني باشا ملأ الغرفة بضجيجه. أَعَدْتُ عليهم رغبتي(1)، فقال حسني باشا بأقصى درجات الأدب: إن من غير الممكن تغيير القرار وإن المجلس يرى أن من المحظور إقامتي في إستانبول، وأنه يمكنني اصطحاب من أريد معي من أفراد عائلتي، وأن سلامة حياتي وحياة كل من أصطحبه معي يكفلها الجيش الذي تعهَّد بشرفه على هذا، وبعد أن قال هذا، أردف قائلاً: يا جلالة السلطان! إذا لم تقتنع جلالتكم بكلامي هذا فتفضَّل! ها هو ذا مسدَّسي أقدِّمه لك، وسأجلس أمامكم تماماً

= عن هذا التصرف ، هذا الرجل نفسه أبلغ والدي بقرار نفيه إلى سلانيك بكلمات نابية ثقيلة المسمع خارج كل حدود الأدب، يُعاب على أسفل الناس إذا تفوَّه بها. في تلك اللحظة ظهر الحزن شديداً على والدي [السلطان]، فهذا الذي كان قريباً إلى السلطان وقت قوة السلطان، أصبح في لحظة أعدى أعدائه، والسلطان في وقت ضعفه. قال جواد بك لوالدي أيضاً: «لماذا لم تفكر في كل هذه المصائب من قبل؟» فأجابه والدي [السلطان] بقوله: «الله المستعان وقت المحنة». واغرورقَتْ في نفس هذه اللحظة عينا والدي جلالة السلطان بالدموع. لحظتها: لو أَدخل أَحَدُهم خنجراً في قلبي ما كنتُ أُحس به من فرط الحزن والذهول. ورغم كل هذا، أوضح جواد بك للسلطان في لهجة عدائية أنه في حالة رفض السلطان للسفر إلى سلانيك، فإن هذا السفر لا بد من تنفيذه على أي صورة من الصور».
الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٣٤ ــ ٣٦.

(1) بعد مرور عدة سنوات على هذا الأمر، قال لي طلعت (باشا): «لم يكن نقل السلطان عبد الحميد إلى سلانيك رغبة الجيش ــ من القادة الكبار إلى قادة الفرق ــ فقط. وإنما كانت أيضاً رغبة أنور (باشا) ».
فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٤٤.

في العـربـة طـوال الـطريق. وإذا أحسستم جـلالتكم بـذرَّة من عـدم الأمن فاقتلني.

فهمتُ أنه لا يمكن تغيير أفكار من اتخذوا القرار، ذلك لأنهم لم يكونوا يرَوْن أنفسهم في أمن في إستانبول. وهذا هو سبب إصرارهم على سلانيك. فهناك لهم السيطرة على المكـان. وإذا أصررتُ على التشبُّث بـالإقـامـة هنـا فإنهم سيرتابون فيَّ جداً. إني أعرف أنـه لا شيء خطيـر قدْر إنسـان لا يحس الثقـة بنفسه. فَلَمْ أتفـوَّه بشيء آخـر. قلتُ: حسنـاً. وخـرجنـا بمـا علينـا من ملابس فقط فلم يكن هناك وقت يسمـح لنا بأخذ أشياء معنا!

يخافون
من استعادة العرش

كان اتحاديـو سلانيـك ومناستـر قد اتحـدوا فيما بينهم مـع أن الإنجليـز والألمان أنفسهم لم يكونوا متحدين. في كـل لحظة يمكن أن يحـدث انفجار جديد. والذين يقدمون على الانفجار كـان يمكن أن يفكروا، في هـوس، في ارتقـائي العـرش من جـديـد [واستعــادتي للسلطة]. ولهـذا السبب كــان من الضروري أن أكون بعيداً عن إستانبـول. نعم، كان يمكن أن يعملوا حسـاب كل هذا. ولكنْ لم يكونوا يعرفون أنني لستُ بـالسلطان الذي يـرفعه الإنجليـز أو الألمان إلى العرش. لا أرى الله حاكماً قط ذلة أن يكون مديناً لدولة أجنبيـة في ارتقاء لعرش أو لبسه لتاج.

كنت أحترق حزنـاً وأنا في القـطار وعلى طول الـطريق. لم يكن حزني وبكـائي مُنْصَبّاً على نفسي، وإنمـا على الـظلام الــذي وقَعَت فيه بـلادي، فلو أني كنت مُـوقِناً بـأهلية هؤلاء الـذين تولـوا السلطة في بلادي؛ ولـو أهلية بسيطة لإدارة البلاد. فوالله وبالله لاحتسبت ذلك عيداً بالنسبة لي.

قصر بَيْلَرْبَى
في ٤ نيسان ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

خليفة المسلمين
يسجنه الضباط في قصر يهودي

قصر آلاتيني في سلانيك، مشيَّد في مكان لطيف مطلّ على البحر. وإذا ما نَحَّيْتُ جانباً تلك الأيام التي مرت بي فيه، على محنة وسجن، فإني أقول إنه قصر لطيف للغاية. ولكني في الوقت الذي دخلت فيه هذا القصر اللطيف جداً في ظلمة إحدى الليالي، فإنني لم أكن أفهم ماذا سيحدث في حياتي التي كنت سأقضيها فيه. فقد لاحظتُ سريعاً أنَّ الأشخاص الذين أرسلوني هنا كانوا مضطربين، كانوا خائفين، ولأنهم كانوا يخافون من كل شيء، فإنهم أيضاً كانوا يخافون مني، وإلاَّ فإنهم ما كانوا يرسلون سلطاناً معزولاً عن عرشه من أدنى البلاد إلى أقصاها، لكي ينام على أسرَّة ووسائد من القش وبلا غطاء. ولكن هذا الخوف الكبير قد يؤدي إلى فَقْد الخائفين لكل معاني الاحترام.

لقد قدَّموا لنا في أول ليلة لنا هنا من الطعام ـ لاأنقصه الله ـ أرزاً جافاً وقليلاً من الزبادي. وأرسل والي سلانيك لي شخصياً صينية طعام فأَعَدْتُها. استطاع الأطفال والكبار . . أن يأكلوا بأيديهم لعدم وجود ملاعق وشوك وأكواب، ثم ناموا. أما أنا فقد قرَّبتُ كرسيين كبيرين من الطراز القديم، ورحت في النوم. أغلقوا الأبواب علينا بالأقفال. لم يكن في حُجرتي ما يُضيء المكان غير شمعة صغيرة، تذكَّرت بحزن شديد للغاية مدى اهتمامي بما كان يمكن أن يحتاج إليه كل من مدحت باشا ومحمود باشا عندما أرسلتهما إلى الطائف. كما تذكَّرت بنفس هذه الأحزان مدى حماسي لتلبيته. والعسكر الذين أنزلوني من على عرشي كانوا هم أيضاً يحملون دمي.

لو كانوا يملكون زمام عقولهم ولو للحظة! أكانوا يتصرَّفون هكذا تجاه أطفال سلطانهم الأبرياء، حتى ولو كانوا يريدون الأذى لسلطانهم. . ؟

لم تكن هناك ستائر وإنما كانت نوافذ مُحْكَمة الإغلاق ولم يسمح للأولاد برؤية الشمس والجو إلَّا بعد أشهر[1].

---

(١) في هذا تروي الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد، ــ وكانت برفقته في هذا المنفى ــ ذكرياتها مع والدها في تلك الآونة: (وَقَفْتُ أمام الباب [في قصر يلديز] عربتان لاندو. أحاط الجنود المسلحون بالمكان. أخبرونا بضرورة الإسراع في الركوب. . . لم يكن والدي [السلطان عبد الحميد] راغباً في الكلام. أمَّا عندما تكلَّم قال: «يا أولاد! أقيموا مع أمهاتكم. فاطمة فقط هي التي ستأتي معي لأن ليس لديها أطفال».
على الفور انطلقتُ إلى والدي جلالة السلطان لأقول له في هذه اللحظة بالذات: «سيدي ووالدي، إني أعتذر بأني لن أستطيع تنفيذ أمرك هذا في هذه اللحظة، إنني يا سيدي استودعتُ الله أمي . . . وأنا لا أريد شيئاً إلَّا أن أكون بجوارك حتى آخر لحظة من عمري. سأكون بجوارك يا أبي مهما كان المقدَّر علينا. قلت لجلالته هذا وأسرعت إلى إحدى العربتين المنتظرتين لنقل السلطان إلى منفاه.
كان في نية الحرس وتصوّرهم أن أبي سيركب أولاً فتنطلق العربة التي سيركبها بمفرده. لكنَّ لُطْفَ الله أبى إلَّا أن نفوِّت عليهم هذه الفرصة.
تركنا قصر يلديز وقت حلول الظلام، والظلام كان يسود القصر منذ أسبوع، قطعوا فيه التيار عنا وعن القصر كله. أُركبنا القطار في محطة سيركجي [في إستانبول] ونحن برفقة الضبّاط، وسرعان ما تحرَّك القطار. كنت أنظر نحو أبي. كان ساكناً لا يبدو عليه اضطراب وكدر، وعندما نظر نحوي ورأى يأسي وحزني قال لي: «كل ما يشغلني ينبع من التفكير في احتمال تعرُّض البنات والفتيات في القصر للاعتداء عليهن. أمّا عني، فلا قيمة مطلقاً لحياتي. فبعض أجدادي من آل عثمان أدّوا خدمات جليلة للدولة وللأمّة، ومع ذلك كانت نهاياتهم مفجعة. إن المعتدين لم يقدروا آل عثمان حق قدرهم. إن الكثير من بين المنادين الصارخين بالدستور وبالوطن، لا يفهمون معنى كلمة الوطن. قد أكون أخطأت في أشياء دون أن أدري، =

. . . .

= ولكن الله فقط هو المنزَّه عن الخطأ. وإني إنسان، كما أني مقتنع بأني في خدمة هذه الأمة. . .».

في هذه اللحظة أدركت ولأول مرة في حياتي كم كان والدي عظيماً قوياً صبوراً.

وفي منتصف الليل أيقظونا، وتوقَّف القطار. أنزلونا منه إلى أرض فضاء. . . في ضوء مصابيح اليد. أخذوا بأيدينا حتى نستطيع النزول من القطار لكن والدي نزل بنفسه دون مساعدة من أحد. سرنا بين أعشاب طويلة وصل طولها إلى رُكَبِنَا حتى وصلنا إلى مكان كانت العربات فيه تنتظرنا. أُركبنا فيها. وسارت بنا في رحلة في الظلام وبين الحياة والموت.

كان أخي الصغير في منتصف عامه الثالث. وكان يبكي جوعاً. وكلما بكى كلما وضعتْ له أمه بعض نقاط ماء حملته معها. وقفنا أمام باب كبير. وقال فتحي بك [فتحي أوقيار، رئيس الحرس]: إن هذا هو قصر آلاتيني، وإنه هو المكان الذي خصِّص لإقامتنا. وقصر آلاتيني يطلّ على البحر وهو بناء جميل مكوَّن من ثلاث طوابق وسط أراضي واسعة، خارج المدينة (سلانيك). كان قليل الأثاث بدرجة ملحوظة جداً. كانت هناك مائدة وبعض كراسي موجودة في قاعة الطعام. اختار أبي غرفة في الدور الأول، وكان يضع كرسيَّيْن بجوار بعضهما البعض. ويتَّخذ منهما سريره.

خوفاً من أنْ يستولي الهمّ والحزن على والدي، اتَّجهتُ نحوه وضحكتُ متظاهرةً بأني فرحة وقد أدرك هو هذا فقبَّلني من خدّي وقال لي: «يا ابنتي! إذا لاحظتِ أنني أفكر، فلا تظني بأني حزين، ولا تنزعجي! من سيُخلَّد في الدنيا؟! إن الموت هو عاقبتنا جميعاً. . . إنّي فكَّرتُ من قبل في ترك العرش، وصرَّحت بهذا لبعض معاونيَّ. لكنهم أَثْنَوْني عن عزمي، ذلك لأنَّ ترفهم ورفاههم كان يقوم على دوام سلطنتي، وفيها مصلحتهم. ما كنت أريد عمله برغبتي، أصبح اليوم أمراً واقعاً وهذا كل ما في الأمر.

إني أشعر بأن ضميري مستريح، فلم أُعدم أحداً لمنفعة لي، ولم أوقِّع قراراً بإعدام أحد إلاّ في حالة واحدة وكانت قصاصاً، كانت بسبب جريمة ارتكبها آغا الحريم». =

كان فتحي بك قائد الفرقة المكلَّفة بحراستنا ضابطاً عاقلاً يفهم الكلام ويعيه. كان يتصرف معي ومع أولادي دائماً وفي كل علاقته بنا بما يليق من الاحترام. وكان من حين لآخر يسأل عن احتياجاتنا ويفعل ما يستطيعه ويكتب إلى إستانبول فوراً بما لا يستطيعه[1].

= وفي الغرفة الملاصقة لوالدي كنا جميعاً نعيش وننام فيها. والغرف الأخرى كانت خاوية ولم نكن نستطيع الإفادة منها. وأصبح من المفهوم أننا نخضع لنظام اعتقال في سجن. لم يكن هناك صابون في قصر آلاتيني. وكنا مضطرين لاستخدام بقايا قطع الصابون الصغيرة المتبقية من استخدام أصحاب قصر آلاتيني القدماء.

وأذكر أول مرة نأكل فيها في آلاتيني. كان عبارة عن أرزّ وزبادي. ولم يكن مع هذا الأرزّ والزبادي سكاكين أو ملاعق أو شِوَك.

وكانت صنابير مياه [قصر آلاتيني] قذرة والمياه مرَّة مرارة واضحة. ومن هذه المياه كنا نشرب. ولم يكن هناك أكواب للشرب بها.

منعونا من فتح شيش النوافذ، لذلك كنا محرومين من الشمس والهواء، كنت أخلع ملابسي التي أرتديها، ثم أغسلها. وأنتظر عارية حتى تجف لكي ألبسها. وكان الآخرون يفعلون نفس الشيء أيضاً. . .».

الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٣٧ ـ ٤١.

(١) كان فتحي [أوقيار] قائد الحرس ـ كما تصفه الأميرة شادية ـ شخصاً «على درجة عالية من الخلق الحسن. كان يعامل والدي [السلطان] في القطار [إلى المنفى] معاملة تنمّ عن رقَّة حاشية وتربية سليمة. كما كان يعاملنا بنفس الطريقة. . . وعندما تركنا فتحي بك ليذهب إلى غرفته لينام (عند أوَّل مجيئنا إلى قصر آلاتيني) رأى فتحي بك أخي الصغير (عمره سنتان ونصف السنة) وهو ينام في حالة إغماء، على مقعد طويل، فاقترب فتحي بك من أخي الطفل ومال عليه وقبَّله، وقال: «مسكين أنت أيها الصغير!» رأيت الدموع أثناء ذلك تنسكب من عينيّ فتحي بك وسقطت منهما دمعة على وجه أخي الطفل. كان فتحي بك شخصاً يمتلك الخلق النظيف، والضمير الحي»

الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٣٨ ـ ٣٩.

أما عن بعض الضباط والجنود الذين يعملون تحت قيـادته فلم يكن من الممكن فَهْم عدائهم لنا. ذلك العداء الـذي لا مبرر لـه، كانـوا يتنزَّهـون في الحديقة وفي طـريقتهم معنى التهديـد وينظرون إلى ــ الشيش ــ المغلَق على النوافذ بنظرات يملؤها الغضب.

كان ابني الأمير عبد الرحيم يخرج إلى الحديقة بين الحين والحين بإذن من فتحي بـك قائـد الحرس. وكـان يقيم علاقـات طيبة مـع هؤلاء الضبـاط. ورأيت ابني وهـو يعـود إلى القصـــر بـاكيــاً في بعض الأحيـان لأن بين هؤلاء الضباط ــ وفيهم الكثير من الطيِّبين ــ من يشعر تجاهنا بشعور الأعداء. وبعـد تفحُّص الأمر علمتُ بأن هؤلاء الضباط الذين عـاشوا على خيـرنا وتعلَّمـوا في المدارس التي فتحناها، وقعوا تحت تـأثير هؤلاء الـذين يودّون إغـراق البلاد. هؤلاء الضباط كانوا يسبُّونني ويشتمـونني. وفهمتُ أن هؤلاء الضباط المكلَّفين بالمحافظة علينا يمكن أن يقتلونا لو أُتيحت لهم فرصة لذلك.

مضى حوالي عام على مجيئنـا إلى سلانيـك. وذات يوم كنت أقف في الشرفة، وفجأة انطلق عيار ناري، وارتـطمتْ الرصـاصة بـالحائط فـوق رأسي مبـاشرة ثم سقـطت بين الحصى الـذي تحت الشـرفـة. نـظرتُ فـإذا بضـابط مختبىء خلف أشجار الزيزفون. صحت به قائلاً: من أنت.. اظهر..

ضابط من حرسي في المنفى يحاول قتلي

في البداية تحرَّكت الشجيرات، ثم إذا بضابط ينهض على قدميه ببطء، الضابط يُدعى سالم وهو يوزباشي في سلاح المدفعيـة، كان مسـدسه مـا زال في يده. وكان يمكن أن يـطلق النار مـرة أخرى، فكَّـرت في أن أتراجـع. ثم فكَّـرت باستحـالة الهـروب من القدر الـذي قدَّره الله، إذا بلغتْ الأمـور هـذه الـدرجة. الضـابط يضـع في تلك اللحظة مسـدسه في جـرابه. قلت لـه مـرة

أخرى متسائلاً: ماذا تريد؟ لم ينبس ببنت شفة. ابتعد في اتجاه نهاية الحديقة، وهو يسير متثاقلاً. كان يديم النظر إلى وجهي بغضب وهو يبتعد. في ذلك الوقت وصل صوت الطلقة النارية إلى الحراس الآخرين وإلى عائلتي. امتلأ القصر وقتها بالصراخ. وفي تلك الأثناء أيضاً كان كل من مرافقي سليم آغا وابني الأمير عابد وقهوجي باشي علي أفندي يتجوَّلون في الحديقة وهم أيضاً بدورهم جاؤوا أسفل الشرفة بناءً على صوت الطلقة، فقلت لعلي أفندي:

ـ ها هي ذي الرصاصة هناك في ذلك المكان. هاتها! وأعطها لي!
فإذا بعلي أفندي المسكين يتولّاه الرعب والرجفة. وكانت هذه المرَّة الأولى والأخيرة التي لم ينفِّذ لي فيها أمراً. كان كل طرف فيه يرتعش، امتقع لونه وقال بصوت يمكن تبيُّنه بصعوبة:

ـ «مولاي! أرجو عفوكم الكريم عني أنا عبدكم الحقير هذا [يقصد نفسه]. فإني لن أستطيع تنفيذ هذا الأمر. يعني أنه كان يظن بأنه إذا أخذ الرصاصة من المكان الذي أشرتُ له عليه، فإنهم سيقتلونه، وإني أعرف ماذا يعني الخوف على الحياة. ولم أتألَّم لعدم تنفيذه لأمري.

كان فتحي بك قائد الحرس غير موجود في ذلك الوقت، كان قد ذهب وحل محله ضابط آخر هو راسم بك. وكان برتبة قول آغاسي، بعثت بمن يبحث عن القائد. لم يكن في القصر، أخبروه بذلك فجاء يعدو. قلت له: أَطْلَقَ اليوزباشي سالم علينا الرصاص. وها هي ذي الفتحة التي أحدثتها الرصاصة في الجدار، وها هي ذي الرصاصة في مكانها الذي وقَعَت فيه. ما هذا العمل؟ خذ تلك الرصاصة من موضعها وأحضرها لي أريد الاحتفاظ بها للذكرى.

نائب القائد يرفض تسليم الدليل على محاولة قتلي

كان راسم بك جندياً خشناً ولكنه كان مؤدَّباً. اعتذر لي وقال إنه سيبعد سالماً فوراً، وسيقدِّمه إلى مجلس عسكري ليحاكمه. وبعد أن هدَّأني ببعض الكلمات نزل إلى الحديقة وأخذ الرصاصة من بين الحصى ووضعها في جيبه، ولم يحضرها لي. وعندما طلبتها منه مرة أخرى طلب مني العفو والسماح. وقال: إن الرصاصة بمثابة دليل. ولذلك فإنه لن يستطيع تسليمها. سكتُّ. وانتهت هذه الحادثة عند هذا الحد[1].

---

(١) لم يقتصر دور حرس السلطان عبد الحميد ــ في المنفى ــ على محاولة اغتياله فحسب، بل وصل الأمر إلى محاولة ضباط هذا الحرس الاعتداء على عفَّة الأميرة شادية بنت السلطان. وهذا ما دوَّنته الأميرة في مذكراتها عن هذا الحادث:
(ليلة عيد الأضحى.. دعا ضباط الحرس، أحد آغوات الحريم، الموجودين معنا. وعن طريقه أرسلوا إليَّ هذا الخبر: «وضعنا ــ نحن ضباط الحرس ــ في هذه الليلة غازاً تحت غرفة الأميرة شادية ــ وهي كبرى أخواتها ــ كما أن المدمرة «مسعودية» التي تقف في البحر ستصبّ نيرانها الليلة على القصر لتدمره. وسيُحرَق أبوها والقصر كله. وإننا ــ نحن ضباط الحرس ــ نرثي للأميرة فهي شابة، وفي ريعان الشباب، فلتأتِ الأميرة إلينا في منتصف الليل مع أخواتها. ونحن ــ كضباط ــ سنحميهم»... فهمنا كم كان هذا خطَّةً قذرة من هؤلاء الضباط. أما آغا الحريم فقد ظنَّ أن هذا الأمر حقيقة، وكان يشعر بحزن عميق تجاه الكارثة التي يمكن أن يُصاب بها والدي.
أخطرتُ هذا الآغا بأن يذهب إلى هؤلاء الضبّاط ويبلغهم جوابي التالي: «إنَّ ما يمكن أن يتعرَّض له والدنا جلالة السلطان من قَدَرٍ، فنحن فيه شركاؤه. وإني واحدة من الذين يقدِّرون جيداً نوعية الذين نحن في قبضتهم في هذا السجن. خاصة وأني فتاة لم أعرف الخوف أبداً في حياتي. وليس هناك إمكانٌ قط لقبول اقتراحهم هذا، اذهب إليهم وأخبرهم بما قلته». =

إني أخـاف. وقد يكـون هذا عيبـاً شخصياً فيَّ، ربمـا لم أُخلق بـطلاً. لا أخـاف فقط من القتـل. بـل أخـاف من أن تُــدبَّـر مؤامــرة لاغتيـالي. إني لا أستطيـع أن أمسَّ روحاً بأذى. ولا أستطيـع الرضى بأن يمسَّ أحـد روحي. الشيء الوحيد الذي أريده في حياتي هو أن أموت على فراشي مرتاحـاً. ومـع هذا فإني واجهتُ الموت كثيراً مرات عديدة وجهاً لـوجه عنـدما اعتـدى الثوار الأرمن عليَّ، بـإلقاء قنبلة. تحـوَّل المكان الـذي أمام الجـامـع إلى محشـر. كـانت الأذرع والأرجل تتنـاثر في الهـواء. والعجيب أنني لم أَخَف. انـطلقتُ إلى العربة سائقاً الجياد متوجِّهاً إلى القصر بمفـردي كانت كـل مشكلتي وقتها الموتى والجرحى[1]. وكـذلك لم أخف عنـدما انـطلقت رصاصـة اليوزبـاشي

= إن غاية هؤلاء الضباط معروفـة. إنهم يريـدون أن ينشروا شـائعة بحـرماني وحـرمان البنـات من شرفهن وعفَّتهن بـأخذهن ليلةً في غـرفهم، وبذلـك ينقصون من احتـرام الناس لأبـي. ثم يجعلوا هذا مادةً لصحافـة إستانبـول. وأحمد الله كثيـراً أنْ حفظنـا خير الحافظين من هذا البلاء».

الأميرة شادية، المصدر السابق، ص ٤٣.

(١) وتوافق ما جاء في حديث السلطان عبد الحميد عن مـواجهته للمـوت ورباطـة جأشـه مـع مـا جاء في مـذكرات علي سعيـد بك، التي نشـرها في إستـانبـول عـام ١٣٣٨ [رومية] بعنوان: مذكراتي في قصر السلطان عبد الحميد، قال علي سعيد بك:

(بعد أن أدّى السلطان عبد الحميد صلاة الجمعة في ذلك اليوم، تهيَّأ لركوب عـربته ليعـود إلى قصره لكنـه التقى أثناء ذلـك بشيـخ الإسلام الأسبق جمـال الدين أفنـدي عليه رحمة الله، وتحادثنا فطال الحديث. لـذلك تـأخر بـه الوقت عن لحـظة انفجار قنبلة الأرمن، وإلاَّ فـإن تـوقيت انفجـارهـا كـان قـد ضُبط على زمن ولحــظة وجـود السلطان المعتـاد في مثل ذلـك الوقت، فقـد كان الجُنـاة الأرمن قد حضـروا مراسم الاحتفـال بصـلاة الجمعـة عـدَّة مـرات وثبَّتـوا بـدقـة حـركـة السلطان من ذهــاب وعودة...). «الجميـع في حالـة انتظار.. السلطان لم يـظهر بعـد.. وإذا بانفجـار مدهش وعظيم. كان الانفجار قـوياً لـدرجة أنني داويتُ أذني من الصمم الـطارىء، =

سالم لتخرق الحائط وتستقر في الخشب الذي يعلو رأسي. ساعتها أيضاً لم أخف ولم أضطرب على الإطلاق. لكني أقول مرة أخرى: إنني أشمئزُّ دائماً وأخاف من الاغتيال. ولكن عندما أتتْ تلك الساعة لم أحس بشيء.

مقصدي من كتابة هذا، شرح مسألة أنني لم أكن بعيداً عن محاولات اغتيالي، أو التهديد بها، وأن حياتي وحياة عائلتي كانت في خطر في الوقت الذي كفلتها دولة المشروطية وجيشها، عشتُ أنا وأولادي شهوراً عديدة تحت التهديد باغتيالي في الوقت الذي طلبوا مني بإصرار أن أهب ثروتي الشخصية للجيش. الموت وصال لإنسان بلغ سن الشيخوخة. لكن القتل كان مصدر نفوري طوال حياتي. والذين مارسوا الضغط عليَّ غالباً ما اكتشفوا فيَّ هذا الإحساس، ومع ذلك فإن الحياة في قصر آلاتيني لها جوانبها الجميلة. من

= مدة شهرين.. ارتفع وقتها عمود من الدخان الكثيف الأسود، عالياً. أحدث الانفجار تهشّم زجاج الجامع وزجاج أجنحة القصر وهو مجاور للجامع. بل وتهشّم مصحوباً بصوت مخيف. وبعد عدة ثوانٍ تدفّقت من السماء إلى الأرض أعضاء أجساد بشرية من أذرع وسيقان ورؤوس آدمية كان الانفجار قد أطارها عالياً.
أردتُ [والكلام لعلي سعيد بك] أن أهرب إلى داخل القصر. لكني لم أجد في نفسي القدرة على المشي من فرط الهلع.
أثناء ما كنتُ بين الخوف والاضطراب الشديد.. رأيت السلطان [عبد الحميد] وهو يخرج من الجامع.. لم يكن هناك أكثر من عشر ثوان بين حدوث الانفجار وبين خروج السلطان. اتّجه إلى مكان وقوف العربات... وكان الانفجار قد أحدث حفرة عميقة أدهشت كل من رآها.. سأل [السلطان] الحاضرين وقتها عن سبب الانفجار وغير ذلك من أسئلة، ثم أصدر بعض التعليمات. وركب عربة «الفايتون» وأمسك بأَزِمَّة حيواناتها بيديه وساق العربة إلى القصر».
علي سعيد بك: مذكراتي في قصر السلطان عبد الحميد، إستانبول ١٣٣٨هـ، صفحات: ٨٠ ــ ٨٣.

الجميل أنْ أعيش مع أولادي بشكل متواصل وأن أواسي آلامهم الصغيرة. وإني أتأسَّف لأنني لم أستطع هذا من قبل. أسعدني أن بناتي يعزفن الماندولين ويُغَنِّين، وسماعي لأغنياتهن وتفرُّجي على البحر وشرب الشاي الثقيل، لهي السعادة نفسها. وحفَظَت ذاكرتي جيداً تلك الأيام التي أسفت فيها على أنني لا أستطيع الاشتغال بالنجارة الدقيقة، لأن آلات النجارة ليست معي. تغيَّرت أهمية الأحداث وأبعادها. عندما كنتُ حاكماً كنتُ أرى تمرُّداً في اليمن شيئاً هاماً، وبعد إبعادي عن مسؤولية الحكم، كان نقل فتحي بك قائد الحرس وتعيين قائد آخر ليحلَّ محلَّه مسألة هامة، سواء بالنسبة لي أو بالنسبة لنا كلنا. وهذا مثال من أمثلة كثيرة.

حرموني من قراءة الصحف!

قرروا حرماننا من الكتب والمجلات. ولذلك كنت أعيش وأنا لا أدري شيئاً عما يحدث في العالم. حقيقة إنه لشيء تضيق النفس به جداً أن يجهل إنسان مثلي أعطى أهمية كبيرة للاستخبارات في سنوات حكمه، أن يجهل حتى الأخبار التي تدور في الحيِّ الذي يقيم فيه. لكني تعودت على ذلك فيما بعد(١)، وإذا ما علم ابني أو مرافقي شيئاً أثناء تجوالهما في الحديقة فإني كنت أضع لهذه الكلمات التي يأتياني بها تفسيراً على تفسير لفهمهما، فلا يستطيع الإنسان أن يبتعد بسهولة عما ألفه. الأذان يؤذِّن لصلاة العصر. كفى هذا اليوم وإن شاء الله سأوالي غداً ذكر بعض الأشياء التي تذكَّرتها.

---

(١) يقول قائد الفرقة العسكرية التي كانت تحرس السلطان عبد الحميد في منفاه، في هذا الخصوص، ما يلي: «كنت أنا ضد قرار حرمان السلطان عبد الحميد من قراءة الصحف، رغم أن الصحف والمجلات كانت كالسيل في صدورها، مستهدفة ــ جميعها ــ إدانة عهد السلطان عبد الحميد، وكان أسلوبها في ذلك زائداً عن الحد».

فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٥٨.

قصر بَيْلَرْبَى
في ٥ نيسان ١٣٣٣ [رومية]

ينهبون قصري بعد أن خلعوني

سمعتُ أنهم نهبوا ـ من بعد خلعي عن العرش ـ الأشياء الأخرى من خزانة قصر يلديز. ولا أستطيع أن أفهم إلى الآن كيف يستطيع أخي السلطان السكوت على هذا. ذلك لأن هذه الأشياء كانت ملكاً للأمة. وكان الاحتفاظ بهذه الأشياء والحفاظ عليها مسؤولية السلطان أيضاً بنفس القدر. على كل حال، عندما وصلت إلى سلانيك لم يكن لي من ثروة قط غير نقودي الموجودة في بنوك سويسرا وبرلين وبعض الأسهم والتحويلات والسندات مع بعض قطع المجوهرات التي كانت معي. طمع الاتحاديون وتعلقت أعينهم بهذه النقود.

لماذا يريد الجيش الاستيلاء على مالي الخاص؟

أخبروني ذات صباح أن فتحي بك قائد الحرس يطلب مقابلتي، فقلت: ليتفضَّل! وجاء. كان سلوكه يدل على الأدب والاحترام، وحديثه رقيقاً لطيفاً[(١)]. سألني في البداية عن حالي فأراد أن يعرف إن كنتُ محتاجاً لشيء من الأشياء أم لا. وبعد أن وعد بالتنفيذ الفوري لرغبة أو اثنتين مما طلبتُ، أحنى رأسه إلى الأمام وسكت برهة، فهمت فوراً أنه يريد أن يقول شيئاً،

---

(١) يقول فتحي (أوقيار) بك قائد الحرس في مذكراته، عند حديثه عن تصرفه تجاه السلطان عبد الحميد: (لقد كنت مصراً على أن أتعامل مع السلطان عبد الحميد منذ أول لحظة [كُلِّفت بحراسته فيها] أن أتعامل مع جلالته كما لو كان ما زال في السلطة والسلطان. وظللت على هذا حتى آخر لحظة كنت معه فيها).
فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٦٥.

ولكنه يفكر في المدخل إلى التحدُّث عما يريد. كان حديثه هذه المرة ينصبُّ على وضع البلاد الجديد، وعلى احتياج الجيش، وكيف أنَّ موقف الخزانة أصبح لا يساعد حتى على دفع مرتَّبات الموظفين الشهرية. كان يتكلم بلسان من هو مطَّلع على أحوال هيئة الأركان. ثم أعقب كلامه بالعبارة التالية:

ــ الجيش في حاجة إلى مساعدتكم!

كيف يمكن لسلطان مخلوع مثلي أن يساعد الجيش. لقد نُفينا مع أولادنا وحُبِسنا في قصر قديم حتى إنهم منعونا من قراءة الصحف. كنا نعيش بألف ليرة تدفعها لنا الدولة وهو مبلغ لا يكفي حتى لمعيشتنا. سألته بتعجب:

ــ وكيف تكون هذه المساعدة؟

قال:

ــ بأن تمنحوا نقودكم وسنداتكم الموجودة في البنوك إلى الجيش.

لم أتعجَّب وقت أن خلعوني عن العرش ونفَوْني إلى سلانيك، وحتى عندما لم يسمحوا لنا بفتح شيش نوافذ القصر، ولكني تعجَّبت حقيقة عندما طلبوا مني سنداتي وتحويلاتي الموجودة في البنك، ذلك لأن هذه الثروة لم تعد تبلغ حتى نصف ثروتي وقت أن كنت وليّاً للعهد. وقد استخدمتُها في شؤون الدولة والأمة رغم حب الإنسان لثروته الشخصية، استخدمتُها لصالح الدولة والناس عندما استدعت إليها الحاجة، ولم أفكِّر أبداً في أيِّ وقت من الأوقات في استردادها، والآن يريدون الاستيلاء على آخر شيء في يدي أستطيع الاستناد إليه، ويحاولون أن يتركوني بلا أمان لمدة طويلة، وأنا لا أفكر في نفسي، ولكن في ماذا سيحدث لأولادي، فقد كنت صاحب أسرة

كبيرة. والتفكير في حياتهم واجب عليَّ. والثروة التي تحت يدي وهي قليلة كانت من قبيل تأمين مستقبلهم وإن كانت لا تستطيع دفع مشاكلهم الحياتية.

شرحتُ هذا وبهدوء، ودون أن تسيطر عليَّ الحدة، شرحته لفتحي بك ثم قلت له:

ـ إن حضرة أخي السلطان رشاد يعلم بحالي جيداً، وليس لي من الدولة قرش واحد يحميني. ولو أعطيت كل مالي للجيش. فلن يسد احتياجات كتيبة واحدة من الجيش، الدولة العثمانية لا تستطيع أن تقف على قدميها من جراء بعض نقود أمتلكها!!!

كان فتحي بك يسمعني وهو مطأطىء الرأس، ولم يقل شيئاً قط، ثم سألتُه:

أهذا أمر من أخي؟

فقال:

ـ هذا رجاء من الجيش ومن الحكومة مقدَّم إليكم.

ـ حسناً. وماذا يحدث لأولادي؟.

ـ إن حياة ونفقات جلالتكم وكذلك أولادكم تكفلها الدولة والجيش.

الجيش دولة داخل الدولة

لاحظتُ وهو يجيبني بأنه فصل الدولة عن الجيش، كان يتكلم وكأن الجيش دولة داخل الدولة. والمعنى الذي يُستنتج من هذا: أن جمعية «الاتحاد والترقّي» هي الدولة، وهي التي تمثل القوة المدنية للحكومة، للسراي، ولمجلس «المبعوثان»، ثم قوة الجيش العسكرية، وهذا يعني أن الأسرة الحاكمة لم تعد إلاّ اسماً فقط. غرقت في الحيرة والدهشة. إن هذه

هي أول مـرة في تاريـخ الـدولة العثمـانية تستحـوذ فيه على الـدولة هيئـة غير مسؤولة.

سألته وأنا أحافظ على سكينتي وهدوئي:

ـ من سيُعطيني هذه الضمانات؟ من باسم الدولة؟ ومن باسم الجيش؟ أدرك فتحي بك سريعـاً إلى أيِّ نقطة بلـغ الحـديث. وقال وهـو يجمـع نفسه من اضطراب:

ـ معلوم لجـلالتكم أن الجيش تكفَّـل بحيـاتكم عنـد مغـادرتـكم إستانبول، ولهـذا السبب تكلَّمتُ بهذا الشكـل. ولا بد أنكم ستكـونون تحت كفالة الدولة.

اتضحت لي هـذه المصيبـة: أن الـدولـة ليست في الميـدان. وهكـذا عرفت من خلال هذا الحديث الأحـداث التي حدثت من بعـدي، جمعت كل انتباهي وسألته: من باسم الجيش، ومن باسم الدولة، أمركم بتبليـغ هذا؟

سرعان ما ضاق فتحي بك ذرعاً ولاحـظتُ أنه أثنـاء حديثـه يتمتم غضباً ببعض الأشيـاء، وأجابني بـإيجاز، وبـطريقـة خشنـة لم أتـوقعهـا منـه: «ليس مسمـوحاً لي بـالإفصـاح عن هـذا. واجبـي أن أبلغكم بشيء محـدَّد لأعـرف رأيكم فيه، وأياً كان ردكم فسأكتبه إلى الجهة التي كلَّفتني به».

وعرفت ما كنت سأعرفه. فليس هناك أي فـائدة من معـرفة من يتحـدث باسم الدولة بعد أن لم تبق الدولة، وقلت وأنا في أقصى درجة من الملاينة:

ـ يا ولدي! إننا جميعاً سنموت، فالمـوت حق، ولـم تعد لي رغبـة في متاع الدنيا. والحمد لله لم تكن لي هـذه الرغبـة في أي يوم من الأيـام. وهذه الـدريهمات التي في حـوزتي، هي لأولادي الذين أَتَـوْا من صلبـي أو أولادي الذين ورثتهم عن أجدادي، لا فرق إطلاقاً بينهم، فأولادي أيضاً أولاد الدولة،

وأنتم ترون أن بناتي كبرن ووصلن إلى سن الزواج، لي أولاد وصلوا إلى سن الذهاب إلى المدرسة، وهؤلاء بنات وأبناء الدولة. إن إعدادهم إعداداً جيداً ليس من أجلي، ولكن من أجل الدولة، ستفيد بهم، وكنت أفكر في وضعهم هذا أثناء ما كنت في السلطنة، وكنت بحثت لكل بنت من بناتي عن زوج، وهنَّ الآن مخطوبات. إن طلبي من حضرة فخامة أخي، ومن الحكومة، ومن الجيش، هو ما يأتي:

أن يُسمح لبناتي بالخروج من هنا، ثم يُسمح لهن بالتزوّج، وكذلك ضمان تحصيل وتربية أولادي، وما عدا ذلك فسهل، وأرجوك من فضلك، أن تكتب بهذا للجهات المختصة التي أنت تابع لها. وليهتموا برغبتي هذه وإني أنتظر خبراً مفرحاً في وقت سريع.

ـ هل لكم في أن تتبرعوا بإيداعاتكم المصرفية وأسهمكم للجيش؟

ـ ذلك أمر سهل أكتب من فضلك أولاً بما رجوته.

لم يكن مسروراً عند خروجه. فلم يستطع الحصول مني على إجابة لمطلبه. أما أنا فلم أكن سعيداً على الإطلاق، فمن ناحيةٍ أرى الهوَّة التي وقعت فيها دولتي ومن ناحية فقد عرفت أنهم يطمعون في نفقة أولادي. وإنها لحقيقة أنه منذ الأيام الأولى لوصولي سلانيك، ويشغل بالي جداً كأبٍ، مستقبلُ أولادي، وبشكل خاص بناتي. كن مخطوبات، كما أن ابني الأمير عبد الرحيم قد وصل إلى سن التحصيل والدراسة. وكنت أريد منذ مدة أن أزوجهنَّ وبهذه الصورة أنقذهنَّ من حياة الاعتقال معي. والحقيقة أنَّهن كن مسرورات لأنَّهن يعشن معي، وكنَّ يعملن على ألَّا يشعرنني بالآلام التي يقاسينها، ولكني كنت أعرف باليقين كيف يلفُّهن الضيق.

ولهذا السبب كان حديثي لفتحي بك هو التعبير عن حقيقة.

لم يكن ممكناً لي أن أتصل لا بالحكومة ولا بالقصر. ولكني استطعت إقامة اتصال مع الجيش الثالث عن طريق فتحي بك. وهكذا كتبت خطاباً، وفي خطابي هذا طلبتُ السماح للأمير عبد الرحيم ـ الذي بلغ سن التحصيل ـ بالإقامة في مدرسة في إستانبول، والسماح لخُطَّاب بناتي وهم أحمد أيوب باشا زداه فؤاد وسعيد باشا زاده فؤاد وأحمد نامي بك بحضورهم واحداً بعد الآخر ـ كل واحد في أسبوع ـ إلى سلانيك، وتزويجهم على يد مأذون شرعي في جناح فتحي بك قائد الحرس، ثم الإذن لهن بترك القصر.

أتى فتحي بك في أحد الأيام التي انتظرتُ فيها رداً على خطابي هذا وقال: «تلقَّيت برقية من سيادة الفريق هادي باشا. قرر جلب رصيدكم وأسهمكم الموجودة في البنوك الأجنبية إلى سلانيك، وعهد بهذه المهمة إلى جاويد بك وزير المالية[1]. أعدَّ المسؤولون توكيلاً في هذا الصدد، واضطررت أن أحاول أن أرجوكم للتفضل بالتوقيع».

يخافون مني وهم في السلطة

كان سلوكه أمامي رقيقاً، ولكنه كان هذه المرة عسكرياً، كان يبدو في سلوكه التحكُّم أكثر من الرصانة، وسريعاً ما فطنت إلى لطف رقة موقفه، على كل حال لم تكن الثروة التي تحت تصرُّفي كبيرة، كانوا يريدون أن يتركوني بلا سند أكثر مما كانوا يريدون استخدامها في سبيل الجيش. إذن ومرة أخرى يخافون في استخدامي هذه الثروة في محاولة لعمل ما. إذن ومرة أخرى فالذين يسيطرون على إدارة البلاد كانوا ضعفاء لدرجة أنهم يخافون مني.

---

(١) جاويد بك هذا من كبار رؤساء حزب «الاتحاد والترقِّي» عيَّنه الاتحاديون وزيراً للمالية وهو يهودي من يهود الدونمة وماسوني كبير بدرجة ٣٣. انظر: مذكرات طلعت باشا، ج ٣ ص ١٤٢٤ ـ ١٤٢٥، مصدر سبق ذكره.

ـ كان لي بعض الرجاء من الجيش يا فتحي بك؟

ـ الحكومة والجيش مستعدان لتنفيذ رغباتكم. وعلى فخامتكم التفضُّل بالتوقيع على التوكيل، وعليَّ أنا عبدكم المخلص ضمان الباقي.

كانوا قد نَوَوْا تنفيذ الأمر الواقع. أجبت بسكون:

ـ لقد وصلتُ إلى آخر سني العمر، ليست هذه النقود لي، فإنها كما قلتُ من قبل مخصَّصة لكي لا يقع أولادي في الفقر. ولا أجد في نفسي حق اتِّخاذ القرار. فلا بد أن أجتمع بهم، ثم أخبركم بما استقر عليه الرأي.

تردّد فتحي بك في الوقت الذي كان عليه أن ينسحب من الغرفة وقال مرة أخرى:

ـ متى يا تُرى تستطيعون الردَّ؟ ذلك لأنَّ الجيش ينتظر النتيجة على عجل. وإذا تفضَّلتم بالسماح، فلأترك التوكيل وهو جاهز.

أخرج مظروفاً من جيبه ووضعه على مائدة الطعام. وكان ينتظر ما سأقوله وهو واقف، فقلت:

ـ أتصوَّر أن الردّ لن يتأخَّر طويلاً.

حيَّاني تحية عسكرية ثم خرج من الحجرة.

وسريعاً ما فحصت التوكيل، كان هذا التوكيل على اسم جاويد بك وزير المالية، به نفس حقوق ملكيِّتي من النقود والإيداعات الموجودة سواء في «الدويتش بنك» أو «كيردي ليونة»، وكذلك مالي في البنوك الأجنبية الأخرى، تذكَّرت وأنا أبتسم بمرارة، الحقوق التي اعترفَت بها المشروطية للمواطنين. أطلقوا عليَّ في وقت من الأوقات لفظ «المستبدّ» ولم يخطر على بالي مطلقاً أن أَمَسَّ حتى قشّة يمتلكها أحد الناس وذلك طوال مدة سلطنتي. أما هم فيستصدرون قراراً حكومياً لكي يأخذوا ما تبقّى من دريهمات في يد

سلطان سابق، ثم يسمُّون هذا بالفكر المشروطي [الديمقراطي] وهذه هي الحرية والمساواة والعدالة التي أتَوْا بها.

الوضع كان جدياً وكذلك كان وخيم العاقبة. كانوا يتصرفون باسم الدولة ويتركون حق المصادرة للجيش. لم يرَ أحد من الناس ـ ليس في التاريخ العثماني فحسب، بل ربما في تاريخ العالم ـ شيئاً مثل هذا. خطر على بالي أنهم ربما قاموا ببعض محاولات لدى البنوك ولدى الدول التي توجد فيها هذه البنوك للحصول على هذه الثروة دون أنْ يراجعني أحد. يعني أنهم عندما لم يستطيعوا الحصول على نتيجة من هذا الطريق، كان من الضروري عليهم اختيار طريق التوكيل.

الثروة التي يطمع الضباط فيها

كانت هذه الأيام هي أكثر أيام حياتي إيلاماً. كان الضغط شديداً، ليس عليّ أنا وحدي فحسب، بل على أولادي وعيالي أيضاً، لم يكن ضباط الحرس يتوانَوْن عن القول بأنَّ القصر سيُقصف بمدافع البحرية العثمانية، وإننا سنُقتل جميعاً، إذا لم أعطِ للجيش النقود التي أرادوها. والواقع أن هذا التوكيل يُعطي لجاويد بك الصلاحية لتسليم هذه الثروة إليَّ. ولكن شخصاً مثلي محبوساً في قصر، ومكبَّلَ اليد والذراعين، لا يمكن أن يثق بأحد يحافظ على هذه النقود. جمعتُ الأسرة في مجلس، وأوضحت لهم الوضع وشرحت لهم أن هذه النقود ليست ملكي وإنما ملكهم هم. والقرار فيها لا أتخذه أنا، ولكن هم الذين يتَّخذون هذا القرار، سيطر علينا جميعاً الخوف من الاغتيال، أوضحوا أنَّ تنازلنا عن أموالنا للجيش أكثر ملائمة من إعمالهم القتل فينا. عدتُ إلى حجرتي دون أن أتفوَّه بكلمة.

والثروة المراد أخذها مني بالتسلُّط، لا بدَّ أن تكون معروفة، ولكني أحصيها أمام التاريخ الشاهد العدل، إنها أقل بكثير جداً من نصف ثروتي

أثناء ما كنت وَلِيّاً للعهد، وكما أنني أنفقتُ من جيبي الخاص هباتٍ مني أثناء توليتي السلطنة لصالح البلاد، فإني صرفت أيضاً من جيبي الخاص على الدولة في كل ضيق وقعت فيه البلاد، ولم يكن يخطر على بالي استردادها. وما يتفوّهون به اليوم من ثروة كان عبارة عن مجموعة سندات لنقود تمَّ صرفها من أجل تقدُّم الدولة العثمانية ورقيّها، كانت صَدَرَت سندات لإنشاء ميناء سلانيك. وبقصد تقديم يد العون للمشروع قمت بشراء مجموعة من هذه السندات من ثروتي الشخصية. ثم كانت هناك الحاجة لرأس مال لمدّ طريق السكة الحديد. ولهذا القصد أصدَرتْ بلادي أسهماً مالية، وبهدف خدمة بلادي، اشتريت منها أيضاً، وبقصد أن يكمل أبنائي تحصيلهم في أوروبا أودعتُ في «بنك كريدي ليونة» مبلغ خمسين ألف ليرة. وكانوا سيفيدون ـ أي أولادي ـ من هذه النقود عند سفرهم إلى أوروبا. ها هي ذي ما يراد أخذه مني اليوم بوصفه ثروة!

ليس عندي قط ما أبخل به على بلادي. كنت أستطيع تقديم هذه المبالغ القليلة عن طيب خاطر، ولكن لم تكن حياتنا آمنة. والذين كان مهمتهم تخويفنا، كانوا يهدِّدوننا بالموت وبإطلاق المدافع. حياتي أنا مرَّت وتكاد تنتهي، ولكن ماذا عن حياة أولادي وأبنائي؟ كان الجيش قد ضمن بكل شرف، حياتي وحياة من معي. وكان ذلك عندما خرجت من القصر. وقد أصبح مفهوماً وقبل مضيّ وقت طويل على هذا أنَّ الضمانات قد أصبحت غير كافية، نظراً لما استطاعه الذين منحونا هذه الضمانات من التهديد بإطلاق المدافع علينا. وما دام الحكم المشروطي موجوداً فماذا يمكن أن يحدث إذا أعطيت هذه الضمانات مباشرة من الجيش؟

بهذا السبب وضعتُ بعض الشروط:

- أولاً: تزويج بناتي وضمان تعليم أولادي.

● ثانياً: بيع قصر آلاتيني الذي أُقيم فيه لي بحيث تكون ملكيته باسمي، وعمل الترميمات اللازمة له.

● ثالثاً: ضمان معيشة أولادي وعيالي في رخاء.

● رابعاً: إعادة الحرية الشخصية لمن في معيَّتي من الأقارب.

● خامساً: تخصيص مبلغ لأعيش به في أيامي المعدودة الباقية دون أن أحتاج لأحد، مع كفالة أمن حياتي.

أَعلمتُ فتحي بك بهذا. فإذا بي أجده فرحاً، وكأن ثقلاً عظيماً كان يحمله فانزاح من عليه. وقال أنه سيضمن هذا. فزدت على هذا قائلاً له: «إني أريد من مجلس «المبعوثان» أن يعطيني هذه الضمانات». وقدَّمت إليه مذكِّرة عبارة عن طلب يبدأ بعبارة «عرضٌ لحالي مُقَدَّمٌ إلى الدولة والأمة وأعضاء مجلس «المبعوثان» والجند». وطلبت فيه إخطاري كتابةً بالتكفُّل الصريح بطلباتي. وأن يُقرأ طلبي هذا في مجلس «المبعوثان»، كما أوردتُ في طلبي بعد ذلك استعدادي لإهداء كل ثروتي للجيش لآخر قرش فيها.

أخذ فتحي بك الطلب وخرج. أما أنا فكنتُ أنتظر النتيجة باهتمام. وذاتَ يوم طلب فتحي بك بسرعة لقائي ورؤيتي فقلت: «فليتفضَّل» وعندما دخل الحجرة لم يفتني ملاحظة أنَّ وجهه عابس وأصفر. يعني أنه لا يحمل أخباراً سارة. وقال: تلقَّيتُ شفرة من سيادة محمود شوكت باشا [قائد الانقلاب][1]. ها هي ذي.

---

(١) عن علاقة محمود شوكت باشا ـ الوطيدة ـ باليهود وبالصهيونية العالمية: انظر خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨م، بيروت ١٩٧٣م، ص ١٥٤، حيث تنقل عن جريدة الجويش كرونيكل ما يأتي: «إن الحاخام (اليهودي في إستانبول، بناءً على تأكيدات محمود شوكت باشا) يمكنه دوماً الاعتماد والثقة بتعاون (محمود شوكت باشا) الودّي في أيّ أمرٍ له علاقة برفاه الشعب اليهودي في الإمبراطورية (العثمانية)».

قال هذا، وقدَّم لي الشفرة المحلولة، وهذا نص الشفرة التي قرأتها وأنا غارق في متاهات الحيرة والدهشة. وتبقى بعدها شكواي لربي كما أُودِعها التاريخ العادل.

«شفرة
دائرة حربية ٦٠١١
إلى قيادة الجيش الثالث
جـ ٢٤ حزيران عام ٣٢٥

كان الخاقان السابق قد كتب في خطابه أنه سيقدِّم ثروته الموجودة لإكمال النقص في الجيش الثاني والثالث، وأنه يريد أن يُباع له القصر الآتيني على أن تؤول ملكيته للحكومة مرة أخرى بعد موته، وأنه كذلك يحتمي بالشرف العسكري. والآن مرفوض أن يفكِّر في شروط أخرى. فالجيش العثماني تعهَّد بحياة المشار إليه. وبينما هذا التعهُّد موجود، يطلب الخاقان السابق تعهُّد آخر من مجلس الأعيان و«المبعوثان» اللذين هما عبارة عن القوَّتين التشريعيتين الكبيرتين، ولا يتذكر أنه اليوم في حفظ الجيش العثماني».

«وعندما يتعهَّد الجيش العثماني بالمحافظة على حياته، فإن طلبه ضمانات أخرى مع خطاب تعهّدٍ بذلك يقدمه رئيسا مجلسَيْ الأعيان و«المبعوثان» اللذان يتغيَّران كل عام، من شأنه أن يمس شرف الجيش! وينسى أن كل هذا لن يكون له قيمة ولا أهمية حقيقية، ويجب التفكير جيداً، في مدى التأثير السيِّىء الذي يمكن أن يخلقه هذا الحال، في حالة معرفة ضباط الجيش به، ويجب هنا العلم جيداً، أنه في حالة وفاته، فإن هذه المودَعات التي له في البنوك ستؤول ملكيتها إلى الحكومة تلقائياً. وعند إيصال هذه البرقية إليه، تفضَّلوا مرة أخرى بمراجعة الخاقان المشار إليه، وحيث إن

موظفي البنوك الذين تمَّ إحضارهم من ألمانيا لن يستطيعوا الانتظار فترة أطول، فليكن معلوماً بشكل قاطع ما إذا كان سيوقِّع أو لن يوقِّع على كشف الحساب الذي سيقدِّم إليه عندما يستقبل الموظفين المذكورين، وعليه أن يُلقي بطبيعته المتردِّدة جانباً، تلك الطبيعة التي كانت سبباً في الوصول بالبلاد إلى هذه الكارثة. وعليه أن يُصغي لنصيحة الرجال الشرفاء. أعرضوا عليه هذا بإخلاص، وأن يتصرف برجولة. وإني في انتظار ردكم «٢٥ حزيران سنة ٣٢٥» فريق أوَّل محمود شوكت قائد جيش الحركة»[١].

كأنهم يقولون لي: إما نقودك وإما حياتك. وأسفل هذه البرقية الشفرية توقيع قائد جيش الحركة ـ الذي رقي إلى رتبة الفريق الأول للدولة العثمانية ـ: محمود شوكت باشا.

اللهم احفظ الدولة من شرِّ المجرمين

انهرتُ، ليس بسبب تهديدهم لي بالقتل، ولكني انهرت لأن قائد جيش يرى نفسه فوق مجلسَيْ «المبعوثان» والأعيان[٢]، ولأنه استطاع التمادي إلى درجة تثير دهشة الذين يرون أن هناك وجوداً للدولة وللقصر وللحكومة

---

(١) يصف فتحي بك في مذكراته هذا التصرف من محمود شوكت باشا بأنه تصرف خشن.
انظر: فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٧٣.

(٢) يتفق تشخيص السلطان عبد الحميد لمحمود شوكت باشا في هذا، مع تشخيص الدكتور رضا نور الذي يقول في مذكراته: «كان محمود شوكت باشا يتحكَّم ويهدد ويتوعَّد. كم كان هذا الباشا مغروراً. ما يقوله في مجلس «المبعوثان» هو الذي يسري، لذلك غضب المجلس لكرامته، وكان عليَّ بدوري أن أغضب باسم المجلس».
رضا نور، المرجع السابق، العدد ٥٣٤، المجتمع الكويتية في ١٩٨١/٦/٣٠.

ولمجلسَيْ «المبعوثان» والأعيان. لا وجود لكل هذا. وأقلّ ما في الأمر أنْ لا وجود للقوات المسلحة أيضاً. فقط كان يوجد الجيشان الثاني والثالث وجيش الحركة التابع لهما، والذي كان قائده يستطيع أن يقول لي: في حالة موتك فإنَّ هذه النقود ستؤول إلينا كيفما كان الأمر، فلا تتعبنا بها. أعطها لنا عن طيب خاطر حتى لا نلطِّخ أيدينا بالدماء.

نظرتُ إلى فتحي بك، كان وجهه شديد الصفرة. أطرق برأسه نحو الأرض.

فقلت له: هات التوكيل، سأُوقِّع عليه.

وضع الورقة أمامي دون أن يتفوَّه بكلمة قط. ووقَّعْتُ.

انحنى. وبينما يضعها في جيبه إذا بي أراه قد انكفأ على قدمي فجأة ويبكي وهو يقول:

ـ «مولاي! لجنابكم أن تثقوا أنني لستُ إنساناً في طبيعته أن يقوم بهذه الأمور». أمسكته وأنهضته وربتُّ على ظهره، انسحب وخرج والدموع في عينيه.

ليت اللَّهَ قد توفاني قبل أن يُريني هذه الأيام. فرشت السجادة وأخذت في الصلاة. كان الدمع يسيل كالسيل منهمراً من عيني.

ولم أرفع رأسي عن السجادة حتى الصباح.

يا ربي احفظ دولتي من شر المجرمين. ليس لي غيرك أثق به..

يا ربي لا تريني كوارث أخرى. أنت وحدك الذي تستطيع إنقاذ دين الإسلام المبين من أن يُقهر على يد الكفرة.

يا أسفا فربي المتعال العظيم لم يقبل دعائي، جعلني عرضة للكثير

والكثير من المصائب وكنت أفكِّر كثيراً قائلاً: تُرى أيّ ذنب اقترفته وكم نحن مذنبون!!

قصر بَيْلَرْبَى

٧ نيسان ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

أُجبرتُ على التنازل عن ثروتي

ليست لديّ أيّ رغبة في كتابة الباقي من الأحداث، ولكن ما دمتُ بدأتُ فلأستمر. جاءني فتحي بك في اليوم التالي لكي يزورني. كان سبب الزيارة: الوداع! والمفهوم أنه أدّى واجبه بحصوله على توقيعي. وعُيِّن مكانه ضابط آخر هو قول آغاسي راسم جلال الدين. قلت من قبل: لقد تغيَّرت في نظري مثلما تغيَّرت في نظر أولادي أيضاً ماهية الأحداث الهامة. تحوز على اهتمامنا جميعاً مرة واحدة مسألةُ نقل قائد الحرس وتعيين آخر محله. يا تُرى هل سنخضع لنظام أكثر شدة؟ ذلك لأن القائد الجديد كان جندياً له وجه خشن.

لكني فهمت ألّا حق لنا في طلب شيء، وأننا مُجبَرون على الرضا بما يُقدَّم. ولذلك فإنَّ نقل فتحي بك ومجيء راسم بك لم يكن هاماً، وأيّاً كان تصورنا فإننا كنا سنقاسيه. وها هو ذا راسم بك القائد الجديد قد جاء إلى حجرتي ذات مرة وأخبرني بأنَّ موظفي البنك سيحضرون عندي، وسيسلِّمونني النقود والأسهم والإيداعات يعني هذا أن البنوك لم تعترف بالتوكيل الذي وقَّعتُه واشترَطَتْ تسليم إيداعاتي لي. ولا فرق عندي في هذا. فلو أنهم لم يزجّوا بي في هذا الأمر لكنتُ أكون مسروراً. كان ابني الأمير عبد الرحيم تتناوبه نوبات عصبية؛ امتقع لونه وكان الدم ينزف من أنوف بناتي باستمرار. ورقدت زوجتي في السرير، يعني أن مجيء موظفي البنك معناه اضطرابهم مرة أخرى.

في ذلك الصباح ارتدى ضباط الحرس ملابس مدنية. وقد كانوا طوال الليل يجيئون ويذهبون في الحديقة أمام غرف نومهم من جرّاء قلقهم. وإذا بالصبح يُصبح علينا دون أن تغمض لنا عين. بعد صلاة الفجر استدعيتُ ابني الأمير عبد الرحيم، وقلت له بصوت مهدىء أن يكون بجانبي، لأنه أكبر أفراد الأسرة بعدي. وقلت له: إننا سنهب ثروة الأسرة للجيش. وطلب مني والدموع في عينيه أن أسامحه، فلقد أصبح يخاف من رؤية الضباط، ولذلك أخذت الأمير عابد معي وهو ابن الخامسة، واستقبلتُ موظفي البنك في قاعة الطعام. حضر القنصل الألماني مع الوفد، وكان يسير خلفه كل من هادي باشا قائد الجيش الثالث، وعلي رضا باشا، وقول آغاسي راسم بك قائد الحرس. استقبلتُهم في قاعة الطعام في الطابق الأول، كانت معهم أربع عشرة حقيبة ممهورة بخاتم «دويتش بنك». وفجأة استدار موظفو البنك وقالوا للباشوات:

ــ نحن مضطرون للقاء فخامته على انفراد. لهذا السبب نرجوكم أن تتركونا معاً!

كرر القنصل نفس الكلام. نظر كل من هادي باشا وعلي باشا إلى بعضهما، ثم التفت كلاهما إلى راسم بك. فهمت أن واجبهما في ذلك الوقت كان: أن يكونا حاضِرَيْن معنا. كنت سأتدخَّل، فشرح القنصل في احترام عظيم وبلغة حاسمة أنَّ هذه مسألة عرف وأصول.

انسحب الباشوان، ولكي لا يطلّع الأولاد على الموقف، فقد أشرتُ إليهم ــ وهم يتفرَّجون علينا من على السُّلَّم ــ إشارة من يدي أن ادخلوا مساكنكم فدخلوا.

قدَّم موظفٌ نفسَه على أنه المدير الثاني لبنك دويتش، قال أنهم حسبما يقتضيه الأمر سيفتحون الحقائب التي أحضروها وسيعدّون ما بداخلها واحدة واحدة ويسلِّمونها. وقبل البدء في هذا، سألني بوضوح عما إذا كنتُ أرغب أولاً أرغب

في هذه الإيداعات وذلك بسبب الظروف التي أعيشها. وأضاف موجِّهاً كلامه إليَّ قائلاً: «إذا لم توافقوا، فإننا سننفِّذ حرفياً الأوامر التي تُصدرونها إلينا شفاهاً..».

فأجبته قائلاً: إنني أسحب مودعاتي من البنوك بإرادتي الحرة، ثم التفتُّ إلى ابني الصغير الجالس بجانبي وسألته:

ـ أليس كذلك يا عابد؟

كان المسكين البريء يتَّجه بنظراته إلى عينيَّ. هززت رأسي فهزَّ هو بدوره رأسه، ثم التفتُّ إلى الموظفين وقلت لهم: «باشروا عملكم». وسريعاً ما فُتحت الحقائب وتم إحصاء كل منها، ثم قُدِّمت لي المحاضر فوقَّعتُ عليها. خرجوا وذهبوا باحترام كبير ولكن بحزن عميق.

بعد ذلك وحسب ما سمعته من الأولاد أن الباشوين عند خروجهما من الحجرة التفَّ حولهما الضباط الموجودون في الحديقة وسألوهما بلهجة مستَهجَنة وبصوتٍ عالٍ: كيف تركانا وحدنا؟ فعَقَّد الموقف لسانَيْ الباشوين، وعندما خرج موظفو البنك أسرع الضباط وعلى رأسهم هادي باشا جرياً إلى الداخل. فقلت لهم:

ـ ها هي ذي، احملوها من فضلكم.

وإذ بالضباط في لحظة واحدة وفي حماس النهب، يرفعون الحقائب ويحملونها ويخرجونها. ونحن أيضاً استطعنا بهذا أن نفرح نوعاً ما. بناتي تزوَّجن. واستطاع بعض الذين أتوا معي إلى سلانيك العودة إلى إستانبول. وفي نشوة خررت لله ساجداً شاكراً. طلبوا مني أن أكتب خطاباً بخط يدي أقول فيه بأنني أهب ثروتي ببنك دويتش كلها برضائي وموافقتي، للجيش الثاني والثالث. فكتبتُ، ووقعوا، هم، لي، على مضابط تفيد بأنهم سينفِّذون مطالبي. وبالإضافة إلى هذا، فقد تلقيت خطاب شكر من قيادة الجيش الثالث.

أعلم وكنت أعلم، أن كل هذا ليس له أدنى قيمة. ولكني أحفظه للتاريخ، أما حسابي فسيكون يوم الحشر.

قصر بَيْلَرْبَى

في ٧ نيسان ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

يخافون من مذكراتي

كنت لا أتضايق كثيراً من البقاء في القصر ذلك لأنني اعتدت الحياة في عدم الخروج منه كثيراً. ولكن الذين كانوا معي من المرافقين والأمناء والأمراء كانوا يَضيقون بالقصر، كانوا يقدِّرون نعمة الخروج ولو إلى حديقة القصر. طلبت إذْناً لهم من القائد. كانوا يتمتعون بالجوِّ ورؤية الشمس تحت رقابة، عدا واحد منهم وهو أحد الأمناء ويسمى علي محسن بك، فبدلاً من أن يخرج إلى الحديقة كان يأتي إلى جانبي في الساعة التي لا يكون أحد فيها معي، ويكونون خارج القصر. كان يطيب له التحدُّث معي عن الأيام الماضية، وقال لي ذات يوم:

ـ مولاي! لماذا لا تسجِّل ذكرياتكم هذه؟

إن أحداث ٣٣ سنة من سلطنتي مرت ولا يَعرف خباياها أحد غيري، أو بضع أشخاص ممن حولي. إذا لم أكتب أنا، وإذا لم يتكلموا هم، فمن أين سيعلم التاريخ بهذه الحقائق. فقلت لعلي محسن بك ذات يوم:

ـ أنا أقول. وأنت تسجِّل.

ابتهج جداً، وسريعاً ما تناول قلماً وورقاً وانثنى على ركبتيه بجانبي. أشرح ما يأتي في ذهني، وهو يسجِّله على الورق. والساعات التي كان يخرج فيها كل شخص إلى الحديقة، سريعاً ما كنا نقضيها معاً وكنت أنبِّه عليه من وقت لآخر مغبَّة أن يشتبه الحرس في هذه الكتابات، وأن يخبِّئها جيداً. وكان

بدوره يقول لي ألاَّ أشغل بالي بهذا، وكان يخبِّيء هذه الكتابات في مكان لا أعرفه.

ثم حلَّ شهر رمضان فانقطعنا عن الكتابة. ولم أستطع رؤية علي محسن بك لفترة. لم يعد يأتي إلى جانبي. شغلني هذا الغياب فسألت عنه. قال الأولاد: إن السبب في هذا هو شهر رمضان والاعتكاف. إنه في إحدى الحجرات السفلية يصوم. وإفطاره على الماء والخبز. ويكثر من الدعاء ولا يلتقي بأحد.. فاطمأننت عليه، وزاد تقديري نوعاً لعلي محسن بك. وذات يوم إذ بابني الأمير عبد الرحيم يخبرني ولا أدري أَمِنْ إشفاقه على علي محسن بك أم من فرط السيطرة على نفسه أن علي محسن بك محبوس في مخزن القصر.

دُهشت، ماذا يمكن أن تكون هذه الجريمة التي يُسجن بسببها أمين مثله، دائماً في حاله، استدعيتُ أحد الضباط، وسألته عن علي محسن بك، فقال: إنه مريض يا مولاي السلطان، والطبيب يقوم بمعالجته وهو بيننا، وليس في المخزن ولا يساور جلالتكم أدنى قلق بشأنه.

كانوا قد عرفوا بأنه يسجِّل لي مذكراتي. إن شهر رمضان يمرّ ولم يبعد علي محسن بك عن خاطري. وعند السؤال عنه كانوا يقولون: إن صحته تتحسَّن ويتماثل للشفاء. أخيراً لم أعد أحتمل. استدعيتُ راسم بك وسألته عن هذا. في البداية لم يكن يودّ التكلم. فلما ألححت عليه قال لي: «يبدو أنكم أمليتم عليه مذكراتكم، وهذا ممنوع، ورغم تذكيرنا لمن في معيَّتكم بأن هذا ممنوع فإن علي محسن بك لم يستجب لهذا، وكتب مذكراتكم، وخبَّأها تحت سريره، وعندما عثرنا عليها كتبتُ بهذا إلى الجيش الثالث، وأنتظر الجواب».

وجاء دوري هذه المرة في الإصابة بالدهشة، إذا كانت كتابة مذكراتي

جريمة، فينبغي أن يُقال لي هذا بدلاً من أن يُقال لمن في معيَّتي. إذا لم يكن علي محسن بك هو الذي خطَّ هذه المذكرات بخطه، وإذا كنت أنا الذي كتبتها بخطي، فمعنى ذلك أنهم كانوا سيُلقون بي في المخزن، وكانوا سيسجنونني. قلت هذا لراسم بك فاعتذر. وطلب مني الصفح لأنه إنما يؤدِّي واجبه.

رجوته إطلاق سراح علي محسن بك وعودته إلينا، ثم التحرك حسب الأوامر التي تأتي من الجهات العليا. وعد بهذا وقال: سأطلق سراحه ولكن لن يعود إليكم، ورضيت بهذا.

وحسب الأخبار التي زوَّدني بها الأولاد، فإنهم أطلقوا سراح علي محسن بك في اليوم التالي لكنهم لم يصرحوا له بالعودة إلى القصر. لا أدري أين ذهبوا به. ولا أين يعيش. إنما عندما أذنوا بعودة بناتي وبعض الأشخاص الموجودين ضمن معيَّتي إلى إستانبول ــ بعد تبرُّعي بثروتي الموجودة في «دويتش بنك» إلى الجيش الثالث والثاني ــ كان علي محسن بك من بين الذين استقلوا القطار. وحتى في القطار لم يُصَرَّح له بالتحدُّث مع الآخرين. إني أفهم أنهم عرضوا بعض الاقتراحات على علي محسن بك. لم يقبل هذا الرجل الشريف اقتراحاتهم، ولذلك أبعدوه عنا. تُرى لو لم يكن في الأمر شيء من هذا الذي أشرتُ إليه، إذن فلماذا منعوه من لقاء مرافقيَّ العائدين إلى إستانبول؟

أُمْلي مذكراتي من منفاي الثاني

أفكر الآن بمرارة وأنا أُملي خاطراتي هذه على مرافقيَّ في سراي «بيْلَرْبَيْ». تُرى هل سيُقبض في يوم من الأيام على عبد [= تابع] مخلص لي في أيامي الأخيرة هذه، لأنه خط بيده خاطراتي؟! وهل سيُلقى به إلى السجن؟

لا أحد يستطيع تزوير التاريخ

تُرى هل يعتقد هؤلاء الذين يحيطونني بهذا القدر من الحصار والتضييق، ويرتجفون من مذكراتي، أنهم يستطيعون تغيير كل شيء حسبما يودّون؟ ظل السلطان عبد الحميد أمام أعين الدنيا ثلاثاً وثلاثين عاماً، ويعلم كل الناس ماذا عمل وماذا سوّى. إن كل شخص من حقه أن يقوِّم هذا العهد من وجهة نظره. أكتبُ هذا تسهيلاً للتاريخ، وليس لأنني سأُفْهَم خطأً. فلا أنا ولا هم بمستطيعين تغيير التاريخ، فالتاريخ سيصدر حكمه، لكن مخاوفهم هذه ستؤدِّي إلى الحكم ضدهم سريعاً، بل من اليوم. اللهم لا تؤاخذ الناس بضمائرهم ففي هذا أكبر عقاب.

ملحوظة:

إن القائد الذي تسبَّب في حبس علي محسن بك بحجة خطه لمذكراتي، هو حارسي الآن. طلبتُه من سلانيك وأحضرته معي إلى منفاي الثاني ألا وهو قصر بَيْلَرْبَيْ. إنه يحترمني لكنه مخلص في أدائه لواجبه. لو كنت عرفته أثناء سلطنتي لما تردَّدت في تعيينه سجّاناً. إنه يجد لذة في أدائه لهذا العمل. ولو وقعتْ في يده هذه المذكرات ذات يوم، تُرى أيكون ممتنّاً لسطوري هذه أم سيحزن؟.

قصر بَيْلَرْبَيْ

في ٨ نيسان ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

دخل راسم بك حجرتي ذات يوم وقدَّم لي ــ خلافاً للمعتاد ــ عدة صحف. لا أرى لزوماً للتعبير عن بالغ دهشتي لهذا الأمر. لأنّني ومنذ وصولي هنا كنت أرجو كثيراً رئيس الحرس واحداً بعد الآخر باطلاعي على الصحف. كلاهما يصر على الرفض متعلِّلين بمختلف العلل. حتى راسم بك قال لي عندما وجدني أُصِرُّ على هذا: «يا مولاي! أعذرني! كل

الصحف الصادرة هذه الأيام تكتب ضدّكم إلى أقصى حد، حتى أني أيضاً لا أستطيع تحمُّلها. تعطّف علينا! فقلبي لا يستطيع الرضاء برؤيتكم متأثراً حزيناً». وكلام آخر من هذا القبيل، ويُبْدي المعذرة ويتصرّف وكأنه يُقيني من هذا الأمر، فقلت له ضاحكاً:

ـ يا راسم بك! كم قرأت أثناء عهد سلطنتي من الموضوعات! وكانت مملوءة بالشتائم الشنيعة الموجَّهة لي، ولم أتأثّر بها. لو كان عذركم في هذا فقط فليس هذا بالأمر الهامّ على الإطلاق، لا تحرمني من الاطّلاع على أحوال بلادي.

لكن كل أحاديثي هذه لم تغيِّر شيئاً قط، والآن وعندما وجدت راسم بك يأتي إليَّ حاملاً الصحف، فهمتُ أن أحداثاً مهمة حدثت. وبعد أن أعطاني الصحف قال لي: إن الذات الشاهانية السلطان محمد رشاد، سيقوم برحلة سياحية، وسيمر بسلانيك. سألني رأيي في هذا. سألني وهو يظهر وكأن الأمر فضول شخصيّ منه. استقبلتُ كلامه هذا بشكل طبيعي، وقلت: إنني أتمنّى لهذه السياحة الخير للبلاد. وذهب. وبعد مرور عدة أيام جاء تحسين باشا. تحسين باشا هذا أصبح ضابطاً بعد أن تدرَّج تحت السلاح. ألباني، له طبيعة لا يوثق فيها ولا يصدق في كلمته. ولهذا السبب كنت نفيته إلى حلب. ولذا فإنه يكرهني، وأنا بدوري لم أكن أخفي أنني لا أحبه. شرح لي تحسين باشا بلغة مُزوَّقة ومفخمة غاية في الفخامة موضوع الرحلة. تُرى هل لأنه يظن بي أنني سأغار من صاحب الجلالة أخي؟! أم ماذا؟ أجبته بالقدر الذي وُفِّقْتُ فيه. ورجوت للسلطان محمد رشاد، الخير. وخرج تحسين باشا كما دخل بنفس السلوك المُزوَّق الذي أتى به.

* * *

لم أستطع أن أفهم جيداً لماذا يريدون مني الاستعداد. أخي كان

حـاكم البـلاد، وكـان يخـرج إلى رحلة سيـاحيـة في بـلاده، وسيمـر بمـدينـة سلانيك. ونـظراً لأنهم لا يمدونني بـأيٍّ خبرٍ من أخبـار الأحداث التي تقـع في بـلادي، فإني لـم أستـطِـع أن أربط بين هذا وبين رغبـاتهم في إشعاري بهـذا الخبر بكل الوسائل المتعددة وبالطرق المختلفة. ولو كانت البلاد والعيـاذ بالله في حالة حرب، لما كان السلطان يخرج إلى سياحة مطلقاً. ربما على أقصى تقدير ستكون الرحلة تفقُّد اضطرابٍ ما في الدولة. تُرى هـل ظهرت مُقْلقـات جديدة في ذلك؟ لأنه خرج في جولة قطاع الروملي، المنطقـة «البلقانيـة» من الدولة.

وقبل أن أصل إلى حُكم في هذا الموضوع، إذا بيوم الرحلة قد جاء. . المدينة والميناء في زينتهما، وقصرنا أيضاً مزيَّن. . أخبـروني ذات صباح بـأن الأسطول الذي يقـل جلالـة أخي قد دخـل الميناء . بـدأتُ أتفرج بـالمنظار. رجاني ضباط حرس القصر أن أعطيهم إذناً بالصعود إلى الشرفة لكي يستطيعوا رؤية الأسطول، وافقت بكل سرور. وبـدأنا كلنا نتفرَّج. حقيقـةً كان احتفـالاً جميلاً، الأسطول يحيِّـي المدينة بطلقات المدافـع وترد عليه المدينة بطلقـات المدافـع، وأخيراً رسا الأسطول على بُعد بسيط من المدينة.

عـاد الضبـاط إلى عملهم، كنت مـا زلتُ في الشـرفـة مـع ابني الأميـر عابد، لا أستطيـع معرفـة كم مضى من الوقت، سـألني نوري آغـا قائـلاً: إن جلالة السلطان أراد قبل أن يصل إلى المدينة إبلاغي بتحياته الشاهانية مع الأمين العام خالد ضيا بك الذي جاء من طرف السلطان محمد رشاد يسـألني عما إذا كنت أودّ مقابلته [أي مقابلة الأمين العام] وأنه ينتظر أوامـر من هادي بـاشا في قسم الحرس.

أَيُرفضُ رسول سلطان؟ واندفعت قائلاً لنوري آغا: «أهذا كلام؟» أَحْنى المسكين رقبتـه واكتفى بقولـه: «كما تـأمرون». شعـرت بمنِّ الله العظيم عليَّ

لرقّة تصرُّف فخامة صاحب الجلالة أخي. وقلتُ: فليتفضل! خرج نوري آغا، سرتُ أنا أيضاً خلفه حتى بداية السلَّم المرمري الكائن أمام الباب الخارجي، لأن القادم ولو أنه الأمين العام للقصر، إلاَّ أن مُرْسِله كان سلطان الدولة العليَّة [العثمانية]، وبالتالي فَكَأَنَّ السلطان بنفسه يُشَرِّف بالحضور.

خرجوا من دائرة رئاسة الحرس، في المقدمة خالد ضيا بك وخَلْفه هادي باشا وراسم بك قائد الحرس. دُهش الثلاثة عندما وجدوني أنتظر على أول السلَّم، وكانت دهشتهم واضحة.

حيّاني الأمين العام رسمياً. وفوراً على حسب أصول القصر قدَّم الباشا وقائد الحرس، قدَّما لي التحية العسكرية. أخذتهم إلى الداخل. أَجلستُ الأمين العام على الجانب الأيمن مني، وأشرتُ للآخرين بالجلوس. بدأ الأمين العام خالد ضيا بك حديثه بإبلاغي سلام جلالة أخي، وبعد أن قال لي: إن الذات الشاهانية السلطان يسأل عن أحوالي. وإن جلالته اختار هذه السياحة بسبب دفع الشقاق الذي حدث بين رعيَّته الألبان. وكذلك لرؤية أهالي الروملي [البلقان] عن قرب. وأضاف إلى حديثه رغبة جلالته في أخذ رأيي في هذا.

شكرتُ بصورة خاصة هذه الالتفاتات الكريمة، وهذا السلام، وتلك التحيات المحمولة من قِبل الذات الشاهانية [السلطان]. ورجوته عرضَ شكري الجزيل المخلص واحتراماتي الفائقة لذات حضرة السلطان.

بعد ذلك، وبعد شرح موجَز لأحوال الروملي [البلقان] السياسية، ربطتُ حديثي بأني مقتنع لآخر درجة بفائدة هذه السياحة في هذه الأيام، وبدعائي بالتوفيق والنجاح فيها. قال لي الأمين العام: إن حضرة جلالة السلطان يريد أن يعرف عما إذا كان لي أيّ طلب من أي نوع كان. من الطبيعي أن تكون هناك أشياء كثيرة تقال. ولكن لأني لم أجد أن من المناسب الإفادة =

= من فرصة كهذه لم أجد في تعداد هذا أمراً سليماً ، وأكَّدت على شكري الجزيل. وقلت بإيجاد مكان مناسب في إستانبول لابني الأمير عابد لكي يستطيع بدء دراسته، ولم يفُتني أن أذكر في هذا الصدد قصر «ماصلاق».

ألم يقل خالد ضيا بك ــ الذي ترك فيَّ انطباعاً حسناً لأقصى درجة ــ إن قصر «ماصلاق» خالٍ، وإن من الممكن تخصيصه؟ تُرَى أكان يريد أن يُفهمني بأن رأيه هو أعلى نسبياً من رأي حضرة صاحب الجلالة أخي؟ ولو أني سلطان مخلوع، ولو أن حضرة صاحب الجلالة أخي لم يعد له كلمة مسموعة إلى هذا الحد، إلَّا أني لا أستطيع قبول الأمين العام للقصر، كأحد أفراد آل عثمان.

أنا لم أطلب شيئاً من الأمين العام للقصر، ولست أنا بالذي يقبل إحساناً منه. ولهذا السبب قلت له باختصار: إذا سمحتم بعرض الأمر على الحضرة الشاهانية [السلطان]! احمرَّ وجه خالد ضيا بك، فَهِمَ غالباً ما أريد قوله.. وكان كل من هادي باشا وراسم بك في أقصى درجات الراحة.

وبعد أن انتهيتُ من الحديث عن حقيبة بها بعض قطع مجوهرات وأسهم خاصة بعابد [ابني]، شيَّعتهم حتى الباب. لم أُعانِ صعوبة تُذكر في فهم العواقب الوخيمة التي تنتظرها بلادي، سواء أكان ذلك عن طريق الصحف القليلة التي أعطوها لي، أم من المعلومات المتناثرة والضئيلة التي عرفتها من كل من راسم بك وتحسين باشا والأمين العام خالد ضيا بك، ولم يعد لديَّ شيء غير الدعاء. فاكتفيت به.

قصر بَيْلَرْبَيْ

في ١٠ نيسان ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

نكبة الدولة في حرب البلقان

لم يكن حالي طيباً بالأمس، فقد حلَّ التعب بظهري، وحال بيني وبين التقاط أنفاسي. إني الآن في السادسة والسبعين من عمري. خطر ببالي تساؤل هو «أحان الأجل يا تُرى؟!». لو لم يكن قد حان، فلم يعد هناك شيء فيه يذكر. لكني أشعر اليوم بأن صحتي جيدة. لديَّ عدة كلمات لم أَقُلْها بعد وعليَّ تسجيلها.

لم أستطِع أن أعلم بفاجعة حرب البلقان إلَّا في الأيام التي قاربت فيها هذه الحرب على الانتهاء. قرأت بعض الصحف في أيام قدوم حضرة صاحب الجلالة السلطان رشاد إلى سلانيك. وتحدَّثت مع بعض الباشوات من الجيش فوجدت أن الموقف سيِّىء. لا أعرف ماذا حدث، وماذا انتهى إليه الأمر. لكني لاحظت في فترة من الفترات، كثرة الجنود في سلانبك. بل وصل الأمر إلى أنَّ الخيام ضُرِبَتْ بجانب القصر الذي كنا نسكنه. سألتُ ضابطاً من الحرس كما سألتُ عاصم بك أيضاً عما يحدث. قال الجميع: إن هذه «مناورات عسكرية»، لكن ما رأيته لم يكن يشبه المناورات العسكرية في أيِّ شكل من أشكاله. فهمتُ أنهم يُخْفُون عني شيئاً، لكني لم أستطِع أن أستوضح شيئاً عن المعركة وعن المشتركين فيها، ولا سيَّما أني لو كنت سمعت أن أربع دول بلقانية اتَّحدَت فيما بينها وستهاجمنا، ما كنت أصدق. ذلك لأن العداء بين هذه الدول أكثر من عدائهم مجتمعين لنا.

اتِّحاد الكنائس ضدَّنا

وذات يوم تحوَّل الميدان الواقع أمام القصر إلى ثكنة عسكرية. ازداد عدد الحراس. نَبَّهوا على أولادي بألَّا يفتحوا شيش النوافذ، كما نبَّهوا عليَّ

أنـا أيضاً بـألاّ أخرج إلى الشـرفة. ولأني لا أملك من أمـر نفسي شيئـاً، كنت أسجـد للرحمن ليلاً ونهـاراً؛ لأدعوه. كنت نـائماً في إحـدى الليالي فسمعت نقرات سريعـة متواصلة على البـاب. استيقظتُ سمعتُ صـوت وكيل الخـازن الثاني يأتي خلف الباب ليقول إن راسم بك قائد الحرس يطلب مقابلتي فوراً.

سبحان الله! ماذا يمكن أن يقوله لي راسم بـك في مثل هـذه الساعـةمن الليـل؟ سرعـان ما نهضتُ وغيَّـرتُ ملابسي. تـوجَّهت إلى الغرفـة المجاورة، واستقبلتُ راسم بـك وكـان حـزينـاً مضـطربـاً، قلت لـه: «خيـراً إنْ شـاء الله يا راسم بك! ماذا عندك؟!»

تحدَّث راسم بك والحزن يلفُّه، وقال:

«أرجوكم العفو يا مولاي لأني أزعجتُ جلالتكم. إلاَّ أنه من الضـروري أن أقول: إننا في حالة حرب مـع أربـع دول».

قـلت لـه:

«أربـع دول؟! مـا هي هذه الـدول يـا راسم بـك؟ اللهم انصـر الجيش السلطاني فوراً؟ اللهم امنحه القوة. النصر لنا إن شاء الله».

أحنى راسم بك رأسه، كان يتحدث ويكاد يبكي. قال:

«إنهم يـا جـلالـة السلطان: اليـونـان، وبلغـاريـا، والجبـل الأسـود، والصرب. ونَحْنُ ــ بكل أسف ــ على وشك الهزيمة».

ينبغي إيجاد كلمة أشقّ من الكمد للتعبير عن شعـوري وقتها. أصـابتني الحسـرة. قلت له: «أربـع دول تتّحـد فيما بينهـا ونجهل هـذا يـا راسم بـك! يا لها من غفلة! هذه الدول لا تستطيـع الاتحاد فيمـا بينها. إن نـزاعاً كنـائسياً قائم بينها. ألا تذكر صراع مقدونيا الذي استمر سنوات طوالاً؟!

كنتُ فرّقت بين الكنائس
فوحّدها الاتّحاديون من بعدي

قال: «كان مجلسا «المبعوثان» والأعيان قد أصدرا قـانونـاً يسمّى قانـون الكنائس، وبه انتهى الخلاف القائم بين هـذه الدول الأربـع. من كـان يدري أن هذه المصائب ستحلّ بنا؟!»

خطر على بالي أن أصيح قائلاً: «أنـا»، لكني بلعت هذه الكلمـة على مضض وكـأنها لقمـة مرّة. تـوقف ذهني. حـلّ بـي الغشى. تكلم راسم بـك واستمعتُ إليـه. وتحـدّثت أنـا واستمـع هـو إليّ واستمـر هـذا الحـال حتى الصباح، وأخيراً قال لي:

«إن سلانيك على وشك السقوط. إنْ لم يكن اليـوم فغداً. وسينقلونكم إلى إستانبول، ولقد تلقّيْت أمراً بأنْ أبلغكم فوراً بهذا النبأ».

وسريعاً وقفت على قدميّ تتملّكني حدةً لم أعـرفها في حيـاتي كلّها إثر سماعي هذا الكلام، وأخذتُ أصيـح قائلاً:

«يا راسم بك! سلانيك معناها باب إستانبـول! أين جيشنا؟ بـل أين هـم عسـاكرنـا؟! كيف نترك سـلانيك ونـذهب؟! لو تـركنـاهـا وذهبنـا، ألن يبصق التاريخ وأجدادُنا على وجوهنا؟ هل وافق حضرة السلطان [محمد رشاد] أخي على إخلاء (سلانيك). لا!! أنا غيـر راضٍ عن هذا. لا أوافق. لا تهتم بـأني في السبعينـات من عمري. أعـطني بندقيـة سأدافـع عن سـلانيـك حتى آخـر نَفَس فِيَّ، مـع أولادي الجنود.

تولّتني حالة انفعاليـة صعبة. تنـاول راسم بك قنينَـةَ ماء الـورد من فوق المنضدة. ورشّ ماء الـورد على وجهي ودَعَك يـديَّ فتماسكتُ. قلت لـراسم بك:

لن أخرج
من هنا إلَّا جثَّة هامدة

تفضَّل! اذهب لقائدكم وقل له: إنني لن أخرج من هنا إلَّا جثة هامدة!

ذهب راسم بـك. ولم أكن أدري أن الأهـل والأولاد يستمعـون إلـى حديثنا. فأسرعوا [بعد ذهاب راسم بك] كلهم في دفعة واحدة، بالدخول إلى الغرفة، مَلَؤوهـا وهم يبكون. كـانوا يحـاولون تهـدئتي وأنا أحـاول تهدئتهم. لم أعد [من الحزن] في حاجة إلى النـوم ولـم أستطِـع النـوم. وأخذت أشـاهد شروق الشمس ذلك الصبـاح ودموع عينيَّ تنسال وتفيض.

لم يهزمنا غير تدخُّل
الجيـش في السياسـة

جـاءني عند إشـراق الشـمس كل من علي رضـا باشـا وهـادي بـاشـا. استجمعتُ نفسي، واستقبلتُ الباشَوَيْن، إنهما يريان ضرورة مغادرة سلانيك. وكانا يـريدان أن نبـدأ في الاستعداد لهـذا في أسرع وقت. سـألتهم عن تطوُّر سير الحرب. شرحا أشياء وأخفيا أشياء كثيرة. لكن مهما أخفيا فـإنَّ الواضـح تماماً أنَّ الذي هزمنا ليس الدول الأربـع، وإنما تدخل الجيش في السياسة.

سألتهما: «هل ستخلون سلانيك؟»

أجابا بقولهما: «تجاه كل احتمال».

صحتُ بوجهيهما قائلاً:

أيّ احتمـال هذا الـذي بقي بعـد كـل هـذا. اللهمَّ اقهـر هؤلاء الـذين وضعـوا دولتي في هذا المـوقف! أبلغوا الـذات الشاهـانيـة [السلطان محمـد رشاد] بأنني لن أستـطيـع مغادرة سـلانيك، إن من حقي وأنـا واحد من أفـراد العائلة العثمانية أن أحاربَ العدو وأجود بآخر أنفاسي هنا، إذا كان هذا مقـدَّراً

علي. ولا يستطِع أحد أن يستلب هذا الحق مني[1].

خرج الباشوان من عندي واليأس يلفّهما. جمعتُ الأهل والأولاد، وكان الجميع يبكي. قلت: «استمعوا إليَّ! إن دولتنا تغرق. وسقوط سلانيك يعني سقوط إستانبول. وهذا يعني ضياع الدولة العثمانية. أودُّ أن يرضى كل منكم بقَدَرِه. لو كان بينكم مَنْ يريد المغادرة، فليصرِّح بهذا وأُخرجه. لكني سأبقى هنا!».

قالوا والبكاء ينتابهم:

«إننا أيضاً سنبقى هنا يا والدنا»!

قلت لنوري آغا:

«اكتب قائمة بأسماء الذين يريدون المغادرة، وهاتها، وسأعمل على إبعادهم».

قلتُ هذا وخرجتُ، ورأيتُ أنني مصمِّم على عدم استقبال أحد في غرفتي. ليذهب من يريد الذهاب. وليبق من يريد البقاء. وعلى هذا كنتُ أنتظر التقدير الإلٰهي.

مغادرتي المنفى الأول إلى الثاني

أمضيتُ هذه الليلة أيضاً دون نوم. أمضيتُها في العبادة. أخذت ــ بعد صلاة الصبح ــ في التفرُّج على الميناء بالمنظار المكبِّر. لمحتُ سفينة، وعندما نظرت بإمعان دقيقٍ فيها، لم أتأخر في فهم أن هذه السفينة هي سفينة

(١) عندما وجدنا أن القوات اليونانية تتقدَّم لاحتلال سلانيك قمنا بمحاولتين لنقل السلطان عبد الحميد إلى إستانبول لكنه في المرتين أصرَّ على البقاء حيث هو وقال: «فلأحمل سلاحاً في يدي وأقف في مقدمة الجنود لأحارب وأستشهد».
طلعت باشا، مذكرات، ج ٣ ص ٧٥٨.

السفارة الألمانية. جاء نوري آغا في هذه اللحظة إلى جانبي. وكان بدوره سيخبرني بوصول سفينة إلى الميناء. واتضح أنه أيضاً يعرف أنها جاءت لكي تُقِلَّنا! بدأتُ في البكاء، وتبعني في هذا الأولاد والأتباع، الضباط في القصر أخافوا الأتباع والمعيَّة، وضيَّقوا عليهم كثيراً. الكل يريد مني أن أوافق على المغادرة [وترك سلانيك] لكنهم لا يفصحون عن ذلك(١).

وعندما قلت لنوري آغا: «إياك وأن تكون هذه السفينة قد جاءت تُقِلُّنا؟!».

قال: «الخير يفعله الله يا مولاي! إن بكاء الأولاد في القصر [بعيداً عنكم] مردُّه أنهم لا يريدون إزعاجكم. إن قلبي ينفطر لهذا البكاء. لكن ما دمتم جلالتكم قد استفسرتم، فلأقل لكم [بصراحة]: «إن هذه السفينة قد أتت لنقل ذاتكم الشاهانية وأهلكم وأولادكم مع أتباعكم إلى إستانبول. وبالطبع فإن القرار الذي فيه الخير إنما هو القرار الذي يصدر عنكم».

رست السفينة في الميناء. وبعد قليل بدأت عربة من نوع اللاندون في الصعود من المنحدر الأرضي. وعندما وصلَت إلى الباب الخارجي. رأيتُ من بين الذين خرجوا منه كل من: الداماد شريف باشا وعارف حكمت باشا زوج الأميرة نائلة، وهما ينزلان من العربة. أيمكن للسرور أن يدخل قلبي

---

(١) تتفق رواية طلعت باشا ـ أيضاً ـ مع ما أورده السلطان عبد الحميد، يقول طلعت باشا:

«قبل سقوط سلانيك في يد اليونانيين بستٍ وخمسين يوماً وبالضبط في أول تشرين الثاني [نوفمبر] عام ١٩١٢م وصلتْ البارجة الحربية الخاصة بالسفارة الألمانية واسمها (لورلي)، وأخذت السلطان ومن معه إلى إستانبول حيث تركتهم في قصر بَيْلَرْبَي».

مذكرات طلعت باشا، ج ٣ ص ٨٤٦.

في يوم نكد عظيم كهذا اليوم؟ وبعد السلام الرسمي، تعانقتُ مع كل من عارف حكمت باشا وشريف باشا. سألتهما عن الأولاد والأحداث. كانا هما أيضاً بنفس القدر من النكد. لكنهما قدما من طرف حضرة أخي [السلطان محمد رشاد] ويحملان الرجاء من ذاته الشاهانية ليبلغاني به[1].

مهما كان قراري حاسماً ونهائياً، فإنه لا يمكن أن يعلو على إرادة السلطان وهو أحد أبناء آل عثمان. أحنيتُ رقبتي [إذعاناً]. علمتُ من صهري أن كل الطرق المؤدية إلى إستانبول قد سقطت [في أيدي الأعداء] ولا نستطيع دخول إستانبول إلّا عن طريق هذه السفينة فقط.

قلت لكل مَنْ معي في القصر أن يستعدّوا. كنت أتحدث مع الباشَوَيْن بينما انهمكت سيدات القصر ومعاوِناتُهنَّ في ترتيبات السفر سريعاً. وفي هذه الأثناء جاءنا قائد الحرس راسم بك، كان حزيناً قلت له:

«وأنت يا راسم بك أيضاً، أتأتي معنا؟»

وافق على هذا بامتنان. كان راسم بك يرجوني أن أوافق على مجيء صديقٍ له يُدعى واصف بك معنا. وفي أثناء رجائه لي في هذا، إذا بيوزباشي ضخم الجسم [هو صالح بوزوق، ياور مصطفى كمال باشا فيما بعد] يجري نحو راسم بك، ويقول له:

«أرجوك يا راسم بك أن تقول لسلطاننا أنْ يأخذني جلالته مع الذاهبين».

---

(١) يبدو أن سطراً ساقطاً من طبعة كروان معناه ــ من سياق ما قبله وما بعده ــ أنهما عرضا على السلطان عبد الحميد رغبة السلطان محمد رشاد ــ وهو المتسلطن وقتها ــ بأن ينتقل السلطان عبد الحميد مع حاشيته إلى العاصمة إستانبول. [توضيح م. ح.].

قلت لراسم بك:

«خذ هذا اليوزباشي أيضاً يا راسم بك. لكن مع الأسف لن تستطيع أن تأخذ الإخوة الباقين، ذلك لأن السفينة محدودة. وإن كنت أودُّ أن أصحبكم جميعاً معي».

اصطف الضباط والجنود بالقصر في صفَّيْن متقابلين لتوديعنا ونحن نغادر القصر. أوفوا بالتحية الرسمية قلت لهم:

«إن شاء الله أراكم في إستانبول وأنتم في كامل الصحة والعافية. أستودعكم الله».

كان والي سلانيك والباشوات القُوّاد قد وصلوا أيضاً لوداعنا. قلت فيهم كلمة مناسبة ووصلنا إلى السفينة بالعربات.

كانت قمرة السفينة قد أُعِدَّت لي. وفي لحظة جاءني قائد السفينة بمفرده وأبلغني تحية الإمبراطور [الألماني] الخاصة. وقال لي بعد ذلك:

«إن السفينة تحت أمركم المباشر يا صاحب الجلالة!! لقد تلقيتُ أمراً شخصياً من الإمبراطور [الألماني] بأن تبحر السفينة إلى أيِّ مكان تأمرون جلالتكم بالتوجه إليه!».

ليس لنا بعد الله إلاَّ دولتنا

إلى أيِّ مكان يستطيع أحد أفراد آل عثمان أن يذهب إليه تحت راية غير رايته (العثمانية)!! شكرت قائد السفينة وقلت له: أنْ يبحر بنا إلى إستانبول. صادفنا ونحن في بحر مرمرة هياج بحري شديد. أصاب دوار البحر أفرادَ عائلتي باستثنائي أنا، ناولتهم واحداً واحداً الدواء الذي أعطانيه طبيب السفينة، سكن البحر، ورست السفينة بإذن الله أمام قصر بَيْلَرْبَيْ في

إستانبول. تركنا شريف باشا لكي يعرض على الذات الشاهانية [السلطان محمد رشاد] بعض المعروضات. ورافقنا صهري عارف باشا حتى قصر بَيْلَرْبَى.

كل ما يحزنني النكبة التي حلَّت ببلادي

لم تكن الإقامة في قصر بَيْلَرْبَىْ مناسبة، فقد كان القصر رطباً والرطوبة تؤدي إلى الإصابة بالروماتيزم. قلت هذا لعارف حكمت باشا لكني تعوَّدت تماماً على القصر فيما بعد ولستُ أشكو من شيء، وإن انتاب ظهري من حين إلى حين بعض الوجع. إن كل ما يحزنني هو النكبة التي حلَّت ببلادي.

إن الفرق بين هذا القصر [بَيْلَرْبَى] وبين قصر [آلاتيني] يتمثَّل في أنني أنام في قصر بَيْلَرْبَى في الغرفة التي عاشت وماتت أمي الطيبة القلب فيها. وهنا أيضاً نقرأ الصحف، وتُنفَّذ بعض رغباتنا الصغيرة. وأستطيع أن أتلقَّى أخبار أولادي بواسطة راسم بك، ولا يستطيع تقدير هذه النعمة إلَّا الذين حُرموا منها. اللهم لا تحرم أحداً من معرفة أحوال أولاده وأخبارهم. آمين!!

قصر بَيْلَرْبَى
في ١١ نيسان ١٣٣٣ [رومية] (١٩١٧م)

أعضاء مجلس الثورة يُصَفِّي بعضهم بعضاً

قتلوا محمود شوكت باشا بالرصاص في وضح النهار لكي يتخلَّصوا من شهرة بطل جيش الحركة. وكذلك ليفتحوا الطريق أمام أنور بك [الذي أصبح باشا فيما بعد] إلى منصب وزير الحربية. كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد. فمن ناحية يتخلَّصون من ظل قائد مشهور يقف أمامهم سدّاً، ومن ناحية أخرى يتصرَّفون كأنهم مؤيدون له ويسرعون في لمح البصر بالتخلُّص من معارضيهم بجرة قلم.. فكما أنهم حرَّضوا فِرَق

القنّاصة وأتَوْا بجيش الحركة حتى أبواب إستانبول ليسقطوني، قاموا هذه المرَّة وبحجة الانتقام لمحمود شوكت باشا وإعادة الهدوء، بأعمال الشنق والنفي وتحديد الإقامة في كل معارضيهم.

ولكن في هذه الأثناء ظهر رجل ثالث بجانب مِحْوَر طلعت وأنور وهو جمال باشا. نظارة الحربية لا تُرضي طموح جمال باشا. إن هوسه بأن يصبح نموذجاً ثانياً للسلطان سليم الأول، دفعه إلى القيام بمغامرة لاقتحام القناة [قناة السويس]، وذلك عند دخول الحرب العالمية الأولى، وهي مغامرة أفسحت الطريق لسقوطه. طلعت وأنور، اليوم صديقان حميمان. وفي نفس الوقت يحفر كل منهما حفرة الشر للآخر ويحاول قذفه إليها للتخلُّص منه. اللهم فأحسن عاقبتنا.

لم أستطع النوم حتى الصباح في الليلة التي تسرَّبَتْ سفينتان حربيتان ألمانيتان [هما البارجتان غوبن وبرسلاف] إلى البحر الأسود، كان واضحاً ما ستجلبه مثل هذه المغامرة على بلادي. في غضون القرن الأخير جلبنا علينا عداءَ كلٍّ من روسيا التي فقدنا أمامها كلَّ الحروب التي خضناها ضدها، وكذلك عداء كل من إنجلترا وفرنسا صاحبتَيْ السيادة على البحار، زيادةً على ذلك فقد كانت الدولة في حالة من شأنها فتح يدها للغير. كانت الدولة تدفع مرتَّبات موظفيها الشهرية من الديون التي حصلت عليها مقابل تنازلها عن امتيازات في الديون العمومية واحتكار الدخان. أيؤمل خير من صباح ليلة كهذه؟!(١).

---

(١) أصبحت خسائر الدولة فظيعة بدرجة لا يمكن تصديقها. فقد اقتطف [أعداؤنا] البلغار من أراضينا الكثير. زادت الأراضي التي استولَوْا عليها منا عشرين في المائة لما كانت عليه أراضيهم قبل حرب البلقان. كما ضمَّ الصرب والجبل الأسود إلى أراضيهم ثمانين في المائة، ووسَّع اليونان أراضيهم ــ على حسابنا ــ بنسبة مائة في المائة. =

كنتُ حصَّنتُ المضايق
تحسُّباً ليومٍ أسود

ثم حدث ما حدث، دخلنا الحرب واعتدى الأسطولان الإنجليزي والفرنسي على مضيق چناق قلعة. وكنت قبل ذلك قد بذلت كل جهدي لتحصين وتقوية كل من مضيق إستانبول [البوسفور] ومضيق چناق قلعة [الدردنيل]. وكثيرا ما تدارستُ هذه المسألة مع كبار القادة في عهدي. ونظراً لأننا لم نكن نستطيع مقاومة الأعداء بالأسطول، فإن المناقشات طالت في شأن ما يمكننا أن نفعله بكل من تحصين المضيق وباستخدام الجيش البرّي.

قيل لي في ذلك الوقت: إننا كنا نستطيع بالمدافع الطويلة المدى منع الأسطول من الاقتراب من المضايق. وفي حالة ما إذا استحال هذا فإننا كنا سنعمل على منعه من الإنزال البرّي. ولكن الوضع يمكن أن يكون وخيماً إذا حدث إنزال برّي في حماية أسطول قويّ، وخاصةً إذا تمكّن العدو من اكتساب موقع على الساحل.

طلعت باشا يستشيرني وهو عدوّي بالأمس

بدأت الحرب. وصل أسطول أقوى دولتين بحريّتين في العالم أمام چناق قلعة [الدردنيل] وبدأ الإنزال البرّي بيسر وسهولة، إذن فقد أصبحت المسألة وخيمة العاقبة كما أراها. إنني في حالة كمد ويأس وفي هذه الأيام

= وأصبحت خزانة الدولة مفلسة تماماً. تعدّتْ احتياجات الجيش الضرورية-ميزانية الدولة كلها. ولم يكن أمامنا [نحن حكومة «الاتحاد والترقّي»] إلّا أن نلجأ لهمة الأمة وحميتها ــ كحلٍّ أخيرــ . وأرسلنا أعضاء جمعيات «مساعدة الأسطول» و «الدفاع عن الوطن» إلى أبعد أماكن في البلاد لجمع التبرعات.

مذكرات طلعت باشا، إعداد جمال قوطاي، ج ٣ ص ٨٢٥.

أخبروني بأن طلعت باشا سيزورني(1) لإبلاغي بإرادة [أمر] من الذات الشاهانية [السلطان]. جاء وكانت هذه أول مرة أراه فيها. لم يدَّخر وسعاً في تقديم واجبات الاحترام. كانت به سمنة ووجهه هاشٌ يُعطي الثقة فيه. لاحظتُ سريعاً أنَّ تحت هذا المظهر الليِّن ترقد روح صلبة. كانت بسمَتُه الهاشة المريحة لا تفارقه طوال الحديث، كما كان يتحدث بصوت خفيض. أبلغني سلام حضرة صاحب الجلالة أخي، ثم شرح لي أننا في حالة حرب وأن حرباً دموية تجري في چناق قلعة [الدردنيل] وإذا ظهرت نتيجة سلبية لهذه الحرب فإن من المحتمل نقل العاصمة، وربما يمكن أن تنقل إلى قونية. ولهذا السبب أيضاً يحتمل أن أضطر [أنا ومن في معيَّتي] إلى الإقامة في قصر خونكار في مدينة بورصة. وعلى هذا فإنه يبلغني ما تفضل به جلالة السلطان من ضرورة استعدادي لهذا الأمر.

---

(1) يؤكد طلعت باشا هذا الكلام بقوله:

(قبل سقوط سلانيك بـ ٥٦ يوماً جيء بالسلطان عبد الحميد من قصر آلاتيني في سلانيك إلى قصر بَيْلَرْبَى في إستانبول. كنتُ بين الحين والحين أفكر في زيارته. كنت أريد ذلك. لكني أعترف أنني لم أكن أجسر على تنفيذ رغبتي هذه.

ثم علمتُ من صديقي محمد شريف باشا جاودار أوغلو ــ وهو واحد من اثنين متزوِّجَيْن بابنتَي السلطان عبد الحميد كنّا أرسلناهما إليه لإقناعه بترك سلانيك والحضور إلى إستانبول ــ علمتُ من هذا الباشا أن السلطان عبد الحميد أرسل إلى السلطان محمد رشاد خبراً يقول له في: «إن لي تجاربي في إدارة الدولة، فإذا تواضعوا! وسألوني [واستشاروني] فإني سأشير عليهم».

ولم أستطِع مقابلته إلَّا بعد أن جاءتني موافقته وكنت صدراً أعظم وقبل وفاته بأربعة أشهر.

مذكرات طلعت باشا، ج ٢ ص ٨٤٨.

وكانت هذه الزيارة في ٢٧ سبتمبر عام ١٩١٧م، نفس المصدر السابق، ص ٩٩٢.

طلعت باشا

يعرض عليَّ مغادرة إستانبول!!

احتددت أكبر احتداد في حياتي لم يحدث لي مثله من قبل، معنى هذا أن العاصمة ستسقط، وحضرة صاحب الجلالة أخي سيذهب إلى قونية وأنا إلى بورصة من أجل إنقاذ حياتنا فقط وكأن هذا كل ما يهمنا.

حارب قسطنطين إمبراطور بيزنطة وقت فتح إستانبول وفي يده السيف دفاعاً عن إستانبول. حارب بين أبراجها وقدَّم روحه محارباً في سبيلها. ونحن!!! سنغادرها بالسفن والقطارات.

هكذا يقترح عليَّ طلعت باشا الذي يجلس أمامي مبتسماً.

قلت له:

ـ لا، فلست أقل من قسطنطيين الإمبراطور البيزنطي. إنني أعرض طاعتي الكاملة لحضرة صاحب الجلالة أخي. وإني خرجت من سلانيك بناءً على إرادته [أمره] الشاهانية. لكني لن أخرج من إستانبول، إني أسترحمه باسم شرف أجدادنا ألَّا يخرج هو أيضاً من إستانبول!! كانت علامات الدهشة تبدو في وجه طلعت باشا. وغالباً ما تغيَّر وجهي بفعل حماس طاغ، اضطرب [طلعت باشا] فجأة، ثم قال:

إنما عرضتُ على ذاتكم السلطانية مجرد احتمال، ثم أشار إلى قنينة ماء الورد الموجودة على المنضدة، وقال:

ـ أيمكن أن أنثر قليلاً منه، فقد امتقع لونكم؟

استجمعتُ نفسي. وبعد أن دعكت يديَّ ببعض قطرات من ماء الورد قلت: هأنذا أرفض باسمي الشخصي ذلك الاحتمال، فلا أستطيع مواجهة أجدادي خجلاً.

قال طلعت باشا لكي يهدِّىء روعي[1]:

ـ إن هـذا حساب لشيء محـال، إن هذا مجـرد احتياط. أخبـارٌ طيبة أتت من الجبهة. وإن شاء الله سنُلقي بالعدو في البحر. وتحدث طلعت بـاشا في هذا طويلاً. كما قال لي: إن حليفتَيْنا ألمـانيا والنمسـا متقدمتـان على كل الجبهات،وإن جيشنا أيضاً قاوم الروس بنجاح. وبعد أن قال هـذا، خرج من عندي[2].

---

(١) في مـذكراتـه التي نشرهـا المؤرخ جمال قـوطاي في إستـانبـول عـام ١٩٨٣م يقـول طلعت باشا مؤيِّداً بذلك ما جاء في هذه الفقرات من مذكرات السلطان عبد الحميد، ما يلي:

(عندما سمـع السلطان عبد الحميد أننا نريـد مغادرة إستـانبول، أصـابته حـالة أشبـه بالجنون، وقال: «قولوا لأخي السلطان [محمد رشاد] إنه إذا خرج من إستانبـول فإن هـذه المدينـة الفريـدة ستضيـع. وكما أن الإمبـراطـور البيـزنـطي قسـطنـطين مـات وهو يحارب على رأس جيشه [دفاعـاً عن إستانبـول القسطنـطينية] فعلينـا نحن أحفاد المغفور له السلطان محمد الفاتـح [فاتـح القسطنـطينية = إستـانبول] أن نُبـدي نفس الصلابة والثبات وحب القسطنطينية).

طلعت باشا، مذكرات، ج ٣ ص ٩٨٠.

(٢) يُلقي فتحي أوقيـار ـ صـديق طلعت بـاشـا وزميله في جمعيـة «الاتحـاد والتـرقِّي» ـ أضواء هامة على هذه الزيارة التي قام بها طلعت باشا للسلطان عبد الحميد بقوله:

«قلت لطلعت باشا: إني مقتنـع بأن السلطان عبد الحميد سيجيبـك على كل الأسئلة التي تودّ أن تستوضحها منه دونما حاجة لأن تخفي عنه شيئاً.. وإني أذكر كيف نـظر إليَّ طلعت باشا طويلاً، وفي نـظرته هـذه رأيت خجلاً يكـاد يفصـح عن نفسه وكـأنه يقول: «بأيِّ وجـهٍ أذهب إليه؟! أأقـول له: انـظر ماذا ألمَّ بنـا بعد أن أسقـطناك من على عرشك؟!».

فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٢١٠.

وعن الدافـع لزيارة طلعت باشا للسلطان يقول نفس المصدر:

«في بـداية عـام ١٩١٧م، توقف التقـدُّم الألماني ضـد الحلفـاء، وكـانت الحـروب

. . . .

= مشتعلة على كل الجبهات. وكان جنودنا العثمانيون يحاربـون في تسـع جبهات وهم في حالة يُرثى لها من قلّة الزاد والعتاد. في الوقت الذي كان فيه حلفـاؤنا لا يقـدِّمون لنـا ما وَعَـدونا بـه، كنا نحـارب في صفٍّ واحد ويـداً بيد مـع كل من الألمـان والنمسا والبلغار. بجانب هـذا كان الأميـر صباح الـدين يقيم في سويسـرا وهو مكـان محايـد ــ يحاول القيام بعمل صلـح منفرد مـع جبهـة دول الائتلافـ [الحلفـاء] المكوَّنـة من إنجلترا وفرنسا وروسيا». وكنا نتلقّى منه الأخبار في هذا الصدد.

أمام كل هذا أحسَّ طلعت باشـا بالحـاجة إلى معـرفة رأي السلطان عبـد الحميد في المـوضوعـات الرئيسيـة التي من شأنهـا التأثيـر على مستقبـل البـلاد. عنـدئـذٍ أخـذ طلعت باشا كلًّا من علي فؤاد بك مستشار الصدارة العظمى وأرجمند أكرم بك معاون المدير العام للمطبوعات والإعلام، وذهبوا معاً إلى قصر بَيْلَرْبَـى. وهناك ترك طلعت صاحبيه في قسم الحرس، وقابل هو السلطان السابق [عبد الحميد].

في بداية اللقـاء أوضـح طلعت باشـا للسلطان عبد الحميـد، الأحداث الأخيـرة، ثم طلب تـوصية السلطان بمـا يجب عمله. عند ذلـك نظر السلطان بـدقة وتفحَّص إلى وجـه زعيم «الاتحـاد والتـرقّي» دون أن تـرمش للسلطان عين، ثم قـال [السلطان] بسكون وهدوء:

«إن القضايا التي تحـدَّثتم فيها تعتبـر أموراً طبيعيـة لطريق منفـرد تمَّ السير فيـه. لقد تعقَّبتم ــ من بعدي ــ سياسـة مختلفة تمـاماً عن سيـاستي. جعلتـم مشكلة البوسنـة والهرسك تخرج من إطارها الذي رسمتُه أنا لها وهو أنها مشكلة نمساويـة ــ روسية، فجعلتمـوها مشكلة عثمـانية ــ روسيـة. وأخـرجتم مشكلة كـريت من كـونهـا مشكلة إنجليـزية ــ روسيـة، وجعلتموهـا مشكلة عثمانيـة ــ يونـانية. ووقعتم في خـطأ كبير عندما أزلتم بأنفسكم الخلاف بين الكنيستين اليـونانيـة والبلغاريـة، وبذلـك أوجدتم الفـرصة أمـام تحالف البلقـان، وجعلتم الباب مفتـوحاً لكي تقـوم كـل من الصـرب والجبل الأسود وإيطاليا بإثارة الألبان الذين حافظوا على علاقاتهم بـالدولـة العثمانيـة ببعض الامتيـازات الخاصـة. وجعلتم حق القـرار في مجلس «المبعـوثـان» مسـرحـاً لنتائـج خطيرة من شأنها تقديم الإمكانات الحيوية لاتحاد غير المسلمين. وبكل هذه الأخـطاء خرج محـور التوازن السيـاسي الذي تستنـد إليه الـدولـة عن مجـراه. ولـو =

عشت أسود أيام حياتي في هذه الفترة. حقيقة كانت الصحف تطالعنا بنبأ مؤدّاه أن تقدُّم العدوّ في چناق قلعة [الدردنيل] قد أُوقف وفقدت قواته خسائر فادحة. ولكني لم أكن أستطيع تصديق هذه الأخبار بشكل من الأشكال. إلاّ أنّ ضغط الأسطول الإنجليزي الفرنسي على مضيق چناق قلعة [الدردنيل] وعدم تمكُّنه من دخولها كان حقيقة. كنت أجتهد في الحصول على أخبار من الجبهة بكل وسيلة. وكنت أختلج من أجل الحصول على معلومات صحيحة مُرسلاً عاصم بك قائد الحرس إلى القصر باستمرار.

وفي أثناء ذلك، وصل خبر النصر الذي لم أكن حتى أجسر على توقُّعه. وهذا ما أحمد الله عليه. حمل العدو عصاه على كتفيه وانسحب من أمام چناق قلعة [الدردنيل] بعد أن خسر نصف جنوده في البحر والنصف الآخر على السفن. أحرز هذا النصر العظيم أمير آلاي اسمه مصطفى كمال بك، تقبَّل الله ما قدَّمه للدولة في هذا العمل. بعد ذلك بمدة طويلة وأثناء ما كان ابني الأمير عابد يتحدث معي قال لي: إنهما تعارفا هنا في قصر بيْلَرْبَيْ. تعجَّبتُ وقلت له: عمَّ كان يبحث هنا؟! فأجابني بقوله إنه صديق اليوزباشي صالح بك [صالح بوزوق، ياور مصطفى كمال باشا فيما بعد]

= لم تحدث حرب البلقان لما حدثت الحرب العالمية [الأولى]».

صمت طلعت ولم يُحِرْ جواباً. ثم قال السلطان [عبد الحميد]: «إن المنتصر في هذه الحرب هو الجانب الذي يملك القدرة البحرية الحربية. والمصادر الطبيعية لدى الألمان محدودة. وحدودنا طويلة ولذلك نجد مشقّات كثيرة في الدفاع عنها. ذلك لأننا نستورد السلاح واحتياجاته، وإننا الآن مجبرون على أن نتلقّى هذه النتائج التي ظهرت بالفعل ولا بدَّ من التسليم باضطرارنا لهذا. ثم ما معنى استشارتكم لي بعد أن تكدَّست النتائج التي أَسْفَرَت عنها الأحداث السابقة؟!».

فتحي أوقيار، المصدر السابق، ص ٢١٠ ــ ٢١٣.

وكان يأتي بين الحين والحين لـرؤية صـديقه. وبهـذه العلاقـة أصبـح صديقـاً للأمير عابد، حتى إن مصطفى كمال باشا أهداه غزالين صغيرين.

سُررت لهذا، إن إظهار أحد الباشوات الذين بيَّضوا وجه دولتي لمظاهـر المودَّة تجاه الأميـر عابـد كان يفسِّـر شخصيته. ذكـرت لابني بأن يقـابل هـذا بشيء مناسب. كنت سأُوصيه ــ لو كـان الحال على مـا يُرام ــ بسـاعة ذهبيـة ولكن خفت من الشائعات من ناحية وضيق ذاتِ اليد من ناحية أخرى.

ولذا لم أقل شيئاً. اكتفيت بقولي له:

ــ إذا جاء صديقك مرة أخرى فأخبرني لأراه.

وفي الحقيقة لقد جاء مرة أخـرى وأخبرني بـذلك، كـان يتشـح بوشـاح يتدلَّى على ظهره من كتفيه إلى أسفل وكان يودع صديقه. لم أستطـع تفحُّص وجهه جيداً من بعيد ولكنه لم يكن يشبه العسكريين العاديين.

كان به سكون خطير. فهمتُ في ذلك الوقت لماذا كان أنور باشا يتفاداه وكـان طلعت باشـا يسانـده. وهـذه أمـور صغيـرة! إنـه صـدَّ في چنـاق قلعـة [الـدردنيل] جيشَ وأسـطولَ دولتين مثل إنجلتـرا وفـرنسـا، وأرجعهمـا. هـذا هو المهم عندي وحمدت الله على نجاحه.

أنور باشا الثائر ضدي يأتي ليستشيرني

وبمناسبة الكلام فلأوضـح كيف كان لقائي بأنور باشا. كان الإمبراطـور الألماني وِلْهلم يزور إستانبول للمرة الثالثـة. ذكرت قبـل ذلك أنـه تربـطني به صداقة شخصية. أُقيمت في السراي مأدبة تكريماً لتشريفه. وأثناء هذه الزيارة وفي مقابلة له مـع حضرة صاحب الجلالة أخي [السلطان محمـد رشاد] سـأل الإمبراطور عني. وكان أنور باشا أثنـاء تلك المحادثـة موجـوداً إلى جانبهمـا، وعندما رجا الإمبراطـور من السلطان أن يبلغني بسلامـه الخاص كلَّف حضـرة

صاحب الجلالة أخي، كلَّف أنور باشا بإبلاغ سلام حضرة صاحب الإمبراطور وكذلك سلامه هو الخاص إليَّ. وكذلك كلَّفه بسؤالي إن كانت لي رغبة في شيء. وبهذه الطريقة جاءني أنور باشا في قصر يَيْلَرْبَيْ. أخبروني فاستقبلته واقفاً. فقد كان يمثل كلاًّ من الذات الشاهانية [السلطان محمد رشاد] وحضرة صاحب الجلالة الإمبراطور [وِلْهلم]. كان جنديّاً مؤدباً محترماً. خلع سيفه عند دخوله وكان يتصرف كأنه ماثل في حضرة حاكم. وكان ينظر أمامه أثناء حديثه. وكان وجهه يحمرُّ احمراراً خفيفاً. أشرت إليه بالجلوس فجلس بأدب، ولم يرفع رأسه مرة واحدة طوال الحديث.

وبعد أن أبلغني سلامَ حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور، أبلغني أيضاً سلامَ واستفسارَ حضرة صاحب الجلالة السلطان. وبدوري شكرتُ حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور لتذكُّره صداقتنا القديمة. ثم عبَّرت له عن شكري وامتناني لمساعداته التي لم يبخل بها عليَّ في وقتها. وكذلك عن سروري الذي أحسُّ به الآن من حسن تلطف حضرة صاحب الجلالة أخي. وعرضتُ شكري الجزيل وامتناني للسلام الذي تفضَّل وبعث به حضرة صاحب الجلالة أخي ولاستفساره عن أحوالي.

إنها لحقيقة محزنة أن تكون الدولة في يد عسكري غير متميِّز

وفي أثناء هذا الحديث كنت أدقق في أنور باشا الذي كان يسمعني باحترام كبير. هذا الباشا الشاب أصبح الآن قريبي. كان قد تزوج من ابنة أخي [الأمير سليمان وهي الأميرة ناجية]. لم يكن شبابه ولا ملامح وجهه الجميلة تمسَّ شيئاً من وقاره. فرغم كل خجله وسكونه سريعاً ما لاحظت أنه إنسان حديديّ الطبع، وطموح عجيب، إنه ذكَّرني بحسين عوني باشا رغم عدم وجود أي تشابه خارجي بينهما. ربما تشابه في الطبيعة. إنما جلافة

حسين عوني باشا يقابلها رقة وأدب أنور باشا كما أن ذكاء أنور باشا يقابله مكر حسين عوني باشا. هذا الصنف من الناس إذا ما ارتبطوا بمكان لا سيما ولو أنهم وجدوا فيه نفعاً فلن يكون لصداقتهم حدود. فهمت لماذا اختاره الألمان وتمسكوا به.

تحادثنا في المعارك التي تجري. كان يتحدث بثقة كبيرة عندما كان يشرح لي المعارك العسكرية. ولم يكن يخالجه شك قط فيما يتحدث فيه. أمثاله يمكن أن يكونوا عسكريين جيِّدين. ولكن من النادر جدّاً من يمكن منهم أن يكون قائداً ولو متوسِّط الحال، لأنه لم يكن يعرف أن العدو يمكن أن يُهزم خلف الجبهة وليس في الجبهة الأصلية فقط. كان أنور باشا يقيم حساباته وفي تصوُّره بأن على رأس كل فرقة عسكرية قائد يفكر مثله. مع أنه وصل إلى مكانه هذا اليوم لأنه في حينه كان يفكر ويتصرف بخلاف القواد الآخرين. إنها لحقيقة محزنة أن تكون نظارة الحربية للدولة العثمانية العظيمة في يد عسكري ليست له مزية أكثر من امتلاك هذا الوجه المليح. إن أنور باشا في رأيي كان يمكن أن يكون قائداً جيِّداً على رأس لواء. . كان يمكن أن يدير أعمالاً مفيدة للغاية وهو تحت رئاسة ناظر [= وزير] حربية جيد[1].

---

(١) يقول جمال قوطاي في تعليقه على مذكرات طلعت باشا:
«رُقِّي أنور بك من رتبة القائمقام إلى رتبة أمير لواء، وبالتالي أصبح وزيراً للحربية وعمره اثنان وثلاثون عاماً».
مذكرات طلعت باشا، ج ٣ ص ٨٣١.
أمّا طلعت باشا فيقول:
«اتَّخذنا [نحن جمعية «الاتحاد والترقِّي»] قراراً بإضافة درجتين بمدتين لكل منهما ثلاث سنوات وبالتالي عيَّناه وزيراً للحربية [خلفاً لعزت باشا]. مما أثار حفيظة زملائه في الجيش ومنهم مصطفى كمال باشا [أتاتورك] ».
مذكرات طلعت باشا، ج ٣ ص: ٨٢٥ و ٨٢٧.

مضى على هذا وقت، ثم أخبروني ذات مرة أنه يريد التحدُّث معي. الجبهات تنهار وبدأت الأخبار السيئة ترد تباعاً. زالت الأسر العريقة القديمة والأصلية الموجودة في إستانبول. وظهر أغنياء الحرب بسطوتهم. المرافقون لي يحملون لي في كل يوم من تلك الأيام إما خبر هزيمة جديد أو خبر فضيحة جديدة. كما كنت أسمع من بعيد عن ظهور خلاف في الحكومة، وعن وضوح اختلاف وجهات النظر بين الصدر الأعظم طلعت باشا وناظر الحربية أنور باشا. قبلت رغبته في مقابلتي، وجاء.

ومرة أخرى كان واضحاً فيه الأدب والتوقير، لكنه في هذه المرة كان يبدو أكثر من ذلك. إنه كان متقرِّباً لي وأعطاني خلاصة لصفحات سير الحرب من وجهة نظره، ولم أتأخَّر وأنا أسمع منه ذلك في ملاحظة أنه ينتظر مني أن أكون سنداً فكرياً له في النقاط التي يختلف فيها مع الصدر الأعظم. وهكذا كان في ذهنه استخدامي ضد طلعت باشا. وأظن أنه تقريباً قال ـ ودون أن يخبِّىء شيئاً مطلقاً ـ اختلاف وجهات النظر بين الحلفاء في مسألة الحرب. لم يعد هناك شيء أسوأ مما قاله وقد عدَّد المعلومات [والبيانات] التي في يد الحكومة حول القوى المادية والمعنوية للدول المحاربة ضدنا. وبينما كان [أنور باشا] يحدثني، كنت أبكي دماً على الدولة. الحسابات خاطئة من أولها إلى آخرها. لقد قوَّم الدولة وكذلك قوَّم الأعداء تقويماً خاطئاً. وهكذا كانوا اقتربوا إلى تلك النتيجة المروِّعة التي ظهرت اليوم. وأسوأ من هذا السوء الأصلي: أن الدولة كانت عبارة عن بعض كلمات لبعض الأشخاص، وكذلك لم يكف حدوث الخلاف والشقاق بينهم، بل إنهم وَقَعُوا كلهم مرة واحدة في كف حلفائهم الألمان.

والآن يسألني أنور باشا ـ زوج الأميرة ناجية ابنة أخي ـ النصح، أنا قريبه السلطان السابق هذا السؤال: «ماذا نعمل؟».

دائماً هناك شيء يمكن عمله في كل زمان وفي كل حال. ولكن الشيء المأمول عليه يلزمه شخص يقوم به. في ذلك اليوم كان لا بد من وجود شيء يُعمل ولكنَّ صهرنا أنور باشا وأصدقاءه ليسوا على درجة من الكياسة والأهلية بما يؤهِّلهم للعمل. ولهذا السبب لم أقل له تقريباً أيَّ شيء.

لا يمكن اتخاذ قرار سليم والاستخبارات غير سليمة!!

السبب الآخر لعدم قولي هو أنني كنتُ لا أستطيع أن أثق في تقويم ما عملوه... ثم إني كنت أشكُّ أيضاً في صحة الاستخبارات ولا يمكن اتخاذ قرار سليم طوال المدة التي تكون فيها هذه الاستخبارات غير سليمة.

قلت وأنا أحاول ألَّا أكسر خاطره: إنني أعيش منذ زمن طويل جداً بعيداً عن السياسة، والسياسة في حاجة لتتبُّعها بانتظام. وكنت مُجْبَراً على أن لا يمكن للإنسان أن يكون موجَّهاً فكرياً من بعيد باللاسلكي لقبطان سفينة أخذتها العاصفة. قلت له: «إن صاحب الشوكة حضرة صاحب الجلالة أخي يعرف أكثر مني في هذه الأمور»، ومع هذا فإني لفظت بعبارة: «إنه من الخير للدولة البحث عن صلح منفرد».

جفل وكأن أحداً ضغط على جرحه، فلاحظت في ذلك الوقت أنَّ الخلاف بينه وبين طلعت باشا كان في هذا الخصوص. يعني أن طلعت باشا رغم ما في مظهره من بساطة كان يبدو أعقل من صهرنا هذا صاحب المظهر الفخم. والحقيقة أنني لم أكن أتصوَّر هذا مطلقاً.

ولكي أجد شيئاً نتحدث فيه، سألته عن صحة الأميرة ناجية بنت أخي. وأظهرتُ اهتماماً بولدها، وطلبتُ صورة له. وعندما تركني خرج موقَّراً لكنه مجروح.

ليس لنا إلَّا الإيمان بالله

وعندما خرج، خررتُ ساجداً للرحمٰن وهو الشيء الوحيد الذي أستطيع عمله في هذا اليأس الذي نتج عن شعوري بأن الدولة التي أقامها أجدادي تعيش حتى اليوم ــ مثلي تماماً ــ أيامها الأخيرة. سجدتُ والدموع تسيل دماً من مآقِيَّ حتى الصباح، أحترقُ قائلاً: «ليس لنا إلَّا الإيمان بكَ يا ربي».

فلَقَد كانت جنودنا على كل الحدود ممزَّقة مبعثرة بين انسحاب وهزيمة ولا يستطيع خلاصنا إلَّا الله.. وإذا لم تنقذنا فلا تريّني اللهم أياماً أسوأ من هذا الموت. وهذا آخر توسُّلاتي.

◫ ◫ ◫

ثالثًا

التراجم

التراجم

ابن الأمين محمود كمال (١٨٧٠ ـ ١٩٥٧م): مؤرِّخ تركي بارز. عمل في عدة وظائف هامة منها: مدير متحف الأوقاف، ورئيس هيئة تصنيف الوثائق التاريخية. أشهر تصانيفه: «الشعراء الأتراك في العهد الأخير»، و «أواخر الصدور العِظام».

أبو الضيا بك (١٨٤٩ ـ ١٩١٣م): هو أبو الضيا توفيق، من الأدباء العثمانيين الأتراك المعارضين للسلطان عبد الحميد. تعلَّم في أوروبا فترة وأجاد الفرنسية. شغل عدة مناصب هامة في الدولة العثمانية منها مدير المدرسة الفنية وعضوية مجلس الشورى. أصدر مجلة باسمه هي مجلة «مجموعة أبو الضيا» (كلمة «مجموعة» في اللغة التركية تعني مجلة). اسمه نسبة لابنه الكبير ضيا. أبعده السلطان عبد الحميد إلى رودس وقونية. عاد إلى إستانبول بعد انقلاب ١٩٠٨م الذي دُبِّر ضد عبد الحميد، أصبح بعد ذلك نائباً برلمانياً عن مدينة انطالية. كانت له مطبعة مغلقة فأعاد افتتاحها ثم أعاد إصدار جريدة أستاذه شناسي «تصوير أفكار».

من أعماله: «نماذج من الأدب العثماني»، «الأمة الإسرائيلية»، «ابن سينا»، «ناپليون»، «العثمانيون الجدد».

أبـو الهُدَى الصيـادي (١٨٤٩ ــ ١٩٠٩م): من أشهر علمـاء الـدين في عصره. كان نقيباً لأشراف عمـوم حلب. لمـع نجمه في عهـد السلطان عبـد العزيـز (عم السلطان عبد الحميـد). بلـغ مكـانـة كبيـرة في عهـد السلطان عبد الحميد فوُجِّهت إليه رتبة الحرمين الشـريفين. وكان شيخ مشايـخ دار الخلافة ولقِّب بألقـاب أخر منهـا: «مستشار المُلك». قضى ٣٠ سنة في خدمـة الدولـة العثمانيـة يدافـع عن الخـلافة ويؤكـد واجب المسلمين في مؤازرة الخليفـة. عنـدمـا قـام حـزب «الاتحـاد والتـرقِّي» بانقلابه وعزل السلطان عبد الحميد ضبط رجـال الحزب وثـائق تبيَّن من خـلالها أن أبـا الهدى الصيـادي لم يكن منافقـاً ولا متجسسـاً للسلطان، بـل كان منـه في مقام النـاصـح المرشـد كما ورد في مـذكَّـرات محمـد كرد علي.

ولأبـي الهـدى الصيادي رسـالة بعنـوان «داعي الرشـاد لسبيـل الاتحـاد والانقياد».

أحمـد رضا بـك (١٨٥٨ ــ ١٩٣٠م): ثـائـر وسيـاسي عثمـاني. رئيس مجمـوعة «الاتحـاد والترقِّي» في پـاريس. كان يحـظى بتأييـد الجمعيـة الإسرائيلية بمصر. عمل مديراً للمعـارف في منطقـة بورصـه التعليمية. هرب إلى پاريس بحجة رغبته في الإطِّـلاع على معرض پـاريس الدولي وظـل هنـاك معـارضـاً حكم السلطان عبـد الحميـد حتى نجـح الجيش العثمـاني في عـزل السلطان عبـد الحميـد عـام ١٩٠٨م. أصـدر مجلة «مَشْوَرَتْ» بالتركية والفرنسية. تبنى المذهب الوضعي الأوروبـي. أكثـر كتاباته بالفرنسية. له كتاب «الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق». كتبه بالفرنسية وترجمه إلى العربية محمد بورقيبـه بالاشتـراك مـع محمد الصادق الزمرلي، في تونس ط ٢ عام ١٩٧٧م.

أحمد عزت باشا (١٨٦٤ ـ ١٩٣٧م): حمل رتبة المشير. أكمل دراساته العسكرية العالية في ألمانيا. اشترك في الحرب اليونانية عام ١٨٩٧م، كما خدم في لبنان ورقِّي إلى رتبة فريق عام ١٩٠٨م فأصبح قائداً للجيش العثماني في اليمن. عُيِّن وزيراً للحربية بعد مقتل محمود شوكت باشا قائد الانقلاب ضدّ السلطان عبد الحميد. وبتوصية من طلعت باشا أصبح أحمد عزّت باشا صدراً أعظم. لم يستطع التفاهم مع الحكومة الكمالية في أنقره فظل موالياً لحكومة إستانبول فعمل وزيراً للخارجية فيها. مات وعمره ٧٣ عاماً.

أحمد عرابي باشا (١٨٤١ ـ ١٩١١م): أوَّل زعيم قوميّ في العالم الإسلامي في تاريخه الحديث. أُبعد عن الجيش عدَّة مرات إلى أن جاء الخديوي توفيق فأرجعه إلى الجيش، لكنه تزعَّم ثورة الجيش على الخديوي توفيق عام ١٨٨٢م، قاد الجيش المصري ضد بريطانيا عندما اعتدت على مصر لكنه هُزم. حوكم فصدر الحكم عليه بالإعدام ثم أبدل بالنفي في جزيرة سيلان. عاد إلى مصر بعد ١٩ سنة في النفي. توفي عام ١٩١١م في القاهرة. له كتاب «كشف الستار عن سر الأسرار».

أحمد مختار باشا (١٨٣٩ ـ ١٩١٨م): من مشاهير القادة العثمانيين في العهد الأخير من الدولة العثمانية. بالإضافة إلى كونه قائداً مشهوراً فإنه عالم فلك ورجل سياسة. انتصر على الروس في موقعة كدكلر (قيزيل تبه) في ٢٥ أغسطس عام ١٨٧٧م، لذلك منحه السلطان عبد الحميد لقب (غازي). أرسلته الدولة العثمانية في مهمة مندوب فوق العادة إلى مصر عام ١٨٩٢م. وبعد إعلان المشروطية الثانية وقبل عزل عبد الحميد، جاء أحمد مختار باشا إلى إستانبول حيث أحيل إلى

التقاعد. لكنه عندما رأى جيش الحركة في طريقه إلى إستانبول حاول واهتم بالقيام بدور مع قادة الحركة بعد أن حداه الأمل في الحصول على مكسب. ظل ملازماً للسلطان محمد الخامس (محمد رشاد) لا يفارقه. له عدة مؤلفات في فروع العلم المختلفة من فلك وتراجم ودراسات دينية.

أدهم باشا (١٨٨٤ ـ ١٩١٩م): وُلد في إستانبول وتوفي في القاهرة. عمل وزيراً ومستشاراً في مجلس التنظيمات. أَسند إليه السلطان عبد الحميد منصب القائد العام للجيش العثماني في الحرب ضد اليونان عام ١٨٩٧م.

إسماعيل باشا (١٨٣٠ ـ ١٨٩٥م): الخديوي. والي مصر من عام ١٨٦٣ ـ ١٨٦٧م، ثم خديوي مصر من عام ١٨٦٧ ـ ١٨٧٩م. الابن الأكبر لإبراهيم باشا. خَلَف عمَّه سعيد باشا في حكم مصر. افتتح قناة السويس عام ١٨٦٩م. ارتبكت مالية مصر في عهده. باع أسهم مصر في قناة السويس لإنجلترا عام ١٨٧٥م. عزله السلطان عبد الحميد في يونيو عام ١٨٧٩م

أكرم بك (١٨٤٧ ـ ١٩١٤م): أديب وشاعر. درس بالمدارس المدنية والعسكرية. لم يكمل دراسته والتحق بالخارجية. تعرف على أعلام الأدب التركي في وقته منهم نامق كمال. وتولّى رئاسة جريدة «تصوير أفكار» بعد هرب نامق كمال إلى أوروبا (١٨٦٧م). يُعتبر من مجددي الأدب التركي العثماني. كتب الشعر والرواية والمسرحية وتاريخ الأدب.

أنـور باشـا (١٨٨١ ــ ١٩٢٢م): من قادة «الاتحـاد والترقّي». كـان وزيـر الحـربية في الـدولة العثمـانية في الحـرب العالميـة الأولى عام ١٩١٤م معجب بالعسكرية الألمانية. ومن دعاة الطورانية ــ وحـدة أتراك العـالم في دولة ــ تسبَّبَ في هزيمة الدولة في الحرب الأولى.

يتمتـع بشجاعة فائقة. لم يكن ماسونيّـاً وبذلـك كان متميـزاً على زميليه طلعت وجمـال وهم يشكِّلون ثلاثي جمعيـة «الاتحـاد والترقّي»، وأشهـر أعلام هذه الجمعية. تأثَّر بأفكار الكاتب اليهودي العثماني موئيز كـوهين في الدعوة إلى القومية التركية الشاملة (الطورانية).

آورام غـالانتي: كاتب يهـودي من يهود الـدولة العثمـانية. كـان مـرجعـاً لحكومة «الاتِّحـاد والترقّي» وخـاصة طلعت بـاشا. أشهـر كتبه «الأتـراك واليهـود» الذي كشف فيـه عن علاقـة الجمعية الإسـرائيلية في القـاهـرة بجمعية «الاتحاد والترقّي».

تحسين باشا: كبير الأمناء في قصـر يلديز، عـزله «الاتحـاد والترقّي» قبـل عزلهم للسلطان عبد الحميد. له مذكراته.

جاويد باشا (١٨٧٥ ــ ١٨٩٨م)، واسمـه الأول محمد، يهـودي من يهود الـدونمة ومـاسوني بـدرجة ٣٣، اقتصـادي. لعب دوراً كبيراً في الثـورة على السلطان عبد الحميد وبعد ذلك انتُخِب نائباً عن مـدينة سـلانيك. عمل وزيراً للمالية في حكومة توفيق باشا، أُعدم عام ١٩٢٦م.

جلادستون (١٨٠٩ ــ ١٨٩٨م)، واسمه وليم إيوارت: سياسي بريـطاني. تـزعَّم حـزب الأحـرار (١٨٦٨ ــ ١٨٩٤م) بـرع في الخـطابـة والشؤون الاقتصادية. في عهد وزارته احتلَّت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م.

حسين جاهد (١٨٧٤ ــ ١٩٥٧م): رجل أدب وسياسة. عضو جمعية «الاتحاد والترقّي». أصدر جريدة «طنين» الناطقة باسم هذه الجمعية أثناء سيطرتها على الحكم. عمل نائباً لرئيس مجلس «المبعوثان» وكان عضواً فيه. بعد هزيمة الدولة العثمانية بقيادة «الاتحاد والترقّي» في الحرب العالمية الأولى، نُفي حسين جاهد إلى جزيرة مالطة. عند عودته أعاد إصدار جريدة «طنين». كان عضواً في حزب الشعب الذي أسّسه ورَأَسه أتاتورك.

حسين عوني باشا (١٨٢٠ ــ ١٨٧٦م): تخرَّج من الحربية عام ١٨٤٨م برتبة نقيب أركان حرب. عمل فترة مدرساً بالمدرسة الحربية. اشترك في حرب القرم. عمل أيضاً ناظراً للمدرسة الحربية السلطانية. عمل قائداً للجيش إلاّ أنه عُزل من هذا المنصب، ونُفي إلى اسبرطة عام ١٨٧١م لمدة أحد عشر شهراً. ثم صدر عفو عنه فعُين والياً على آيدين. تولّى نظارة البحرية أيضاً. ثم عُيِّن قائداً عاماً للجيش للمرة الثانية عام ١٨٧٣م. وفي عام ١٨٧٤م عيِّن صدراً أعظم ولكنه عُزل بعد أربعة عشر شهراً من توليه هذا المنصب، وعُيِّن بعدها والياً على أزمير ثم على بورصه. اشترك في عزل عبد العزيز وتعيين مراد الخامس محله. وظل مدة حكم مراد الخامس القصيرة قائداً عامّاً للجيش وفي حادث اقتحام جركس حسن ــ وهو ضابط قريب ونصير للسلطان عبد العزيز ــ لمقر قيادة الوزراء، اغتال جركس حسن حسين عوني.

دزرائيلي (١٨٠٤ ــ ١٨٨١م): سياسي وكاتب بريطاني يهودي. جدَّد نشاط حزب المحافظين بآرائه السياسية والاستعمارية. رأس الوزارة البريطانية مرتين. اشترتْ إنجلترا في عهده أسهم مصر في قناة السويس.

سعيد باشا (١٨٣٨ ــ ١٩١٤م): تنقَّل في عدة وظائف في الدولة العثمانية منها مدير المطبعة العامرة (مطبعة الدولة) بإستانبول ومدير جريدة تقويم وقائع. بعد تولي عبد الحميد الثاني السلطنة عَيَّن سعيد باشا في عدة وظائف أكثر أهمية منها: باشكاتب المابين، وهو عقد الصلة بين القصر والحكومة وناظراً للداخلية، ونُفي إلى ولاية خداوندكار بعد حادث علي سعاوي الذي كان يأمل في إعادة تولية مراد الخامس محل السلطان عبد الحميد. ولما صدر العفو عنه عمل في عدة مناصب منها ناظر العدلية ومنصب الصدر الأعظم. انتُخب رئيساً للمجلس الوطني بدخول جيش الحركة إستانبول وقيام حادث ٣١ مارت (انظر المذكرات عن هذا اليوم). وفي أول اجتماع لهذا المجلس الوطني تقرر خلع عبد الحميد. وأصبح سعيد باشا عام ١٩١١م صدراً أعظم لحكومة «الاتحاد والترقِّي». وقد حلَّ سعيد باشا المجلس بناءً على رغبة جمعية «الاتحاد والترقِّي». وكان نصيب سعيد باشا من المجلس الجديد الإهمال. وفي وزارة محمود شوكت باشا تولَّى سعيد باشا رئاسة مجلس شورى الدولة (١٩١٣م). وعُيِّن بعد ذلك رئيساً لمجلس الأعيان.

الشريف حسين (١٨٥٦ ــ ١٩٣١م): شريف مكة (١٩٠٨م) وملك الحجاز (١٩١٦ ــ ١٩٢٤م). أعلن الثورة على الدولة العثمانية (يونيو ١٩١٦م). شنَّ عبد العزيز بن سعود الحرب عليه عام ١٩٢٤م وهزمه، فتنازل عن عرش الحجاز واتَّخذ من قبرص مقاماً (١٩٢٤ ــ ١٩٣٠م).

ضيا باشا (١٨٢٥ ــ ١٨٨٠م): من الشعراء والأدباء الأتراك البارزين في عهد التنظيمات العثمانية وما بعدها. عمل وهو في السابعة عشرة من عمره موظفاً في أمانة الصدارة العظمى. نظم الشعر بلغته التركية وباللغة الفارسية أيضاً. نهج في نظم أشعاره ــ في بدء حياته الأوروبية ــ على

المنهج السلفي. في عام ١٨٥٥م عيَّنه رشيد باشا ـ داعية الغرب وصاحب مرسوم التنظيمات في الدولة العثمانية ـ في الأمانة العامة للقصر السلطاني. درس الأدب الغربي وخاصة الفرنسي منه فتمَّ تعيينه كاتباً (أميناً) في القصر السلطاني لمدة سبع سنوات ونصف سنة، أُبعد بعدها نتيجةً لخلافٍ بينه وبين عالي باشا ـ أحد الصدور العظام ـ عُيِّن متصرِّفاً على قبرص، ثم تقلَّب في عدة مناصب مثل عضوية المجلس العالي ومتصرِّفاً على أماسيا. كان عضواً بارزاً في جمعية تركيا الفتاة (العثمانيون الجدد). هرب إلى أوروبا عام ١٨٦٩م بناءً على دعوة من الأمير المصري مصطفى فاضل باشا وأصدر في لندن جريدة (مخبر) و(حريت). له أعمال أدبية هامة مثل ظفر نامة وتركيب بند وترجمة أميل في اللغة التركية. عاد إلى إستانبول بعد وفاة عالي باشا. يقال أنه اشترك في صياغة مشروع القانون الأساسي عند اعتلاء عبد الحميد العرش. منحه عبد الحميد رتبة الوزارة وعيَّنه والياً على سوريا ثم أَطَنه حيث مات ودفن فيها.

طلعت باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٢١م): هو محمد طلعت أحد الزعماء الثلاثة في جمعية «الاتحاد والترقِّي» العثمانية. عمل وزيراً وصدراً أعظم. أهم قادة «الاتحاد والترقِّي». يتمتع بذكاء حاد. يُنسب إلى عائلة محدودة الدخل. محدود الثقافة والتعليم. اشتغل مدرساً للغة التركية. استقال من منصب الصدارة العظمى (رياسة الوزراء) بعد استقالة سعيد حليم باشا منها على إثر احتجاجه على دخول الحرب دون علمه. استقال من منصب الصدارة عام ١٩١٧م بعد حلّ جمعية «الاتحاد والترقِّي». هرب إلى أوروبا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى. اغتاله الأرمن في برلين في ١٦ مارس عام ١٩٢١م.

عباس حلمي باشا (= عباس الثاني) (١٨٧٤ ـ ١٩٤٤م): خديوي مصر من ١٨٩٢م إلى ١٩١٤م. ابن الخديوي توفيق. خلعه الإنجليز بعد إعلانهم الحماية البريطانية على مصر في ديسمبر ١٩١٤م.

عبد الحق حامد (١٨٥٢ ـ ١٩٣٧م): يُعتبر أمير الأدب التركي الحديث. تلقّى تعليمه في تركيا وفرنسا. كان على دراية باللغتين العربية والفارسية بالإضافة إلى الفرنسية. توظَّفَ في قلم الترجمة بالباب العالي. كان والده ممثِّلاً للدولة العثمانية في طهران، فسافر صحبته إليها، وبعد وفاة والده عاد إلى إستانبول وتنقَّل في عدة وظائف. اشتغل في قنصليات وسفارات الدولة العثمانية في الخارج في عدة بلاد منها باريس وبومباي . عندما كان في بومباي مرضَتْ زوجته فعاد بها إلى بلاده وفي الطريق اشتدَّ عليها المرض ونزلا في بيروت حيث توفِّيت زوجته. هذا الحادث أثَّر تأثيراً سيِّئاً على عبد الحق وظهر هذا التأثير في أشعار الشكّ التي نظمها بهذه المناسبة. بعد ذلك عمل في سفارات بلاده في لندن وبروكسل. وأصبح عام ١٩١٢م عضواً في مجلس الأعيان العثماني. وفي عهد الجمهورية انتخب نائباً عن إستانبول في مجلس الأمة التركي عام ١٩٢٨م.

من أبرز أعماله: مغامرة حبّ، فتاة هندية، طارق أو فتح الأندلس، مقبر، إلهام الوطن.

السلطان عبد العزيز: عمّ السلطان عبد الحميد الثاني. وُلد عبد العزيز عام ١٨٣٠م، وتولّى العرش عام ١٨٦١م، وخُلع عام ١٨٧٦م، وبعد أربعة أيام من خلعه توفي، ويؤكد المؤرخين أنه مات شهيداً بعد أن دبَّر له أعضاء «تركيا الفتاة» مؤامرة لقتله وأعلنوا بعدها انتحاره. أعد الأسطول العثماني إعداداً هائلاً بحيث جعله الأسطول الثالث في العالم

وقتها، ورفع القوات البرية إلى ٧٠٠ ألف وجهَّز الجيش العثماني بأحدث الأسلحة، أنشأ عدة مدارس هامة مثل مدارس المعادن والمدفعية والمدرسة العسكرية (في مستوى الثانوية). زار مصر وفرنسا وإنجلترا وبروسيا والنمسا والمجر وهدف من رحلته في أوروبا إلى التأثير على فرنسا لكي تقف في صف الدولة العثمانية بدلاً من التزامها جانب روسيا، وكذلك هدف إلى تكتل الدول الأوروبية ضد روسيا. في عهده صدرت مجلة الأحكام العدلية بإشراف أحمد جودت باشا. وفي عهده أيضاً افتُتحت قناة السويس.

عزيز علي المصري (١٨٧٩ ـ ١٩٥٩م): ضابط وسياسي عثماني. تخرَّج في الكلية الحربية العثمانية عام ١٩٠٤م. عمل في الجيش في مقدونيا. انضمَّ أثناء عمله إلى جمعية «الاتحاد والترقِّي». شارك في جيش الحركة عند إسقاط حكم السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م. وكان في ذلك ضابط أركان حرب لقائد جيش الانقلاب محمود شوكت باشا. حارب عزيز علي المصري في اليمن (١٩١٠م) وطرابلس الغرب (١٩١١ ـ ١٩١٢م). قُبِض عليه عام ١٩١٤م وأرسل إلى مصر. اشترك في ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦م في الحجاز ضد الدولة العثمانية. وصفه الرئيس جمال عبد الناصر بأنه «أبو ثورة ٢٣ يوليو الروحي». عُيِّن عام ١٩٥٤م سفيراً لمصر في الاتحاد السوفييتي.

عرياني زاده أحمد أسعد (١٨٦٥ ـ ١٩٤١م): رجل دين وسياسة. درس على نظام المدرسة القديم. واكتسب خبرة في قلم شيخ الإسلام. عمل رئيساً لمجلس البحوث الشرعية ثم قاضي عسكر. نُفي إلى ميديللي بعد عزل السلطان عبد الحميد نظراً للرابطة والمودَّة التي تربط بينهما. ثم صدر عنه عفو، عاد بعده إلى إستانبول. وتولَّى نظارة

العدلية بعد الحرب العالمية الأولى، ثم عمل عضواً في مجلس شورى الدولة.

علي جواد بك: آخر كبير أمناء قصر يلديز في عهد السلطان عبد الحميد، اتحادي. عيَّنَتْه جمعية «الاتحاد والترقّي» في هذا المنصب وفرضته على السلطان فرضاً. تاريخ تعيينه في هذا المنصب ٢٣ يوليو ١٩٠٨م وهو تاريخ انتهاء وظيفة تحسين باشا كبير الأمناء.

علي سعاوي (١٨٣٨ ـ ١٨٧٨م): ثائر وكاتب. كتب في جريدة «مخبر» عام ١٨٦٦م. هرب إلى أوروبا عام ١٨٦٩م. وأصدر هناك جريدة «مخبر» في لندن ثم «علوم» في پاريس. عاد إلى بلاده عام ١٨٧٦م وكتب في جريدة «بصيرت» مقالات انتقد بها مدحت باشا. دبَّر مؤامرة مسلحة ضد السلطان عبد الحميد وقصد منها توليته أخيه السلطان مراد محله وعرفت باسم حادثة جراغان نسبة إلى القصر الذي كان السلطان مراد المخلوع مقيماً فيه. قُتل علي سعاوي في هذه الحادثة.

غولتز (١٨٤٣ ـ ١٩١٦م): كولمار، فريهر فون در. قائد بروسي ومؤرِّخ حربي. أعاد تنظيم الجيش العثماني (١٨٨٣ ـ ١٨٩٥م). ترجع شهرته لمؤلَّفاته العسكرية. له كتاب «الأمَّة المسلحة».

فؤاد باشا (١٨١٥ ـ ١٩٦٩م): صدر أعظم ورجل دولة. يُعرف أيضاً بلقب فؤاد باشا الكبير. والده عزت ملا شاعر عثماني معروف وجدّه قاضي عسكر مصطفى زاده القونوي. تولّى منصب الصدارة العظمى في عهد السلطان عبد العزيز (عم السلطان عبد الحميد الثاني). دراسته طبية عسكرية لكنه التحق بعد تخرُّجه بدائرة الترجمة بالباب العالي فارتقى فيها بسرعة لذكائه الحادّ. كُلِّف بمهمة إعادة الهدوء إلى لبنان

بعد مجازر دامية بين المارون والدروز راح ضحيتها ـ على رواية ـ ١٢,٠٠٠ نسمة وأحدثت ردَّ فعل في الشام حيث جرت حوادث مشابهة. استطاع فؤاد باشا بعد حصوله على صلاحيات واسعة أن يُعيد الأمن لهذه المنطقة مما لفت إليه الأنظار. تولّى الصدارة مرتين. وتوفّي في مدينة نيس الفرنسية حيث كان يُعالَج فيها من مرض القلب.

فتحي أوقيار (١٨٨٠ ـ ١٩٤٣م): عسكري وسياسي تركي. رئيس حرس السلطان عبد الحميد في منفاه في سلانيك. أصبح فيما بعد من الأمناء العموميين لجمعية «الاتحاد والترقّي»، ثم سفيراً للدولة العثمانية في صوفيا (في بلغاريا). عمل رئيساً للمجلس النيابي التركي الذي أقامه أتاتورك، ثم رئيساً للوزراء في عهد الجمهورية (عهد أتاتورك).

قسطنطين (توفي عام ١٤٥٣م): هو قسطنطين الحادي عشر آخر أباطرة البيزنطيين. نادى بالاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية ليحصل على مساعدة من الغرب ضد العثمانيين عام ١٤٥٢م وفشل. دافع عن القسطنطينية ضد جيش السلطان محمد الفاتح.

كمال بك: هو نامق كمال الملقب بشاعر الحرية (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨م). كاتب وشاعر. عُيِّن عام ١٨٦٣م في قلم الترجمة. كتب في جريدة «تصوير أفكار» التي كان يصدرها الكاتب التركي شناسي رائد التجديد في أدب الأتراك، واتجاهه نحو الأخذ عن الآداب الغربية. تولّى نامق كمال إدارة «تصوير أفكار» بعد سفر صاحبها شناسي إلى أوروبا. التحق نامق كمال بجماعة «تركيا الفتاة» (العثمانيون الجدد). هرب مع ضيا باشا إلى أوروبا حيث اشترك في إدارة جريدة «حريت» في لندن (عام ١٨٦٨م). سُمح له بعد ذلك بالعودة إلى إستانبول فأصدر جريدة

«عبرت» عام ١٨٧٠م. عُيِّن متصرِّفاً على غاليبولي، ثم عُزل، ثم عاد إلى إستانبول فأصدر مسرحيته «الوطن»، ثم أبعد إلى قبرص عام ١٨٧٣م وعاد إلى إستانبول بعد إعلان المشروطية الأولى.

كتب المقالة والشعر والمسرحية والرواية وكان أول من تحرَّر في شعره من العروض ومتأثراً في ذلك بالآداب الأوروبية.

من أبرز أعماله الأوروبية: جلال الدين خوارزمشاه، الوطن، عاكف بك (مسرحيات)، انتباه، مغامرة علي بك، جزمي (روايات)، بارقة الظفر، السلطان سليم الأول، سلسترة (دراسات).

ويُعتبر نامق كمال أول من بذر بذور القومية في أدب الأتراك الإسلامي.

محمد توفيق فكرت (١٨٦٧ ـ ١٩١٥م): ويذكر أيضاً باسم توفيق فكرت: وهو شاعر كبير ومجدِّد في الأدب التركي ومن روّاد هذا الأدب. وجد العون من السلطان عبد الحميد في أوائل حياته الشعرية. عُرف بالنظرة المتشائمة في كثير من أشعاره، كما عُرف عنه الإلحاد. كَتب في ابنه أشعاراً كثيرة. وابنه هذا تلقّى تعليماً عالياً في أوروبا وأمريكا وتنصَّر. وأصبح من كبار رجال الدين المسيحي في أمريكا.

السلطان محمد رشاد الملقب بمحمد الخامس: السلطان الخامس والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. وُلِد عام ١٨٤٤م وتوفي عام ١٩١٨م. تولّى السلطنة عام ١٩٠٩م عقب عزل السلطان عبد الحميد عن العرش. تولّى السلطان محمد رشاد العرش وهو في الخامسة والستين من عمره. درس الثقافتين الشرقية والغربية. كان أوَّلَ سلطان يحكم في ظل المشروطية ولم يكن يتمتع بنفوذ حقيقي وترك مقاليد الحكم للاتحاد والترقي. حدثت في عهده: حرب طرابلس

الغـرب (١٩١١م) بين العثمانيين والليبيين من جهـة وبين الإيطاليين من جهة أخرى، ثم حرب البلقان (عـام ١٩١٢م) بين الدولـة العثمانيـة من جهة وبين اليونان وبلغاريا والصرب والجبل الأسود من ناحية أخرى، ثم الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨م).

السلطان محمود الثاني (١٧٨٤ ــ ١٩٣٩م): جد السلطان عبد الحميد، من السلاطين الذين شجّعوا الأخذ عن الغرب، تمكّن من القضاء على الإنكشارية (١٨٢٨م) وإعداد جيش حديث على «نظام جديد».

محمـود شوكـت بـاشا (١٨٥٦ ــ ١٩١٣م): وُلِـد في بغـداد ومـات في إستانبول. قائد تـركي ورجل دولـة. عربـي الأصـل. أبوه سليمـان فائق كتخـدا أوغلو. كان من كبـار موظفي ولايـة بغداد ومن أشهـر المؤرِّخين البلغاء لحوادث العراق. وولده الأصغر حكمت سليمان سياسيّ بارز في العهد الملكيّ في العراق، وتولى رئاسة الوزراء فيه سنة ١٩٣٦م. تلقّى محمود شوكت دراسته الأولى في بغداد، ثم انتقل إلى إستانبول ليدخـل المدرسة العسكرية. ثم دخـل المدرسـة الحربيـة وأنهى الدراسـة فيها. عمل مدرساً في المدرسة الحربية (١٨٨٣م). أرسلته الدولة في مهمات عسكرية إلى كـلٍّ من ألمانيـا وفرنسـا. رقّي عام ١٩٠١م إلى رتبـة فريق ثانٍ وعندمـا رقي إلى رتبة فـريق أول عام ١٩٠٥م عُيِّن واليـاً على ولاية قوصوه، وبعد إعلان المشروطية الثانية عُيِّن قائداً للجيش الثالث وتعاون مـع كبار زعماء «الاتحاد والترقّي». كان مقرّ قيادته في سـلانيك وعمـل تحت إمرته مصطفى كمال (أتاتورك) عندما كان هذا برتبة قـول أغاسي. كان قائد «جيش الحركة» الذي تحرك من سلانيـك إلى إستانبـول لعزل السلطان عبد الحميد وكان مصطفى كمـال (أتاتـورك) رئيس هيئة أركـان حرب هذا الجيش. ولكن لسببٍ غير معروف عُـزل مصطفى كمـال قبل

دخـول هذا الجيش إستـانبول. بعـد أن تمكّن محمود شـوكت باشـا من الإطـاحـة بحكم السلطان عبـد الحميـد أصبـح قـائـداً للجيـوش الأول والثـاني والثالث. ثم أصبـح وزيـراً للحربيـة. وفي عام ١٩١٠م قـامت ثورة ضد الحكومة في ألبانيا فتوجّه إليهم محمود شوكت بقواته واستطاع سحق هذه الثورة وجمـع السلاح من الثوار. استقـال من وزارة الحربيـة في عـام ١٩١٢م، وفي عـام ١٩١٣م وعن طـريق «الاتحـاد والتـرقّي» أصبـح صـدراً أعـظم مـع تـولّيـه وزارة الحـربيـة. في عهـده استـطاع البلغاريون الثورة والاستيلاء على أدرنة،ويانيا،وأشقودره. ولكن أنور باشـا استطاع استرجـاع أدرنة فيمـا بعد. في ١٩١٣/٦/١١م استـطاع ثمانيـة أشخاص اغتيال محمود شوكت باشا.

مدحت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٥م): مدحت مخلصـه واسمه أحمـد شفيق. دراسته الأولى شرقية فتعلم العربية والفارسية وأجادهما، وتوظف في قلم الديوان في الباب العالي. وبـدافـع من تشجيـع رشيد بـاشا ـ صـاحب فكرة حركة التجديـد في الدولـة العثمانيـة على النمط الأوروبـي واتخاذ فرمَانَيْ التنظيمات بداية شـاملة لهذه الحـركة التغـريبية ـ تعلّم مـدحت اللغة الفرنسية فحذقها. عُيِّن عام ١٨٦٠م والياً على نيش فأظهـر كفايـة فيهـا، ثم عُيِّن والياً على الـطونة عـام ١٨٦٤م لمدة ثـلاث سنوات عـاد بعـدها إلى إستـانبول ليشغـل منصب رئيس شـورى الـدولـة لمـدة عـام واحد، نُقل بعدها والياً على بغداد. ولخـلاف بينه وبين الصـدر الأعظم وقتها محمود نديم باشا، ترك مدحت بغداد وصـدر أمرُ تعيينـه والياً على أدرنـة ولكنـه في مقـابلة لـه مـع السلطان عبـد العزيـز تمكّن من إقنـاع السلطان عبد العزيز بعزل محمود نديم من الصـدارة، ثم أقنعه في نفس المقـابلة أنه جـدير بهـذا المنصب فتم تعيين مدحت بـاشا صـدراً أعظم

لأول مرة عام ١٨٧٢م. اعتبر أعضاء «تركيا الفتاة» (العثمانيون الجدد) أن مدحت باشا قائداً طبيعياً لفكرهم. ولم يبق في هذا المنصب ــ منصب الصدر الأعظم ــ إلاّ شهران ونصف شهر. اتفق مدحت باشا مع كل من رشدي باشا وحسين عوني باشا على عزل السلطان عبد العزيز فعزلوه مؤيّدين من رديف باشا رئيس مجلس الشورى وسليمان باشا قائد المدرسة الحربية، ثم عيّنوا مكانه مراد الخامس. ولم يستمر مراد الخامس في السلطنة إلاّ ٩٣ يوماً فقط أصابه الجنون فيها فعزله مدحت باشا ورفاقه من السلطنة. وتولّى السلطان عبد الحميد الثاني بعدها فأتي بمدحت باشا صدراً أعظم للمرة الثانية.

كان مدحت باشا معجباً إعجاباً شديداً بإنجلترا وبالنظام الديمقراطي الإنجليزي، وكان يتصور أن الدولة العثمانية يمكنها تفادي كل نقص ألمّ بها إذا طبقت النظام الإنجليزي. وكانت إنجلترا تؤيد مدحت باشا وتنصره، لذلك كان يرى أن تقليص نفوذ السلطان العثماني وسلطة الأسرة العثمانية لا يتم إلاّ بإعلان القانون الأساسي وكان يريد من إنجلترا التكفّل بحمايتها لهذا القانون الأساسي فأرسل أستاذه الفكري أوديان أفندي وهو قانوني أرمني إلى لندن ليطلب من إنجلترا تعهُّدها بكفالة القانون الأساسي وحمايته. ولمّا لم يستطع أوديان أفندي الحصول على هذه الحماية طلب مدحت باشا من مؤتمر الترسانة الذي انعقد في إستانبول وحضرته الدول الأوربية التصديق على القانون الأساسي العثماني وتدخلها إذا ما ألغي.

يأخذ بعض المؤرخين على مدحت باشا أنه لم يكن بالرجل السياسي المتّسع الذكاء، ولم يكن برجل الدولة المجرِّب الخبير، ولم يستطِع القيام بواجبه في إدارة الدولة مركزياً.

كما يأخذ على مدحت باشا بعضُ المؤرخين الآخرين بأنه رغم كونه والياً ناجحاً فقد كان صدراً أعظم قليل الخبرة، وحتى أثناء ولايته فقد كان عليه مآخذ. فعندما كان والياً على الطونة (البوسنة والهرسك) أمر بإضافة الصليب على العلم العثماني ذي الهلال والنجمة بحيث يكون هذا العلم علم المنطقة المحلي. وفي أثناء صدارته صدر فرمان حق الاقتراض الخارجي لخديو مصر إسماعيل باشا وكان لهذا الفرمان ونتائجه عواقبُ وخيمة على مصر.

مراد بك (١٨٥٣ - ١٩١٤م): صحفي ومؤرِّخ يعرف بلقب (ميزانجي) نسبة إلى صحيفته «الميزان». ولد في تفليس وتعلَّم في روسيا ووفد إلى الدولة العثمانية فعمل مدرساً للتاريخ في المدرسة الملكية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني حيث اشتهر أمره. كان يجيد الروسية والفرنسية بجانب لغته الأصلية وهي التركية. عمل في إدارة الديون العمومية فترة طويلة. هرب إلى مصر ومنها إلى أوروبا معارضاً للسلطان عبد الحميد لكنه عاد مرة أخرى إلى إستانبول حيث تولّى منصب عضو شورى الدولة. أصدر أثناء وجوده في أوروبا جريدته «الميزان». ولما عاد إلى الدولة استمر أيضاً في إصدارها في ثوب آخر. عارض «الاتحاد والترقِّي»، لذلك تعلَّل أعضاء «الاتحاد والترقِّي» بأن مراداً يعتبر من أسباب حادث ٣١ مارت، وأنه يعمل لصالح السلطان عبد الحميد، لذلك تم نفي مراد. لكنه عاد بعد ذلك إلى إستانبول حيث مات ودُفن فيها. له كتاب في التاريخ العام من ستة أجزاء، وله أيضاً كتاب في التاريخ بعنوان «تاريخ عثماني»، وكتب الكتابين قبل انقلاب ١٩٠٨م. له أيضاً (تاريخ أبو الفاروق) وهو تاريخ مفصَّل للدولة العثمانية لم يصدر منه إلَّا ستة أجزاء.

السلطان مراد الخامس: السلطان الثالث والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. ولد عام ١٨٤٠م، وتولّى السلطنة وعمره (٣٦) سنة. حكم (٩٣) يوماً فقط وتوفي عام ١٩٠٤م. كان مغرماً بالموسيقى محباً لها مجيداً للغة الفرنسية. كان على صلة قوية بأعضاء «تركيا الفتاة» (العثمانيون الجدد) يعاونهم مادياً وأدبياً. دخل الماسونية عن طريق ولي عهد إنجلترا أثناء ما كان مراد في لندن. تولّى السلطنة بعد عزل السلطان عبد العزيز عن طريق أعضاء «تركيا الفتاة» وعلى رأسهم مدحت باشا. أصابه الجنون، فاضطر الثوار إلى خلعه وتولية عبد الحميد، حاول بعض الثوار القضاء على حكم السلطان عبد الحميد بإعادة تنصيب مراد مرة أخرى ولكنهم فشلوا.

نابليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣م): إمبراطور فرنسا (١٨٥٢ ـ ١٨٧٠م). ابن أخي نابليون الأول. قضى حياته الأولى بعيداً عن فرنسا. حاول الوصول إلى الحكم عام ١٨٤٠م ففشل وهرب، ثم عاد عقب ثورة فبراير ١٨٤٨م وانتخب رئيساً للجمهورية الثانية وأعلن الإمبراطورية عام ١٨٥٢م. تميز عهده بالتقدُّم الاقتصادي. عاون فرديناند ديلسبس في الحصول على امتياز حفر قناة السويس. خُلع من الحكم عقب هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠م ونُفي من بلاده.

الدكتور ناظم السلانيكي (١٨٧٠ ـ ١٩٢٦م): رجل سياسة وأحد مؤسسي جمعية «الاتحاد والترقِّي». وُلد في سلانيك وتوفي في أزمير. درس الطب في الدولة العثمانية وأكمل دراسته في فرنسا. وفي باريس، تعاون مع أحمد رضا بك رئيس جمعية «الاتحاد والترقِّي». وفي عام ١٩٠٧م عاد الدكتور ناظم إلى سلانيك بناءً على دعوة من «الاتحاد

والترقّي» حيث قام بمهمة ضابط الاتصال بين شُعبتي الجمعية في كل من پاريس وسلانيك. وكان له دور واضح في الدعاية لجمعية «الاتحاد والترقّي» في الأناضول. وبعد نجاح الجمعية في حركتها ضد السلطان عبد الحميد وإعلان المشروطية لم يُعهد للدكتور ناظم بمنصب في الحكومة ولذلك بقي في سلانيك كبير الأطباء في مستشفاها. كما ظلّ عضواً دائماً في اللجنة المركزية للاتحاد والترقّي. وفي عام ١٩١١م أصبح أميناً عاماً للجمعية، وفي عام ١٩١٨م عمل وزيراً للمعارف، وفي عام ١٩٢٦م أُعدم بعد ظهور علاقته بمؤامرة ضد أتاتورك في أزمير.

ناظم باشا (١٨٥٨ ــ ١٩١٣م): تخرَّج من الحربية العثمانية عام ١٨٨٢م. خدم في كل من مقدونيا واليمن والحجاز حتى عام ١٩٠١. نُفي إلى فزان بعد تقرير من المخابرات عنه وكان إذ ذاك برتبة اللواء. عمل وزيراً للحربية وواليـاً على بغداد. اغتاله الاتحاديون بحجة أنه السبب في تسليم أدرنه للبلغاريين.

نِقولا الثاني (١٨٦٨ ــ ١٩١٨م): آخر قياصرة روسيا. ناصر سياسة السلام في أوروبا. ازداد الإرهاب والمعارضة والاضطرابات في عهده. أُجبر على منح الدستور لبلاده لكنه حدَّ من نفوذ وسلطات المجلس النيابي. اضطر إلى التنازل عن العرش عام ١٩١٧م عند قيام الثورة الروسية، سُجن مع أسرته ثم أُعدموا.

نيازي (١٨٧٣ ــ ١٩١٤م): هو نيازي بك الرسنة لي. لقَّبه الاتّحاديون بلقب بطل الحرية لأنه أوَّل من تمرَّد عسكرياً على السلطان عبد الحميد وتحت إمرته ٢٠٠ شخص.

وُلِدَ في رسنة (وهي الآن في ألبانيا). اشترك في الحرب العثمانية اليونانية عام ١٨٩٧م فأظهر بطولة عسكرية. حارب المتمرِّدين البلغار ثلاث سنوات. تأثَّر بأفكار نامق كمال وأدباء عهد التنظيمات فيما يتعلَّق بالفكر السياسي فكان من بين أوَّل من انضمَّ للاتحاد والترقِّي.. وعندما قرَّرت المجموعات العسكرية التابعة لجمعية «الاتحاد والترقِّي» التحرك ضد السلطان عبد الحميد كان هو أوَّلَ من استجاب للأمر بكتيبة رسنه التي يرأسها.

لم تكن له رغبة في منصب ولا شهرة بعد نجاح الجمعية في انقلابها. اعتكف في مزرعته في بلدته. توفي قتلاً بسبب شخصيٍّ وعمره ٣٩ سنة.



الفهارس

أولاً:

فهرس الدراسة والتقديم

الموضوع	الصفحة
نشر هذه المذكرات. وداد عرفي بك يُصدر ما نشره من مذكرات للسلطان في كتاب يحمل اسم «خاطرات سلطان عبد الحميد خان ثاني». وداد عرفي يقول في تقديمه لهذا الكتاب أنه بصدد نشر الجزء الثاني من المذكرات، ولم ينشره نظراً لشدة الرقابة في عهد جمعية الاتحاد والترقّي. في عام ١٩٧٥م استطاعت مؤسسة ترجمان الصحفية، بعد بحث طويل، العثور على الجزء الثاني فنشرته على حلقات في جريدة ترجمان. ثم صدرت المذكرات كاملة في هذه الجريدة على حلقات يومية، ثم صدرت في كتاب «عن دار كروان» في نفس العام. اعتمادنا في الترجمة في شطرها الأول على نشر وداد عرفي بك وفي الشطر الثاني من المذكرات على نسخة كروان. كبار المؤرِّخين المعاصرين في تركيا استفادوا من هذه المذكرات وكذلك أساتذة التاريخ الكبار في الجامعات التركية. هذه الترجمة بدأت في مجلة المجتمع الكويتية على حلقات على عامين، في سنة ١٩٧٥م = ١٣٩٥هـ. الهدف من تقديم هذه المذكرات باللغة العربية	٣١ ـ ٣٥
مقدمة الطبعة الثانية:	
هدف ترجمة هذه المذكرات. تقديم وجهة نظر السلطان عبد الحميد نفسه في مشاكل أمته بعد أن تكلَّم الآخرون بمختلف اتجاهاتهم. فائدة هذه المذكرات كشفها عن مسائل هامة في تاريخ الصراع بين الغرب والعالم الإسلامي عامةً والعالم العربي خاصةً وتقديم معلومات تختلف عما ألفناه وقرأناه وتقدم معلومات أساس في تاريخ حركة تغريب البلاد الإسلامية وعن بداية الحكم الديمقراطي في العالم الإسلامي.	

* * *

ثانيًا:
فهرس ترجمة النص الأصلي لمذكرات السلطان عبد الحميد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
سليمان باشا صديق لمدحت باشا ومع ذلك عيَّنتُه قائداً عامّاً لجيوشنا في البلقان	١٧٢
القائد العام يقول: لا بد لما أردته أن يتحقق وليحيق بالدولة ما يحيق	١٧٣
ثقة الوزير الأعظم بإنجلترا كانت خطأً	١٧٤
أدخلت التلغراف بجهودي	١٧٥
أسباب انهزامنا أمام الروس	١٧٧
شخصية رديف باشا	١٧٨
العدل هو أساس المُلك العثماني	١٨١
الشكوى من مخابراتي	١٨١
عين العدل أن تكون الإدارة في يد المسلمين	١٨٢
بعض الشباب يُبتعث إلى أوروبا فيفسد	١٨٢
الرقابة ومصلحة الأمة	١٨٣
كنت كالبستاني يحمي شعبه من الحشرات الضارة	١٨٤
لم أتدخّل في حادث ٣١ مارت	١٨٤
الاتحاديون يهربون	١٩٠
عندما تكون الصحافة آلة في يد الضباط	١٩١
رفضت إيقاف الجيش-الزاحف لإسقاطي	١٩٤
كنتُ سأتنازل عن العرش بمحض إرادتي	١٩٤
الفرق بين اليابان وبين الدولة العثمانية	١٩٥
عندما تكون القومية أعلى من الدين	١٩٥
أكرمتُ خليل بك الألباني فأخلص لي	١٩٨
أمعقول أن أطلب الحماية من دولة أجنبية؟!	١٩٩
كنت أنتظر ما ستأتي به الأيام بصبر وثبات	٢٠٠
نوعية الذين أبلغوني بقرار إسقاطي عن العرش	٢٠١
إبعادي عن السلطة لم يحزنني لكنها المعاملة المهينة	٢٠٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

ثالثاً:

فهرس الحواشي ومقابلة المذكرات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الأميرة شادية تروي حادثة نفي والدها وأسرتها من قصر يلديز في إستانبول إلى قصر آلاتيني اليهودي في سلانيك، وحياتهم في المنفى	٢١٢
وصف الأميرة شادية حُسن معاملة فتحي أوقيار لوالدها ولهم	٢١٤
الأميرة شادية تروي محاولة الحرس اغتيال والدها السلطان في المنفى. وتروي أحداث خطة الضباط القذرة للاعتداء على عفافها في محاولة لإذلال والدها السلطان عبد الحميد	٢١٧
علي سعيد بك يتحدث في مذكراته عن رباطة جأش السلطان عبد الحميد في مواجهة الموت عندما حاول الأرمن اغتياله بقنبلة زمنية	٢١٨
قائد حرس السلطان عبد الحميد في المنفى يقول أنه ضد حرمان السلطان عبد الحميد من قراءة الصحف	٢٢٠
قائد الحرس في المنفى يقول في مذكراته: «كنت أتعامل مع السلطان عبد الحميد كما لو كان ما زال في السلطة والسلطان»	٢٢١
الجيش يعطي وكالة بأموال السلطان عبد الحميد إلى جاويد بك وزير المالية وهذا يهودي دونمه من كبار رجال الاتحاد والترقي ويحمل درجة ٣٣ في الماسونية	٢٢٦
جريدة الجويش كرونيكل اليهودية تقول: «إن الحاخام اليهودي في إستانبول يثق بتعاون محمود شوكت باشا ـ قائد جيش الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد ـ في كل أمر له علاقة برفاه الشعب اليهودي»	٢٣٠
تشخيص السلطان عبد الحميد لشخصية محمود شوكت باشا قائد جيش الانقلاب يتفق مع رأي الدكتور رضا نور	٢٣٢
مذكرات طلعت باشا تتفق أيضاً مع مذكرات السلطان عبد الحميد في شطرها الأخير في مسألة محاولة نقل الاتحاديين للسلطان من سلانيك	

الموضوع	الصفحة
إلى إستانبول وإصرار السلطان على البقاء وحمل السلاح والحرب والاستشهاد لإجلاء القوات اليونانية الغاصبة	٢٤٩
اتفاق آخر بين مذكرات طلعت باشا ومذكرات السلطان عبد الحميد في آخر جزء من شطرها الثاني في مسألة البارجة الحربية الألمانية . . .	٢٥٠
طلعت باشا الزعيم الاتحادي الكبير يعترف في مذكراته بخسائر الدولة في الأراضي وإفلاس خزانتها بعد عزل جمعية الاتحاد والترقّي للسلطان عبد الحميد وتولّي أعضائها دفّة الحكم بعده	٢٥٤
طلعت باشا يؤكد كذلك في مذكراته ما جاء في آخر الشطر الثاني من مذكرات السلطان عبد الحميد من مقابلة هذا الباشا للسلطان	٢٥٦
طلعت باشا يؤكد أيضاً في مذكراته ما جاء بآخر الشطر الثاني من مذكرات السلطان عبد الحميد فيما يختص بحالة السلطان عندما طُلب منه مغادرة إستانبول خوفاً من سقوطها في يد الأعداء ورفض السلطان لذلك وإصراره على الرفض.	٢٥٨
طلعت باشا ـ الصدر الأعظم في حكومة الانقلاب ـ يقول: «انظر: ماذا ألمَّ بنا بعد أن أسقطناك من على عرشك؟».	٢٥٨
جمال قوطاي يقول: أنور يصبح وزيراً للحربية وعمره لم يتجاوز ٣٢ سنة	٢٦٣

رابعًا

قائمة بأهم مصادر ومراجع الحواشي ومقابلة المذكرات

(أ) باللغة العربية:
١ ــ تيودور هرتزل، مذكرات هرتزل، (يوميات هرتزل) تعريب هيلدا صايغ، بيروت، ١٩٧٣م.
٢ ــ خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق الأوسط وصداه، بيروت ١٩٧٣.
٣ ــ رضا نور، مذكرات الدكتور رضا نور، ترجمة بهجت رشيد غالب، حلقات في مجلة المجتمع الكويتية ١٩٨١.
٤ ــ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة ١٩١٣.
٥ ــ مصطفى صبري (شيخ الإسلام)، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، القاهرة ١٩٥٠.

(ب) باللغة التركية العثمانية:
١ ــ آورام غالانتي، توركلر ويهوديلر.
٢ ــ علي سعيد بك، سراى خاطره لرى، سلطان عبد الحميد خانگ حياتى، إستانبول ١٣٣٨.

(ج) بالحروف التركية اللاتينية:
1 — Cemal Efendi (Seyhülislam), Siyasi Hatirat, Istanbul 1978.
2 — Cemal Kutay, Talat Paşanin Gurbet Hatiralari, 3 cilt, Istanbul 1983.
3 — Doğan Avcioğlu, 31 Martta Yabanci Parmaği, Istanbul 1969.
4 — Fethi Okyar, Üç Devirde Bir Adam, Istanbul 1980.
5 — Firuz Ahmet, Ittihat ve Terakki, T.E. Turan Ülker, Istanbul 1974.
6 — (Sir) Henri Woods, Osmanli Bahriyesinde 40 Yil, T.E. Amiral Fahri Çoker. Istanbul 1976.
7 — Hikmet Tanyo, Tarih Boyunca Türkler ve Yahudiler, Istanbul 1976.
8 — Ibnülemin Mahmut Kemal, Ikinci Sultan Abdülhamid'e Dair, Hayat – Tarih Dergisi 8/1977.
9 — Ibrahim Timo, Ittihat ve Terakki Anilari (Hatiralari), Istanbul 1978.

10 — Ilhami Mas'arin Hatiralari, Hayat – Tarih Dergisi 8/1977, Istanbul.

11 — Ismail Hami Danişmend, Izahli Osmanli Tarih Koronolojisi, Istanbul 1972.

12 — Şadiye (Sultan), Tatli ve Aci günlerim, Istanbul 1966.

13 — Yaşar Kutluay, Siyonizm ve Türkiye, Istanbul 1973.

14 — Yilmaz Öztuna, B. Türkiye Tarihi Istanbul 1975 ve 1973.

* * *

خامسًا:

الفِهرس العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

